التحوّلات الإستراتيجيّة الخطيرة

البيروسترويكا
وَحَرب الخليج الأولى

الطبعـة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أمين هويدى

التحوّلات الإستراتيجيّة الخطيرة

البيروسترويكا وحرب الخليج الأولى

دار الشروق

إهـــداء

إلى زوجـــتى وابـــنى وبنـــتى

وأحفـــادى .

مقدمة

لم يبق على نهاية القرن العشرين إلا سنوات أربع ، ينتقل العالم بعدها إلى قرن آخر، نتمنى أن يكون أحسن حظا وأكثر استقرارا بالنسبة لسكان الكوكب الذى نعيش فيه . . وسوف يستمر الإنسان في محاولاته الأبدية لإيجاد إطار يتعايش داخله مع خلافاته وتناقضاته ، محاولا التغلب عليها واحتواءها بكل الوسائل عدا استخدام القوات المسلحة التى يدعو استخدامها كوسيلة وحيدة لحل النزاعات إلى سباق تسلح رهيب ينتقص من الإمكانيات المتاحة لرفع مستوى المعيشة للأفراد ، ودفعهم إلى طريق السعادة والرخاء .

هذا أمل نرجو تحقيقه لأن دروس التاريخ تقول لنا : إن الإنسان وهو يسعى إلى ذلك تتغلب عليه أطماعه وأنانيته ، فيجد نفسه فى صراع مستمر ترتفع درجته حتى يصل إلى حد الصدام المباشر باستخدام القوات المسلحة ، لدرجة أن السلام أصبح مجرد فترة هدنة بين حربين ، كدليل على فشل محاولات الإنسان فى الاهتداء إلى المعادلة الحكيمة التى توازن بين مطالبه وأغراضه ومطالب وأغراض الآخرين . وحينئذ ينصرف إلى اختراع أسلحة التدمير التى ربما تهدد بقاءه ويقف حائرا أمامها عاجزا عن التعامل معها ، حتى يهتدى إلى حل الموقف المعقد عن طريق اختراع عائلات أخرى من الأسلحة أشد قدرة على التدمير حتى يصل إلى موقف الرعب المتبادل ليفرض استقرارا أساسه توازن القوى وليس توازن المصالح ، وهذا استقرار قلق .

وتدور عجلة التاريخ الذى لا ينتهى ليجد الإنسان نفسه أمام تجارب متجددة ، يحاول أن يستوعبها ويدرسها وينظم تفاعلاتها عبر دروب مختلفة ، وسط متغيرات شديدة تجعل من النظام العالمى الذى يحاول بناءه نظاما قلقا مراوغا غير محدد المعالم تتعدد فيه الاجتهادات والرؤى بين محاولات للهيمنة تقوم بها إحدى القوى العظمى . أما الأمن العالمى الجماعى الذى يتفق العالم فى إطاره على غرض واحد لتنفيذه بوحدة القوى التى يتوحد فيها الجميع ضد المخطئ ، أما توازن القوى بين كتل تتفق مصالحها مع بعضها البعض ضد كتل أخرى تتناقض معها فى الأهداف والمصالح ، مما يجعل الشرعية الدولية فى حيرة كاملة وهى تطبق

بطريقة اختيارية فى مواقع الأزمات التى تنتشر فى ساحة الكوكب الذى نعيش فيه، بل فى الكواكب الأخرى التى يتنافس عليها الإنسان عن طريق حرب التكنولوجيا .

وسوف تبقى القوة عاملا رئيسيا فى ممارسة السياسة، سواء بواسطة الدول الصناعية الكبرى أو الدول النامية، ولكن تبعا لمبادئ مختلفة تتحكم فيها ، فبينما استخدامها فى الحالة الأولى كعنصر فعال لحل الخلافات بينها، أصبح فى حكم المستحيل للرعب النووى المتبادل الذى سوف يظل متحكمًا طالما ظلت المخازن مليئة بالرؤوس النووية، فإن استخدامها فى القتال بين الدول النامية سيظل قائما وممكنا لفترة طويلة قادمة . وتبعا لذلك فلا ينتظر أن يتراجع حجم إنتاج السلاح فى الدول الرئيسية المركزية التى تصدره إلى الدول الهامشية المستهلكة تبعا لقوانين مختلفة عما كان عليه الحال أيام العالم ثنائى القطبية قبل سقوط الاتحاد السوفيتى فى أوائل التسعينيات، إذ ستصبح أسواق السلاح العالمية تجارة أكثر منها سياسة، وهذا تغيير خطير سوف يؤثر على اتساع الفجوة بين دول الشمال ودول الجنوب، خاصة فى ظل ارتفاع أسعار الأسلحة المنتجة وصيانتها، وفى ظل الطريقة الانتقائية التى يدير بها أصحاب القرار الأزمات التى تنشأ بينهم، والتى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى اللجوء إلى القوة مما يزيد من تعقيد الأمور، ويزيد من حساسية عامل القوة تأثيرها المؤكد فى فرض الاستقرار الإقليمى ، ففى منطقتنا فإن أى محاولة لفرضه فى غياب تعادل موازين القوى سوف يصبح مجرد وهم لأن توازن القوى هو الذى يحقق توازن المصالح، وهو القاعدة الوطيدة التى يبنى عليها الاستقرار، وليس أخطر على الحفاظ عليه من وجود دولة قوية جدا ـ مثل إسرائيل ـ لديها التفوق التقليدى وفوق التقليدى علاوة على الاحتكار النووى وسط دول ضعيفة، لأن الشعور بالقوة حافز على التوسع والهيمنة والعدوان، فللقوة صفة الانتشار فهى تطلق من مخازنها، أو أماكن حشدها إذا لم تكن هناك قوة رادعة تمنعها من ذلك وتتصدى لها وتوقف انتشارها وتجبرها على أن تعود من حيث انطلقت، فالسلام لايمكن أن يستمر إلا فى ظل قوة متوازنة قادرة تحصنه ضد نيات العدوان، مع ملاحظة أن القدرة ـ وليس مجرد القوة ـ هى العامل الحاسم فى تحقيق التوازن . والقدرة هى مجموع قوى الدولة فى المجالات السياسية والاقتصادية والمالية والروحية، الأمر الذى يحتم تحقيق التوازن الكامل بين نفقات الدفاع، ونفقات التنمية، علما بأنه كلما تنافست دول العائلة الإقليمية فى حجم نفقات التنمية وليس في حجم نفقات الدفاع ـ كلما أصبح تحقيق الاستقرار ممكنا وفى متناول اليد . وعلينا ألا ننسى دروس التاريخ فى حالة سقوط الاتحاد السوفيتى كدولة والشيوعية كعقيدة فى ظل وجود أكبر ترسانة نووية

To: www.al-mostafa.com

وتقليدية . إذ بينما كان فى استطاعة الصواريخ السوفيتية الوصول إلى أى مكان فى كوكبنا ، بل فى الكواكب الأخرى عجزت السلعة السوفيتية من الوصول إلى أى سوق من أسواق العالم بل وعجزت عن سد الاحتياجات الرئيسية للشعب من غذاء وكساء .

وكأن غموض النظام العالمى الذى نعيش في ظله ، وعدم انضباط استخدام القوة فى الصراعات القائمة لايكفيان ، فإن تفكك الهيئات الدولية كهيئة الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية كالجامعة العربية يزيد من سوء الأوضاع ، بل نجد أن محاولات البناء هنا وهناك يعترضها صعاب ثقيلة ، فالبيت الأوروبى فى حالة فوضى وإن ظهر الحال بخلاف ذلك . فالناتو يحاول أن يحدد عدوا يواجهه فلا يجد إلا التطرف الإسلامى بديلا عن الشيوعية ، وبعض الدول الأوربية يتجه إلى الاتحاد الأوربى الغربى ، والبعض الآخر يتجه إلى الشرق وإلى دول جنوب البحر المتوسط ، والولايات المتحدة الغارقة فى مشاكلها الداخلية تحاول أن تنظم حركة المرور للفوضى العالمية دون جدوى ، فقد فقدت السيطرة على ما يجرى ، والبيت العربى ليس أفضل حالا فهو فى حالة تشرذم كامل ، وقد فقد إرادته فيتطلع إلى أنظمة تخطط له خارج حدوده دون أن يقوى على رسم المشروع المضاد ، فهناك إسرائيل والولايات المتحدة تريان أن النظم القومية غير صالحة لترتيب البيت فى المنطقة ، ولابد أن تستبدل بها نظم إقليمية تضم الدول فى المنطقة وتريان فى نفس الوقت أن المدخل لتنظيم هذا البيت هو المدخل الاقتصادى والسوق الشرق أوسطية ، وللأسف الشديد فإن بعض النظم العربية تتفق وهذا المنطق ، سواء بالاقتناع الذاتى أو بالإقناع خوفا من ضغوط الغير .

وفى هذا المناخ المملوء بالضباب أصبح فن إدارة الأزمات فى مأزق حقيقى ، خاصة بعد البيروسترويكا والجلاسنوست فى الاتحاد السوفيتى الذى كان ، فقد كانت إدارة الأزمات حينئذ أكثر سهولة من إدارتها فى ظل النظام الحالى المنفلت إذ كان القطبان العظميان قادرين على التحكم فى حركة الأحداث وتصرفات اللاعبين كل فى فريقه أو مع زبائنه وكانت إدارة الأزمات وفقا لذلك ناجحة لأن الغرض من إدارة الأزمة هو منع استخدام القتال فى حل أسبابها ، فلم تقم أى مواجهة مباشرة بين القوى العظمى ، وكان الردع وليس القتال هو الأسلوب الناجح لذلك وحتى فى حالة فشل إدارة الأزمة على المستوى الإقليمى وتطورها إلى قتال بين أطرافها كان من الممكن تطويق المواجهة والتحكم فيها عن طريق عملية نقل السلاح والتكنولوجيا بعمليات محسوبة تصيغ توازن قوى دقيقا يحول دون الحسم السريع ، ولنا أن نتصور كيف كان لعملية « عاصفة الصحراء» أن تتطور فى ظل وجود القطبين العظميين بمصالحهما المتضاربة ، وهل كان من الممكن حشد كل القوات المشاركة

دون تدخل أو اعتراضات؟ لاشك أن الحسابات كانت ستختلف اختلافا جذريا سواء فى المحافل الدولية أو على مسرح العمليات .

وسوف نتوقف فى التقديم عند هذا الحد حتى لانقتحم الموقف الذى استجد بعد عاصفة الصحراء فجأة ودون تقديم ، وإلا نكون قد قفزنا إلى مجال كتابنا التالى عن التحولات الإستراتيجية الخطيرة على المستوى الإقليمى ، لأن أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات شهدت تحولين إستراتيجيين خطيرين غيرا من النظام العالمى ، وكذلك النظام الإقليمى . فالتفجير الذى حدث فى موسكو بواسطة بيروسترويكا ميخائيل جورباتشوف هز كيان الاتحاد السوفيتى كدولة وقضى على الشيوعية كعقيدة ، وتحول العالم إلى نظام مراوغ قلق يتأرجح بين نظام الهيمنة ونظام تعدد الأقطاب ، وكذلك الحال مع حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران بعد أن سيطر نظام آيات الله على الحكم فى طهران والتى أدت إلى تغير خطير فى منطقة الخليج انعكس على تحول كامل فى النظام الإقليمى ، وسقطت معه كثير من المحرمات ، وربما كان هذا الحدث الخطير آخر الأحداث التى تمت فى ظل النظام العالمى ثنائى القطبية .

ووسط هذا الاضطراب الخطير على المستوى العالمى الذى تسبب فيه الانفجار الذى حدث فى موسكو قامت الحرب بين نظامين ثوريين فى كل من بغداد وطهران وهى حرب الخليج الثانية ، إذ قام النظام العراقى ـ وللأسف الشديد ـ بغزو الكويت فجأة فى حركة لم يتوقعها أحد أحدثت تحولا خطيرا على المستويين العالمى والإقليمى .

والتحولات الخطيرة حدثت فى الماضى ، وتحدث فى الحاضر وسوف تحدث فى المستقبل ، فالتاريخ لاينتهى كما يقول البعض لأن صانعه هو الإنسان ، والإنسان باق على الأرض حتى تقوم الساعة .

ويسعدنى حقيقة أن تتولى دار « الشروق» العريقة طبع ونشر كتابى هذا وقد سبق أن مررت معها بتجربة أخرى حينما نشرت لى كتابى « العسكرة والأمن فى الشرق الأوسط وتأثيرهما على التنمية والديمقراطية» وكذلك كتابى « أزمة الأمن القومى العربى ــ أزمة الخليج ـ لمن تدق الأجراس» . . كما عملت رئيسا للقسم الإستراتيجى لموسوعة دار الشروق ومستشارا لها حينما وضع لبنتها الأولى الأخ والصديق المرحوم الأستاذ محمد المعلم رحمه الله رحمة واسعة .

أمين هويدى

مصر الجديدة ١/ ٩/ ١٩٩٦

الباب الأول ـ النظام العالمى

* الفصل الأول : النظام العالمى القلق .
* الفصل الثانى : سيناريوهات ثلاثة لتطور النظام العالمى القلق .

الفصل الأول
النظام العالمى القلق

تملكتنى الحيرة وأنا أحدد العنوان الذى أريد أن أصور به النظام الذى نعيش فى إطاره . . فلو أننا قلدنا البعض وهم يتحدثون عن النظام العالمى الجديد ، فإننا نكون قد أسقطنا عامل الدقة فى تحديد ماهية النظام بالضبط ، فمن جانب ليس هناك نظام محدد يعيش فيه العالم بعد انتهاء الحرب الباردة بين القوتين العظميين ، وبالتالى فإنه ليس جديدا بأى حال من الأحوال أو هكذا أظن . . فمازالت الشرعية الدولية تطبق بطريقة انتقائية كعهدنا الدائم بها ، ومازالت القوة هى التى تفرض الأمر الواقع أو تغيره ، ومازالت موازين القوى ـ وليس موازين المصالح ـ هى التى تفرض الاتفاقيات الرديئة التى لاتتعامل مع الحقوق التاريخية بقدر تعاملها مع الواقع الجغرافى ، ومازلنا فى الشرق الأوسط نقطن فى حى الفقراء الضعفاء فى المدينة العالمية التى يكون فيها الأغنياء الأقوياء طبقة السادة ، وهنا أحسست بأن التحدث عن النظام الجديد سوف يكون نوعا من الأمل والوهم يبعدنا عن واقع الحال ، وهذا أمر غير مرغوب فيه ، وتذكرت أزمة مماثلة حدثت من أجل تسمية الخليج أيام أن كان الشاه يحكم إيران . فقد كان الرجل يصر على تسميته بالخليج « الفارسى » وبعض العرب كانوا يصرون على تسميته بالخليج « العربى » مما كان يثير غضبه وحساسيته وتفاديا للمأزق فكر بعض حكمائنا بأن يكتفوا بتسميته « بالخليج » دون إضافة « الفارسى أو العربى » وكفى الله المؤمنين شر القتال . . فماذا لو حددنا العنوان « بالنظام العالمى » تشبها بالحكماء الذين سبقونا حتى يظهر الجديد الذى نتمناه؟ ولكن هذا الحل لن يكون تعبيرا دقيقا أيضا لأنه لا يمكن أن ننكر بأن تغييرات هائلة تحدث أمامنا فى سرعة كبيرة تغير المفاهيم وتهز الثوابت وتعدل من طبيعة العلاقات بطريقة لاتثبت على حال فيها سيولة ولزوجة من جانب وتثير الرهبة والخوف من جانب آخر، إذ يبدو كأن « الجن » قد انطلق من القمقم ، فالإمبراطوريات الكبرى تتساقط وتنهار، والنعرات القومية كتلك التى حدثت فى القرن ١٩ تلتهب ويشتد أجيجها وتشتعل نيرانها ، حتى يخيل لنا أننا نعيش فى عالم مجنون قلق يتكون

من الأحلاف الكبرى دون عـدو تواجهه، وتتساقـط الدول وتتفكك وتبقى قـواتها المسلحة متماسكة على الأقـل حتى الآن، ويهيم علماء الذرة والصنـاعات الإلكترونية على وجـوههم لينضموا إلى طوابير البطالة الطويلة التى أصبحت تسود الغرب والشرق والجنوب وتشكو فيه أقوى دولة من الناحية العسكرية من الديون والتضخم وسوء الأحوال الاقتصادية . . فالقلق يسود العالم، فنحن نعيش وبحقق فى فترة عصيبة فى عالم قلق، وبذلك تحدد العنوان .

هذا القلق أوجد أزمة حقيقية فى الفكر المعاصر، خاصة فى الفكر الغربى، فما إن تحدث «فرانسيس فوكوياما» وهو كاتب يابانى عن « نهاية التاريـخ» . . حتى تلقف البعض هذا الحديث الذى لا معنـى له فى الواقع، ليقيموا عليـه تصورات خيالية ونظريـات مضطربة، فليس معنـى سقوط الشيوعية نهايـة التاريخ، ولا يعنى فى الـوقت نفسه انتصار الـرأسمالية بصفتها التجـربة الوحيـدة الباقية، فليس معنـى بقائها حتـى الآن أنها هى النظام الـوحيد الذى فيه الشفـاء لمشاكل العالم المتعددة لأسبـاب كثيرة لا داعى للوقوف عنـدها. والشىء الذى يستحق وقفة جادة حقيقية هو تكرار هذه المواقف من بعض مفكرينا الذين ما إن برز شعار النظام العـالمى الجديد The new international order حتـى أخـذوا فى حماس ظاهر يبشرون بـالعدالة التى سوف تسـود بالاعتماد المتبادل بين جميع أعضـاء الأسرة الدولية وعودة الحقـوق المهضومة إلى أصحـابها، ثم عادوا ليتحـدثوا عـن « نهاية التاريـخ» و«نهاية العالم» لمجرد أن أحـد الكتاب المغمورين قـد ردد ذلك فى أحد مقالاتـه . . علما بأن انهيار الاتحاد السوفييتـى وتفككه وسقـوط الشيوعيـة تحت ركامـه ماهـو إلا بدايـة لحقبة تـاريخية جديدة، وليس فى هذا غرابة لأن الذى يكتب ويصيغ التاريخ هو الإنسان، ولذلك سوف يبقى التاريخ حتى ينتهى الإنسان، أى حتى نهاية العالم، فـالتاريخ منذ بدايته تتعاقب فيه «الحقب» كلما حـدثت فـرقعات تهز الثـوابت السائدة وتحطـم ركائزهـا فتبدأ دورة جـديدة بمفاهيم جديدة تـأخذ مداها حتى تتفاعل الظروف والعوامـل لينتهى النظام الموجود ليقوم على أنقـاضـه نظام آخـر يشـارك فى بنـائه أصحـاب الفكـرة ويبقى الآخـرون على الهامـش «لايهشون ولاينشون» كما يقال .

« فاسلاف هافيل» الرئيـس الحالى لشيكوسلوفاكيا ـ باعتبار ما كان ــ والشاعر والكاتب والمفكر المرموق، تحدث فى ندوة عـن الاقتصاد العالمى فى مدينة دافوس بسـويسرا رافضا ما قيل عن « نهاية التاريخ» بسقوط الشيوعية « فالعالم بدأ فى واقع الحال تجربة جديدة عليه أن يدرسها ويستوعبها كما يفعل دائما، وهو يستعرض الحلقـات التاريخية المتعاقبة، خاصة أن مشاكـل العالم قـد اختلفت بعـد سقوط الشيـوعية، فهنـاك الإرهاب النـووى المترتب على

ضعف السيطرة على الأسلحة النووية التكتيكية فى بعض الجمهوريات التى تشكل منها الكومنولث الجديد، ثم انتشار المعرفة التكنولوجية وتجارة « العقول النووية » لكبار العلماء الذين أصبحوا فى يوم وليلة لايجدون عملا ولا رزقا ، فأخذوا يعرضون أنفسهم فى السوق لمن يدفع أكثر. وكذلك انتشار « الإيدز » والمجاعة ، واتساع ثقب الأوزون ، إلى جانب تمدد الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، ثم الانفجار السكانى وانتشار الإرهاب الدولى والإرهاب الفردى . . » وهذا كلام معقول لمفكر يبتعد عن مجرد ترديد ما يقوله الآخرون ، ويحاول عن طريق تأمل ما يحدث خلق الواقع المعقول الذى يمكن التعامل معه . . وبالسير على نفس الدرب يمكننا أن نحدد بعض خواص « الظاهرة » كمحاولة للخروج من حالة «القلق الفكرية» التى فرضها سقوط الشيوعية .

* فقد سقطت الشيوعية دون الاستخدام « الديناميكى » للقوة العسكرية ، ولكن بفعل الاستخدام « الاستاتيكى » لها عن طريق استنزاف الموارد فى سباق تسلح . فالقول بأن الشيوعية سقطت دون استخدام القوة فيه تعميم وتبسيط ، فالسباق للحصول على الرادع الأقوى هو الذى يشكل العامل الرئيسى فى انهيار الاتحاد فى نهاية الأمر ، ومعنى ذلك أن الانهيار لم يتم « بالضربة القاضية » ولكنه تم « بالنقط » فى جولات متعاقبة .

* انهار النظام الشيوعى من داخله وبفعل الإنسان ، وهذا يثبت أن قدرة الفرد على المقاومة أقوى من أى نظام يفرض نفسه بالقوة ، وهذا يجعلنا نحترم قدرة الفرد على الرفض والمقاومة ونضعها فى الاعتبار .

* انتهت الحرب الباردة بين النظامين الشيوعى والرأسمالى دون استخدام الحرب الساخنة ، كما لم يعقب توقف الحرب الباردة حرب ساخنة ، بل ومما يثير الدهشة انتهت الحرب الباردة إلى مرحلة تعاون وصداقة .

* لاتكفى الشعارات لبناء الدولة فالغرض النهائى من هذا البناء هو سعادة الإنسان وتلبية رغباته لأن إرادة الفرد لا يمكن قمعها فالإرادة لاتفنى . . قد تتقوقع أو تختفى تحت عامل القهر والخوف ، ولكن الخوف ظاهرة مؤقتة يمكن أن تزول ، وحينئذ تنطلق الإرادة لتكتسح من أمامها كل شىء ، وفى تقديرى فإن التحدى الحقيقى للفكر العربى فى هذا العالم القلق هو إيجاد الثوب الذى يتلاءم ومشاكلنا دون استعانة من الخارج ، فالخطأ الذى نقع فيه دائما هو محاولة تعميم الحلول بطريقة آلية فى ظروف متغيرة فمفهوم القطاع الخاص مثلا فى الولايات المتحدة ليس كمفهومه فى بلادنا للفرق الشاسع فى تراكم رأس المال وفى القدرة التقنية والإدارية ، والديمقراطية بمفهومها الإنجليزى مثلا لايمكن أن تصلح فى دولة

إفريقية فـالحياة لها طرقها المتعددة والطريـق الواحد لا يصلح إلا لشعب واحـد ، فمحاولة تطبيق النظرية الشيوعية على شعوب مختلفـة الطبائع والأديان والمعتقدات والمشاعر أدى إلى أن الثوب أصبح فضفاضا بالنسبة للبعض ، وأصبح ضيقا بالنسبة للبعض الآخر فى الوقت نفسه « فروشتة الدواء» لاتصلح لكافة الأمراض .

وقلق النظام العالمى مشكلة عالمية واجهت الساسة قديما وتواجه الساسة حاليا ، وسوف تواجههم مستقبلا . فغـرض الساسة الكبار هو تحقيق الاستقـرار العالمى ، ولكنهم يختلفون بعد ذلك فى كيف يتحقق الاستقرار ؟ ولصالح من يكون الاستقرار؟ وبمن يكون الاستقرار؟ بـل وعلى معنى الاستقـرار؟ وهـذه هى المشكلـة الكبرى التـى تؤدى إلى الصراع الـدائم فى العلاقات الدولية . . فاختلاف المصالح شىء طبيعى ليس على مستوى العالم فحسب ، بل على مستوى الأسرة أيضا . ولكـن كيف يمكن حل هـذا الخلاف؟ هل باستخدام القـوة مما يؤدى إلى سباق التسلح؟ هل باستخدام التكنولوجيا للوصول إلى السلاح الأعظم مثل القوة النوويـة التدميرية أو أشعـة الليزر ؟ هل بـاستخدام القـوة الاقتصادية ممـا يؤدى إلى الحرب الجمركيـة للحماية والمنافسة على الأسـواق والحصول على المواد الخام واستعباد العمالـة؟ هل بالنظـريات العقائدية التـى تفتح مجال الصراع بين مقدار تـدخل الدولة وحجـم التخطيط المركزى والمبارزة بين القطـاع العام والقطاع الخاص والاختلاف على مدى حـرية السوق؟ أم يكون الحل عن طريق التوفيق بين المصالـح على أساس الإرادات الناقصة التى تقبل الحلول على أساس الأغراض الناقصة؟ فتحقيق الأمن الكـامل لطرف من الأطراف يعتبر « لا أمن » أو تهديدا لأمـن الآخرين . . فـالهيمنة العالميـة أو الإقليمية لايمكن أن تـؤدى إلى الاستقرار العالمى أو الإقليمى المنشود .

كانت هناك محاولة لفرض الاستقرار والسلام أيام الحرب النابليونية فى أوائل القرن ١٩ إذ كان هناك صدام دموى بين القـوة الثورية الصاعدة لنابليون بونـابرت وبين القوى المحافظة فى أوروبا ، وهـى الروسيـا وإنجلترا وألمانيا والنمسـا ، فتطلع ميترنيـخ مستشار النمسـا مع الفيكونت كاستليرى Meternich, Castlereagh وزير خارجية إنجلترا بعد هزيمة نابليون فى روسيا إلى إيجاد نظام يحفـظ الاستقرار لأطول فترة ممكنة فى أوروبا ، واستطاعـا عقد مؤتمر فيينا (سبتمبر ١٨١٤ ـ يونيو ١٨١٥) وحضره كل ملوك وأبـاطرة وأمراء أوروبا لإعلان دفن الثورة الفـرنسية بكل مـا حملته من شعارات ومبـادئ ولإعادة بناء وتقسيـم أوروبا بين الأسر الحاكمة القديمة . ونجـح المؤتمر فى إقامة ما يعرف بسلام المائة عـام على أسس يجب فهمها تماما ونحن نحاول أن نفهم عالمنا القلق الذى نعيش فيه :

* الحيلولة دون أن تتعرض دولة لإغراء استخدام القوة فى فرض سياستها .

* هذا لايتأتى إلا بإقامة توازن يهم الجميع المحافظة على بقائه لأنه يبنى على تبادل المصالح .

* معارضة أى محاولة من باقى دول المؤتمر لتدمير فرنسا وإضعافها عقابا لها على ما فعلته ، فاتفق على معاملة فرنسا حتى بعد هزيمتها معاملة كريمة سخية .

* الإبقاء على ألمانيا مقسمة إلى دويلات حتى لايختل التوازن الأوروبى ، وبقيت كذلك حتى تم توحيدها أيام البرنس « أوتوبسمارك» بعد ذلك .

* إعادة الشرعية الفرنسية متمثلة فى الملك لويس ١٨ مرة أخرى إلى عرشه بعد أن هزم نابليون فى ووترلو ونفى إلى سانت هيلانة بعد فراره من جزيرة البا التى كان قد نفى إليها بعد هزيمته على أيدى ولينجتون وبلوخر وعقد معاهدة « فونتنبلو Fentainbleau » .

إذن استخدم العالم لإعادة الاستقرار إلى أوروبا القلقة الحرب والسياسة . . الحرب ضد نابليون لإجباره على التخلى عن استخدام القوة العسكرية فى تحقيق أغراض السياسة بعقد مؤتمر فيينا للوصول إلى السلام المبنى على توازن القوى وتوازن المصالح . . ولكن تركت الأبواب مفتوحة لخلق الصراع من جديد ، فكان التوازن المحقق فى صالح الدول المحافظة ثم كانت المحاولة مقتصرة على أوروبا فقط ، وتركت البلاد فى الجنوب لتصبح مجالا واسعا للاستعمار ، وخلق التنافس للاستيلاء على مساحات أكبر « خميرة» للانفجار الذى تم عام ١٩١٤ معلنا بداية الحرب العالمية الأولى .

ولم يذكر أحد ممن عاصروا تلك الفترة شيئا عن « نهاية التاريخ » أو «نهاية العالم» رغما عن التغييرات المذهلة التى حدثت أثناء وبعد الحرب بالرغم من سقوط ألمانيا الجبارة وخضوعها للشروط القاسية التى فرضت عليها فى معاهدة شامبيين Compiegne عام ١٩١٨ ورغما عن ظهور الثورة الشيوعية فى روسيا ورغما عن اختلال التوازن الأوروبى وتأرجح الولايات المتحدة بين سياسة العزلة وسياسة الانفتاح . وحاول العالم أن يجد نظاما للاستقرار متجاهلا دروس الماضى متناسيا كيف أمكن لساسة القرن التاسع عشر أن يحققوا التوازن الذى رغبت كل الأطراف فى الحفاظ عليه لفترة سلام استمرت مائة عام رغما عن أنه لم يكن اتفاقا مثاليا . إلا أن الدول العظمى انصرفت إلى تقسيم الغنائم لتكوين إمبراطوريات جديدة ، واكتفت بتكوين عصبة الأمم بميثاق سلبها الإرادة ، فإذا كان السلام معناه استقرار القوى داخل إطار نظام معين وفقط ، لكان الأمر بسيطا وسهلا ، ولكن يشترط أن يحقق الإطار المتفق عليه الشرعية وحسن المعاملة وفرض القانون إذ لا يصح

النظام العالمى شرعيـا إلا إذا تضمن قواعد سلوك محترمـة من كل القوى التـى تشارك فيه ، ولكن وللأسف تناسى العالم فى مؤتمر باريس كل ذلك تحت الشعور « بغرور القوة» مما أدى إلى رفض ألمانيا الشرعية المفروضة ، وظهرت مبادئ المجـال الحيوى فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستيـة ، وعاد العالم إلى حالـة القلق التى اعتـادها وإلى سباق التسلح استعـدادا لجولة قادمـة تعيد إلى العـلاقات توازنها . . . وهكـذا البشر لاتكاد ملامـح الاستقرار تبـزغ حتى يسعى إلى أن يـدمر نفسه ، وتبلـور الفشل فى إقامة نظـام عالمى مستقر إلى نتيجـة طبيعية ، وهى قيـام الحرب العالميـة الثانيـة ، والتى يمكن أن نعـدها الحرب العـالمية الأولى بمعنـاها الدقيق فى التاريخ . .

وانتهت الحرب الثانيـة بتغييرات كبرى فى التوازنات العالميـة : فقد برز إلى الوجـود قوتان عـالميتان بنظـامين عقائديين مختلفين كـان الصراع بينهما مسـألة حيـاة أو موت ، وانتقلـت أوروبا مـن القيام بدورهـا التاريخى كمركـز للسياسـة العالمية الفعـالة إلى أن تصبح ميـدانا للمنافسة بين قـوتين تعلمان على حد قول « زبيجيو بيتريجنيسكـى » إن السيطرة على أوروبا معنـاها السيطـرة على أوراسيا ، والسيطـرة على أوراسيا معنـاهـا تحقيق السيطـرة العالميـة . وأصبحت أوروبا بذلك الغرض المرجـو ، وليس الموضوع محل المناقشة "Europe became the object' iustead' of being the subject" ونجحت الـولايات المتحدة فى تطـويق الاتحاد السوفييتى أولا ثـم ردعه للقضاء على محاولته السيطـرة على أوراسيا ثانيا ، ثـم نزعت الثقة فى أيـديولوجيته ثـالثا ثم إجهـاد اقتصادياتـه وإضعاف قدراته على تصحيـح أخطائه وسلبيـاتـه الداخليـة وعلى السيطـرة على الـدول التـابعة فى شرق أوربـا رابعـا وانهار الاتحاد السـوفييتـى كدولـة وكعقيـدة وكـانت الـوسـائل المستخـدمـة فى الحرب الباردة عسكـريـة وسياسية .

* فمن الناحيـة العسكرية كان الـردع هو العامود الفقـرى لإدارة الصراع ، والردع معناه استخدام وسائل القتال لمنع القتال . هذا على المستوى العالمى إذ إن التدمير الشامل المتبادل نتيجة الـردع النووى المتبـادل كان بمثـابة صمام الأمان لمنـع نشوب حـرب نوويـة . أما على الصعيد الإقليمى فإن القتال كـان مسموحا به بالوكالة لأن الحروب الإقليميـة كانت حروبا إقليمية عالمية .

* أما عن الـوسيلة السياسية فكانـت الاستقطاب مع الحد من دور هيئـة الأمم المتحدة ومجلس الأمن لتفادى أغلبيـة دول العالم الثالث والكتلة الشرقية ثم إثـارة النزاعات الإقليمية كمشاكـل الأراضى والحدود لإتمام السيطـرة ، وفى ظل السلاح النـووى والصواريـخ بعيدة المدى والأسلحة شديدة التـدمير والتى أسميها فى كتاباتى الأسلحـة فوق التقليدية Gonv

entional Plus لم يتحدث أحد أبدا عن « نهاية التاريخ ، أو نهاية العالم » بل تفرغ الجميع إلى سباق تسلح رهيب لم يتحمل نتائجه الاتحاد السوفييتي ، فانهار وتحلل وسقط ولم تتحمله الدول الفقيرة ، فازدادت فقرا وتجنبتi ألمانيا فقويت واتحدت ، وعزفت عنه اليابان فأصبحت قوة اقتصادية مؤثرة تهدد الاقتصاد الأمريكي نفسه .

وفي ظل وجود أكبر ترسانة نووية عرفها العالم وأضخم قوة عسكرية تقليدية منتشرة من أوروبا الشرقية إلى الأورال ثم إلى الحدود الصينية السوفيتية ، انتهت الحرب الباردة التي استمرت ٤٥ عاما بالتمام والكمال ، بل وسقط الاتحاد السوفييتي وانهارت الشيوعية وبقيت الترسانة النووية والتقليدية متماسكة حتى الآن على الأقل ، وبالرغم من ذلك فقد ظل العالم يعيش في حالة الغموض والقلق المعتادة مع وجود نتائج خطيرة على الصعيدين الجيوبوليتيكي والعقائدي : فمن الناحية الجيوبوليتيكية تحقق الأمن لأوراسيا التي كان السباق يجري للسيطرة عليها وتقهقرت القوات السوفيتية إلى حدود عام ١٩٤٠ ، بل أصبحت التهديدات تهددها من داخل حدودها الأصلية وانهار النظام السوفييتي وانتهت الشيوعية ، وعلاوة على ذلك قامت ألمانيا الموحدة من جديد بعد انضمام ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية وإلى حلف «الناتو» بالتبعية مع انهيار حلف وارسو، بل وأصبحت دوله تسعى للانضمام إلى البيت الأوروبي متمثلا في الجماعة الأوربية وإلى الجيش الأوروبي متمثلا في حلف الناتو، ومن الناحية العقائدية انفرد النظام الرأسمالي بالعالم ليتربع فوق عرشه مطالبا كل الدول باتباع اقتصاد السوق وإسقاط نظم الدعم والتخطيط المركزي .

وكأن دواعي وأسباب القلق التي يعاني منها العالم لم تكن كافية ، وتبقى في إناء المتاعب فراغ صغير يتسع لحرب قصيرة في الخليج ، فكانت عملية « درع الصحراء ، ثم عاصفة الصحراء» في الخليج ووقف الرئيس جورج بوش يوم ١٦/ ١/ ١٩٩١ ليرسل رسالة إلى العالم ، وهو يوجه ضربة الحلفاء إلى العراق فقال : «إننا نبني نظاما عالميا جديدا يتحكم فيه القانون في سلوك الدول ، وحيث تقوم هيئة الأمم المتحدة القادرة بواجبها في حفظ السلام محققة آمال منشئيها الأوائل» وأخذ بعض الكتاب والمفكرين يهللون للنظام الجديد قبل أن يولد وللعدالة المرجوة وهي تراق بين مدريد وواشنطن وإلى الشرعية الدولية ، وهي تستخدم بطريقة انتقائية تعطي فيها الجزر للبعض ويضرب البعض الآخر بالعصا . . ولم يتوقف هؤلاء لحظة واحدة ليتساءلوا ، جديد في ماذا هذا النظام؟ وجديد لمن هذا النظام؟ ولكن هنري كيسنجر في مقال له بالوشنطن بوست يوم ٢٦/ ٢/ ١٩٩٢ علق على ذلك بأنها «أحلام زائفة لنظام عالمي جديد » !!

ولكن أي الطرق سيسير فيها العالم الذي تتقاذفه المتاعب والقلاقل . . . . ؟!

الفصل الثـــانى
سيناريوهات ثلاثة لتطور النظام العالمى القلق

سقط النظـام العالمى الذى تحكمت قـوانينه طوال الحرب الباردة، والتـى اعتمدت على توازن القوى بين الولايات المتحدة الأمريكيـة وحلفائها، وبين الاتحاد السوفيتى والدول التى دارت فى فلكه، وعلى نظريات الردع الشامل والردع المتدرج وسيناريوهات الحربين ونصف والحرب ونصف .

والمعنى الـواضح لانتهـاء الحرب الباردة بـالطريقـة التى انتهـت بها هو هـزيمة الاتحاد السوفيتـى كدولـة، وسقوط الشيـوعية كعقيـدة وهذا حـدث أخطر ولاشـك من غيره مـن الأحداث العالمية الكثيرة التى مضت وولت . والنتيجة الطبيعية لقيام مثل هذه الأحداث أو اختفائها أن العـالم يجد نفسه أمام حالة شـك وغموض، وهو يحاول أن يرسم طـريقه وسط الظروف المتغيرة .

وقد اعتمد الصراع فى الحرب البـاردة على المهارة فى استخدام القوة لمنـع المواجهة المباشرة بين القوتين العظميين فيما يسمى بـالردع Deterrence أى كما سبق أن قلنا استخـدام القوة وهى فى حالة ثبات، وعلينا أن نعرف أن المبارزة فى الردع، أو معارك الردع المتبادل هى التى أطلقت الحرب الباردة بعد انتهـاء الحرب الساخنة، وهى الحرب العالمية الثـانية عام ١٩٤٥ وهى التى أنهتها دون حـرب ساخنة أى أن الردع نجح في إطلاق حـرب كما نجح فى الوقت نفسه فى إنهائها، وهذا يثبت مانردده دائما بأن للقوة نفس التأثير، سواء استخدمت فى حالة الثبات أى الردع أو فى حالة الحركة أى القتال .

وإذا كانت القـوة على هذا القدر الكبير من الأهميـة فى إقامة النظام الـدولى، فعلينا أن نضع دورها بعد انتهاء الحرب الباردة فى مقدمة العـوامل التى ستشكل النظام العالمى الذى نعيش تحت مظلته .

فما هو التغيير فى دور القوة فى ممارسـة الدبلوماسية ؟ مادور القـوة فى الصراعات العالمية

والإقليمية . . ؟ آخـذين فى الاعتبار أن الصراع ليس هـو القتال ، فوسـائل الصراع متعددة وتشمل كـل إمكانيات الدولـة وهو مانسميـه القدرة Power أو Capabilities أما القتال فوسيلتة القوة العسكرية Force .

ولابد أن نحدد شكـل الحقبة التى سوف نعيشها لعـدة أجيال قادمة ، فـالإنسان سوف يعيش فى حالـة سلام واقعى Real Peace وليس فى حـالة سلام كـامل Perfect Peace والسلام الكـامل هو اختفاء الصراعـات كلية بين العائلـة الدولية ، وهذا وهـم ومستحيل والسلام الواقعى هـو الذى يعترف بوجود التناقضات بين الدول مع محاولـة حلها باستخدام كافة الوسائل عدا القوات المسلحة أو بـاستخدامها فى نطاق ضيق مسيطر عليه لأن للدول مصالح مختلفة ، وهـى متناقضة بالضرورة ، ومن الواجـب حلها دون استخدام القوة كشرط أساسـى لإدارة الصراعات ولتحقيق ذلك يجب التحـرك بالإرادات الناقصـة للحصول على الأغراض الناقصة ، أى أن الدول تتنازل عن جزء من إرادتها وأغراضها لصالح الاستقرار .

ومعنى ذلك أن العقود القادمة ستهتم أكثر بفن إدارة الأزمات crises Management وليـس بالاستراتيجـى ، وعلينـا أن نعرف أن الغـرض من إدارة أى أزمـة هـو عدم المواجهـة المباشرة ، باستخدام القوة لأن بداية القتال معناها الفشل فى إدارة الأزمة وعلى أى حال فهذا موضوع آخر سوف نتعرض له فى فصل لاحق .

وبعد هذه المقـدمة ، علينا أن نتخيل أن هناك طرقـا ثلاثة يمكن أن يختار العـالم إحداها لبناء نظامه الجديد وذلك بناء على دروس التاريخ .

- الطريق الأول وهو الأمن العالمى الجماعى International Collective Security .
- الطريق الثانى وهو الهيمنة Domination .
- الطريق الثالث وهو توازن القوى Balance of Power .

ولاشك أن الولايات المتحدة ستقوم بدور خطير وفاصـل فى تحديد الطريق ، فبالرغم من مشاكلهـا الداخلية والكبيرة فهـى دولة متماسكة على صعيد الجبهـة الداخلية واقتصـادياتها رغما عن تراجعها الحالى أقـل تعرضا من اقتصاديات كثير من الـدول الصناعية ، علاوة على أنها تتمتع الآن ـ ولأجيال قادمة ـ بتفوق عسكرى وتكنولوجى لاينازعها فيه طرف آخر .

إلا أن الولايـات المتحدة ليست مطلقـة الحرية تماما فى اختيار الطـريق ، إذ يتوقـف هذا أيضا على عوامل كثيرة نختار أربعة منها وهى الأكثر أهمية من وجهة نظرنا .

فكيف ستحدد أوربا طريقها فى الأعوام القليلة القادمة ؟

وكيف سيتم التحول فى الكومونولث الروسى ؟

وكيف ستتشكل منطقة الباسيفيكى فى ظل عملاقين هما اليابان والصين ؟

وأخيرا كيف ستنتهى إليه الأمور فى منطقة الشرق الأوسط ، وخاصة النزاع العربى الإسرائيلى؟

١ ـ الطريق الأول ـ الأمن العالمى الجماعى :

جرب العالم هذا « السيناريو » فى عملية « عاصفة الصحراء » حيث أمكن للرئيس جورج بوش أن يجمع ــ بعد الغزو العراقى للكويت فى ٢/ ٨/ ١٩٩٠ ـ عددا كبيرا من الجيوش الغربية والعربية والإسلامية فى عملية دقيقة هى عملية « درع الجزيرة» علاوة على نجاحه الكامل فى إيجاد تحالف سياسى يشمل الغرب والشرق على حد سواء . نجح فى رد الغزو من حيث أتى .

وكان معنى ما تم هو تنفيذ عمل جماعى عالمى لمواجهة المعتدى ، وقد سبق للرئيس «وودر ويلسون أن نادى بذلك » بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ فقال « لايعتمد السلام على موازين القوى Balance of Power فحسب ، ولكنه يعتمد على وحدة القوى أيضا Community of Power وعلى الأمم أن تتعلم أن هناك إجماعا واحدا هو إجماع الكل ضد المخطئ . . ولكن وبعد حوالى ٢٠ عاما من هذا الحديث قامت الحرب العالمية الثانية بطريقة وحشية غير مسبوقة !!!

إذن كان ويلسون يريد نقل النظام العالمى من مرحلة توازن القوى إلى مرحلة جديدة هى مرحلة « وحدة القوى أو جماعيتها» يعنى أن يتفق العالم على غرض واحد Common Purpose لتنفيذه بوحدة القوى . ولكن هذه المثالية التى نادى بها وودر ويلسون فى أوائل القرن الحالى لم تتحقق لا فى ظل عصبة الأمم ولا فى ظل هيئة الأمم لأن هيئة الأمم لم تقم فى الحقيقة بعملية « درع الصحراء» فالذى نفذها هو الرئيس جورج بوش بتمهيد كامل بجهود السعودية ومصر لأنه لولا وقوفهما مع الحق من أول لحظة ما أمكن حشد القوات الهائلة فى السعودية تمهيدا لطرد العراق من الكويت ثم ضرب العراق بعد ذلك ضربة قوية ستؤثر عليه وعلينا حتى بعد بداية القرن القادم بوقت ليس بالقصير.

ونظرية الأمن العالمى الجماعى معناها أن تنظر دول العالم نظرة واحدة إلى التهديدات التى

تهز الاستقرار العالمى بمعنى أن المصالح العالمية سوف تكون واحدة متطابقة ، وهذا أمر مستحيل أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع ، فما تم من إنشاء هذا التحالف الضخم فى عملية درع الصحراء يستحيل تكراره فلن يجد العالم مرة أخرى رئيسا كالرئيس صدام حسين لديه القدرة على استفزازه بأفعال غير مسبوقة ولا حماقات غريبة لاتقوم على أى حسابات عاقلة ثم لن يتوفر هذا الإجماع مرة أخرى ، إزاء أى عمل عدوانى فى المستقبل علاوة على أنه من الصعب تقبل الرأى العام العالمى تكرار مثل هذا الإجراء، علاوة على صعوبات تكاليف الإنفاق الباهظة التى تتطلبها عملية التحضير لاستخدام القوة ثم تجميعها ثم استخدامها .

ولكن ربما يصبح هذا الأمل ممكنا لو توفرت بعض الإجراءات التى قد تساعد على ذلك عن طريق .

● نجاح الأسرة الدولية فى إعطاء هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن القدرة على المحافظة على السلام حتى يكون اتخاذ القرار جماعيا لمواجهة أى تهديدات للسلام العالمى .

● تخصيص قوة حفظ السلام من الدول المختلفة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن .

● الانتقال بهيئة الأمم من مجرد العمل على حفظ السلام إلى واجب بناء السلام بمعالجة كافة المشاكل العالمية التى تهدد الاستقرار العالمى .

وهذا موضوع يلعب فيه عامل الوقت دورا رئيسيا، فالزمن ربما يصل بنا إلى حل فى إطار هذه الأمانى ، والزمن أيضا ربما يعقد الأمور لأن حدوث الأزمات شىء طبيعى فى ظل تضارب المصالح، وفى ظل تطبيق المبادئ بطريقة انتقائية وفى ظل غرور القوة لأن الشعور بالقوة له تأثيره الحاسم فى اتخاذ القرارات ، وهى - أى القوة - عامل محايد ، ولكن إذا ماشعرت بتعاظمها وتمددها انطلقت من عقالها لأن لها صفة الانتشار ولاتتوقف إلا إذا واجهتها قوة أخرى أقدر منها لتوقفها عن الانتشار أولا ثم لتجبرها على الارتداد من حيث انطلقت ثانيا . فهل ينجح العالم فى إيجاد قوة عالمية توقف النيات العدوانية سواء عن طريق الردع أو عن طريق القتال ؟ مجرد أمل يحلم به الإنسان فى الوقت الذى يشمّر فيه عن ساعديه، ويعصر فيه بنات أفكاره لاختراع آلات التدمير والفناء . وهذه هى المأساة الحقيقية التى تعيشها الإنسانية منذ بداية الخليقة إذ يتوفر لها القدرة الخارقة للبناء والقوة المخيفة للهدم والتدمير .

٢ - الطريق الثانى - الهيمنة

وهناك سيناريو آخر يمكن أن يناقش ونحن نحاول أن نتلمس شكل النظام العالمى

المنتظر، فهل يمكن للولايات المتحدة ـ تحت الشعور بالغرور لامتلاكها أكبر قوة عسكرية فى العالم دون منازع ــ أن تفكر فى أن تهيمن على هذا العالم قاطبة وتحقق مايسمى بالسلام الأمريكى .PAX American بمعنى أن يأتمر العالم بأمرها وينفذ رغباتها بحيث تسعى الأنظمة لكى تغير من نفسها لتصبح فى شكل النظام الأمريكى من ناحية تنظيمها السياسى وأسلوبها الاقتصادى ، بل واتجاهاتها العقائدية أو أقرب مايكون إلى ذلك . . ؟!

الوثيقة الأمريكية ودرجة سريتها « سرى جدا» والتى نشرتها « النيويورك تايمز » الأمريكية ، والتى تسربت من البنتاجون تتحدث عن الدور الأوحد للولايات المتحدة لحماية الأمن العالمى ، ولذلك فإنها يجب أن تضمن بقاءها كقوة عظمى وحيدة بلامنازع فى العالم وعلى المنافسين المحتملين ألا يتطلعوا إلى دورا كبير، أو اتخاذ موقف فيه قدر من المغامرة لحماية مصالحهم المشروعة ، ويدرس البنتاجون حاليا شكل عالم « تسوده الهيمنة الخيرة لقوة عظمى واحدة» وفيما يخصنا نحن فى الشرق الأوسط من هذا التصور يشرحه الرئيس بوش فى إحدى خطبه الانتخابية بأن « الهدف العام للإستراتيجية الجديدة هو بقاء القوات الأمريكية فى مواقعها المتقدمة ، وفى قدرة أمريكا والدول الغربية على الوصول إلى مصادر البترول فى الخليج مع القدرة على ردع أى محاولة لتهديد هذه المصادر من الداخل أو الخارج وحماية مصالح أمريكا ورعاياها وممتلكاتها وضمان وصولها إلى الممرات المائية والأجواء الدولية وتأكيد أن غزو العراق للكويت قد دفع أمريكا إلى منع أى تحالف للنظم الفوضوية الغوغائية من السيطرة على الخليج ويشمل بالتحديد الجزيرة العربية .

وهناك ملاحظة عابرة عن تكرار تسرب الوثائق «سرى جدا» من البنتاجون فقبل أيام من تسرب الوثيقة الأخيرة التى تحدثنا عنها تسربت وثيقة أخرى من البنتاجون ونشرتها النيويورك تايمز أيضا تتحدث عن ٧ سيناريوهات لاحتمالات التهديدات التى تؤثر على مصالح الولايات المتحدة والتى قد تدفعها إلى حرب ، وذلك على مدى العشر سنوات القادمة ويوحى تكرار تسرب الوثائق التى على هذه الدرجة العالية من السرية ومن البنتاجون بالذات إلى أمرين لا ثالث لهما : فإما إن البنتاجون أصبح مكانا « مشاعا» لسرقة الوثائق ونشرها ، وإن الحراس فى إجازة ، وإما إن نشر هذه الوثائق متعمد ويطلق كبالونات اختبار . .

وأعتقد أن الافتراض الثانى هو الأكثر احتمالا.

ولكن إذا كانت هذه رغبة حقيقية للولايات المتحدة فهل لديها القدرة على ذلك؟

فى مقاله فى إحدى نشرات المعهد الاستراتيجى بلندن « أبعاد جديدة فى الأمن العالمى»

كتب وولتر سلوكومب Walter B. Slocombe الباحث المعروف عـن انقسام الرأى العام الأمريكى بين الانعـزالية الجديدة Neo - isolation التى ترى انسحاب الـولايات المتحدة من السياسة الدوليـة لتركز على مشاكلها الداخلية ، خاصة وأن المنـافسة الاقتصادية حلت محل الأحـلاف العسكريـة ، وتذهـب إلى درجة إحـلال اليـابان كمنـافس بـديل لـلاتحاد السوفيتـى وبين الانفتاحيـة المتطرفـة التى ترى أنـه بعد انتهـاء الحرب الباردة على الـولايات المتحدة أن تزيد من دورهـا العالمى لحماية مصالحها العالمية ، وأصبح مـن واجبها إقامة نظام سلام عالمى تبنى تحت ظلاله الأنظمة الحرة والأسواق الحرة .

هذا الخلاف على البعد العالمى المتوقع للولايات المتحدة هو إحدى النقاط التى دار حولها الخطاب السياسى أثناء فترة الانتخابات الرئاسيـة بين كل من جورج بوش وبل كلينتون لأن فشل الرئيس جورج بوش فى معالجة المشاكل الـداخلية جعله هدفا لسهام المنافسين يساعد على ذلك صعوبة الـوضع الداخلى فى الولايات المتحدة فـالادخار محدود ، والمدن الأمريكية قذرة ، انتشار الجريمة والمخدرات ، الإنتاجية الصنـاعية متدهورة ، الاضطرابات العنصرية تنتشر: الفقر، البنية الاسـاسية متآكلة ، أمراض البيئـة ، الرعاية الصحية قليلـة ، وتكاليف العلاج باهظة ، وأخيرا تدهور التعليم .

والولايات المتحـدة ـ التى تحاسب الدول المدينـة حساب الملكين عن طريـق ناكر ونكير وهما البنك الـدولى وصندوق النقد الـدولى على التوالى ـ هى أكثـر الدول مديـونية ، كما أن لديها مشـاكل اجتماعية وعـرقية كبيرة تؤدى إلى خلل التـوازن فى المجتمع الأمريكـى ، ومن المتوقـع أن يكون الســود وأبناء أمـريكا اللاتينيـة هم الأغلبيـة فى مطلع القـرن ٢١ كما يقول البروفيسور دومينيـك شوفاليـه أستاذ تاريخ العـالمين العربى والإسـلامى المعاصر بجـامعة السوربون ثم الأقطاب الصنـاعية العملاقة الصاعدة سوف تكون منـافسا قويا لهذه الهيمنة والتى ترضاها . مـا نؤكد باختصار هو أن الفجوة بين الرغبـة فى الهيمنة والقدرة على تحقيقها كبيرة بحق .

٣ ـ الطريق الثالـث : توازن القوى

وهو الطريق التقليدى الذى سار عليه العالم منذ بداية الخليقة ، ولكن مع اختلاف كبير فى مفهوم هذا التوازن قبل وبعد انتهاء الحرب الباردة .

فمن هو العدو ؟ ومن هو الصديق؟ كان التهديد الرئيسى قبل نهاية الحرب الباردة يهب من الاتحاد الســوفيتى كنظـام وكعقيدة ومـازال التهديـد واردا بعد نهايـة الحرب الباردة مـن

الكومنولث الذى نشأ بعد تحلل الاتحاد السوفيتى، والشىء الغريب أن قوة الاتحاد السوفيتى شكلت تهديدا والضعف النسبى للكومنولث الحالى يشكل تهديدا، فالاتحاد تهديد والتفكك تهديد، وهذا أكبر دليل على قوة الضعف وضعف القوة. The Power of impotence and the impotence of Power والتهديد الحالى من نوع آخر إذ إن تصاعد مشاعر القوميات وتحلل القوة المركزية وتفككها ووجود قوة عسكرية متلاحمة على الأقل حتى الآن فى ظل تفكك القيادة السياسية التى كانت تأتمر بأوامرها والخوف من الانتشار النووى عن طريق انتشار الأسلحة النووية التكتيكية وتفكك السيطرة على الأسلحة الاستراتيجية ثم الخوف من انتشار التكنولوجيا النووية عن طريق احتمال عرض الوقود النووى فى الأسواق كسلعة وتسرب الأدمغة النووية لمن يدفع أكثر . . . كل ذلك يشير إلى خطر يوشك على الانفجار، خاصة وأن روسيا مازالت ضخمة متماسكة وتحت يدها نفس الترسانة النووية التى كانت موجودة أيام الاتحاد السوفيتى .

والتهديد الآخر تهديد اقتصادى ناجم عن التكتلات الاقتصادية الكبيرة فى الشمال فلدينا الكتلة الأوروبية ونواتها ألمانيا الموحدة، ولدينا الكتلة الآسيوية ونواتها الصين واليابان ثم الكتلة النامية التى لاتشترك إلا فى الفقر وتدنى مستوى المعيشة، ولكنها تحتوى على مصادر الطاقة والمواد الخام مما يحفز على التسابق وهذا يحتاج إلى تنافس والتنافس يحتاج إلى القوة .

فهل هذا هو الطريق الذى سيختاره العالم ؟ إن تم ذلك فسوف يكون عودا على بدء . .

الباب الثانى - مفهوم استخدام القوة

* الفصل الثالث : مفهوم استخدام القوة فى ظل النظام العالمى المراوغ
* الفصل الرابع : سوق السلاح تجارة أم سياسة ؟!
* الفصل الخامس : مبادرة بوش للحد من انتشار الأسلحة فى منطقة الشرق الأوسط .

الفصل الثالث

مفهوم استخدام القوة

بدأت ملامح اتجاه العالم إلى بناء نظامه الحالى فى منتصف الثمانينات بالتحولات الهائلة فى الاتحاد السوفيتى والتى يطلق عليها الذين مازالوا شيوعيين « الثورة المضادة» للاشتراكية والنظام الشيوعى فى مجموعة الكتلة الاشتراكية والتى أدت فى النهاية إلى سقوط الشيوعية كعقيدة والاتحاد السوفيتى كدولة ، ونحن على وشك الانتهاء من القرن العشرين .

ولكن بعد معركة « عاصفة الصحراء » التى خاضتها « قوات التحالف » ضد النظام العراقى برئاسة الرئيس صدام حسين إثر غزوه الكويت فى عملية لم تشهدها المنطقة من قبل ، تحددت ملامح هذا النظام العالمى بطريقة أكثر وضوحا ، وقد سبق لنا فى الباب الأول شرح بعض هذه الملامح ، ولكن يمكننا أن نضيف أن من أهم هذه الملامح مفهوم دور القوة فى هذا النظام وتشكيله مما يحتاج إلى رصد مستمر ، خاصة فى الصراعات الإقليمية ومن بينها منطقة الشرق الأوسط ، والتى تعتبر بؤرة قلقة غير مستقرة تتفجر فيها الأزمات بمعدلات سريعة غير متوقعة .

السلام والقوة :

فى كتابه «عام ١٩٩٩ نصر بلاحرب Victory without war ـ ١٩٩٩ » حدثنا الرئيس « ريتشارد نكسون» عن مفهوم السلام حديثا لابد أن نعيه ونضعه فى الحسبان ، فقد ألغت الأسلحة النووية الحروب على المستوى العالمى كوسيلة لحل النزاعات ، ولكن ليس معنى ذلك وصول العالم إلى مايسمى بالسلام الكامل ـ Perfect peace الذى تنتهى فيه المنازعات والتناقضات بين الدول فهذا مجرد وهم . ولكن يعيش العالم فى ظل السلام الحقيقى ـ Real Peace ومعناه تعايش الدول مع تناقضاتها وخلافاتها ، ومحاولة حلها دون اللجوء إلى

استخدام القوة، ولذلك فكل من القوتين العظميين تعيش مع بعضها البعض تحت مايسمى بحرب السلام . . الأسلحة المستخدمة فيها هى : الدعاية والدبلوماسية، والمفاوضات والمساعدات الخارجية، والمناورات السياسية والعمليات السرية، أو الحروب بالوكالة على المستوى الإقليمى (*) .

فى فترة حرب السلام هذه، وتحت مظلة الرعب النووى أصبح القتال وخوض الحرب لحل النزاع بين القوتين العظميين مستحيلين فكان عليهما التعايش كما يتعايش عقربان فى أنبوب واحد إذا لدغ أحدهما الآخر فإن هذا الآخر سيلدغه قبل أن يموت، ولم يكن هذا يعنى اقتناعاً بعدم إمكانية اللجوء إلى استخدام القوة على الإطلاق، طالما أصبح القتال مستحيلا، ولذلك ظل التسابق على التسلح قائما على قدم وساق والجهود لملء المخازن بالأسلحة المتطورة مستمرة ليل نهار لتحقيق الانتصار فى معركة الردع أى استخدام أدوات الحرب ووسائلها لمنع القتال ، وذلك باستخدام القوة وهى فى حالة السكون Static ولكن إذا تحركت القوة لخوض المعركة فشل الردع، ومعنى ذلك أن القوتين العظميين كانتا تخوضان حرب السلام باستخدام الردع، مما يدل على أن السلام لا يمكن أن يستقر إلا بتوفر القوة التى تسانده لردع العدو والصديق عن إقدامهما على العدوان .

ولكن لم يكن معنى الاستقرار، واستحالة القتال بين القوى العالمية استحالته على المستويات الإقليمية، بل لم يكن معنى الاستقرار على المستوى العالمى انتهاء الصراع على هذا المستوى، ولكن كان يعنى استمراره بكل وسائل الصراع عدا المواجهة المباشرة باستخدام القوة ونقل ذلك إلى المستويات الإقليمية على كل مساحة الكوكب الذى نعيش فيه، بل فى الكواكب الأخرى بما فى ذلك مجال الفضاء، وأصبح الصراع « كواكبيا» وليس «كوكبيا» فشمل الكواكب الأخرى غير مكتف بالكوكب الذى نعيش فيه .

ونتيجة لاستحالة القتال بين القوتين العظميين فى ظل الرعب النووى، فقد كان لزاما إيجاد مخرج لاستخدام القوة فى الصراعات الإقليمية تحقيقا لما نادى به كارل فون كلا ويز ويتز فى كتابه « فى الحرب ـ On War » من أن« الحرب هى استمرار للسياسة بطريقة أخرى» وإلا حدث انفجار من عدم استخدام القوة فى ظل القوانين التى كانت تنظم الصراع وقتئذ فاتبعت وسائل متعددة لنقل الصراع إلى المستويات الإقليمية كمتنفس لانفجار قد يحدث على المستوى العالمى مثل :

(*) R. chard Nixon, 1999 victory without war, Sidgwicke& Jackson London, 1988.

●استقطاب الدول الإقليمية Polarization .

● السماح باستخدام القوات المسلحة فى الصراعات الإقليميـة فى ظل تفاهم متبادل على أن ذلك لايؤثر فى استمرار الاستقرار على المستوى العـالمى . وهنا تتقاتل الدول الإقليمية مع بعضها بطريقة مباشرة، وتشترك القوى العظمى فيها يدور بطريقة غير مباشرة من وراء ستار فأصبحت الحروب الإقليمية حروبا إقليمية عالمية أو حروبا بالوكالة Proxy .

● نقـل السـلاح والتكنـولـوجيا مـن الـدول المركـزيـة Central إلى الـدول الهامشيـة Perepherial بما يسمى سباق التسلح للتأثير فى توازنات القوى الإقليمية .

● إدارة الأزمـات Crises Management وليس حلهـا حتى لـو أدى ذلك إلى تكـاثر النقط الساخنة وانتشار أقواس الأزمات كما حدث فى الشرق الأوسط .

كان استخدام القوة يتم فى صورتين مختلفتين : على المستـوى العالمى يتم استخدامها فى حالـة السكون أى بالـردع . . لاستحالة المواجهات المباشرة فى ظل التدمير المؤكـد المتبادل الناتج عـن الرعب النووى المتبادل . وعلى المستـوى الإقليمى يتم باستخدام القـوة فى حالة السكون أى الردع ، وأيضا فى حالة تحركها أى القتـال ولكن بسيطرة القوى المركزية لأنها هى المنبع الرئيسى لنقـل السلاح والتكنولوجيا وكانت القـوى العظمى تحصل على الانتصارات والهزائم «بالنقـط» وليس « بـالضربة القاضيـة» . . . نصر هنا وهـزيمة هنـاك فى خطوات محسوبة بدقة حتى لاتحدث المواجهة المباشرة التى تتفادها القوى المتصارعة(*) .

وفى المرات القليلة التى اضطرت فيهـا القوى العظمى التدخل تدخـلا مباشرا فى أزمات إقليمية (ليبيـا ـ جريـنادا ــ أفغانستان ـ تشيكـوسلوفاكيا) كـانت هناك قواعـد تتحكم فى السيطرة على اللعبـة الدائرة لمنع المواجهـة المباشرة . فـالقوة العظمى « خـارج الملعب» تحترم تماما القوة العظمـى الأخرى « داخل الملعب» بـأن تظل فى الخارج تجنبا للاصطـدام ولكنها تحاول زيادة « توريط» القوة المتـدخلة بإثارة المتاعب أمامها فى المجال الـدبلوماسى والإمداد بالسلاح ، وربما بفتـح جبهات جديدة فى نقط ساخنـة قابلة للانفجار . ويتـم اللعب هنا على المكشوف فلا يجوز تخبئة أى أوراق تحت الموائد .

البيروسترويكا والانقلاب فى مفهوم القوة .

فى كتابـه « الحرية هـى المستقبل»(**) كتب إدوارد شيفـرنادزة وزير الخارجية السـوفيتى

(*) أمين هويـدى ـ كسينجـر وإدارة الصراع الدولى ــ دار الطليعة للطبـاعة والنشر ــ بيروت ١٩٧٩ ودار الموقف العربى القاهرة عام ١٩٨٧ .

(**) ترجمة جريدة صوت الكويت ـ العدد ٣٢٥ فى ٢١/٩/١٩٩١ .

الأسبق « يعمل مبدأ التعايش السلمى حاليا بطريقة جديدة تماما ، فبعد أن تخطى الزمن مرحلة المواجهة بين الشرق والغرب وانتهاء الحرب الباردة وفيها نحن نعمل على بناء أوروبا الجديدة يبدو أن هذا التعبير أصبح لايفى بالحاجة ، وأصبح مبدأ المشاركة الكونية والتعاون والتفاهم المتبادل والعمل المشترك هو الذى يتصدر المواجهة الآن . كل الناس أيا كانت اختلافاتهم معنيون بالسلام والرخاء والتقدم وبصحة المجتمع والإنسان وبحماية الحضارة . . لقد تخلينا عن المواجهة كقاعدة أساسية فى سياستنا الخارجية وإلى تجاوز الشعارات الأيديولوجية بتجريد العلاقات الدولية من الإيديولوجيا وإلى البحث عن نقاط التلاقى» ثم يقص حكاية تناقلها الناس عنه بأنه فى اجتماع هلسنكى وضع خنجره (صناعة جورجيا) أمام وزير الخارجية الأمريكى الذى يجلس قبالته قائلا « لقد نزعت سلاحى والآن جاء دورك » ويقول « للأسف لم يحدث شىء من ذلك إذ إن ماحدث خلال لقائى الثانى فى نيويورك فى سبتمبر/ أيلول ١٩٨٥ مع جورج شولتز قلت له : إن أمورا كثيرة فى العالم أصبحت تربط بين بلدينا إننى أنتوى أن أكون شريكا شريفا وموثوقا به وصديقا إذا كنت ترغب فى ذلك . فاندفع شولتز ليصافحنى ويشد على يدى » .

وكان ميخائيل جورباتشوف قد كتب قبل ذلك يقول (*) « إن الحروب النووية لا يمكن أن تكون وسيلة الحصول على أهداف سياسية أو اقتصادية أو أيديولوجية أو أى أهداف أخرى . وهذا الاستنتاج يستبعد الأفكار التقليدية للحرب والسلام فلن يكون هناك منتصرون أو منهزمون فى الحرب النووية إذ إنها فناء وانتحار للحضارة العالمية . . وبالمثل فقد تطورت التكنولوجيا العسكرية لتجعل من الحرب غير النووية أقرب ما تكون إلى الحرب النووية . وبذلك ظهر وضع مختلف تماما عما كان عليه الحال من قبل فى طريقة التفكير والسلوك التى تستند إلى استخدام القوة فى السياسة العالمية . وقد انقضى القول المأثور لكلاوزفيتز بأن الحرب استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى . فقد كان هذا القول كلاسيكيا فى زمانه وأصبح الآن محفوظا فى المكتبات ، ولأول مرة فى التاريخ يتحتم وضع السياسة الدولية على أساس معايير معنوية وأخلاقية مشتركة لكل البشرية ، وكذا إضفاء الطابع الإنسانى على العلاقات الدولية ، وأصبح من المؤكد استحالة الحل العسكرى للخلافات الدولية ولم يعد من الممكن ضمان الأمن بالوسائل العسكرية باستخدام الأسلحة أو الردع أو بمواصلة إتقان استخدام السيف والدرع ، فسباق التسلح لايحول موارد ضخمة بعيدا عن أولويات أخرى

(*) ميخائيل جور باتشوف ـ البيروسترويكا ـ تفكير جديد لبلادنا والعالم ـ ترجمة حمدى عبد الجواد .

فقط ، ولكنـه يخفض مـن مستوى الأمـن أيضا ويضعفـه ، فهو فى حـد ذاته عـدو السلام وأصبح الطريق الوحيد إلى الآمن هو من خلال القرارات السياسية ونزع السلاح» .

وفى إطـار هـذه المفاهيـم حـدث الـزلـزال فى دول الكتلـة الشرقية ، وانسحـب الجيـش السوفيتى من بعـض مواقعه التقليدية هناك ، كما انسحب من أفغـانستان وأنجولا والحبشة وكان قد انسحب قبل ذلك من الصومال ، ثـم عقدت اتفاقيات الحد من الأسلحة النووية التى كان من المستحيل التـوقيع عليها قبل هذه النظرية الجديدة . وقَبِل الطـرفان ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ــ مبدأ التفتيش على الترسانات العسكريـة ، وتدمير المتفق بينهما على تخفيضه .

وبـدأ سوق السـلاح يهتز بـدلا من « الـرتـابة» التـى كان يعيـش فى ظلها وبـدأ الاتحاد السوفيتى يضعف قبضتـه على حلف وارسو حتى تم حلّه ، كما بدأ يـركز على الإصلاحات الداخلية ويخفف من تدخله فى الصراعات الإقليمية .

وبين إقدام الاتحاد السـوفيتى على تنفيـذ نظرتـه الجديدة ، إعـادة البناء على أسـس هذه النظرة الجديدة ، وتشكك الـولايات المتحدة فى حقيقة نيات الاتحاد السوفيتـى وإبقائها على حلـف الاطلنطى ومسـانـدتها لحلفائهـا الإقليميين لم يقرأ بعـض قـادة دول العالم الصـورة الجديدة على المسرح العـالمى وفاتهم مقارنـة استخدام القـوة قبل البيروسترويكا وبعـدها ، وكان أكبر مثـل على ذلك هـو الرئيس صـدام حسين التكريتى . . . فـاته أن يقـرأ ويتعلم ويتخيل الأوضـاع الجديدة والـدروس التى تعطيها . . وقـع الرجـل تحت شعور مـايسمى «بغرور القوة» فى وقت تغيرت فيه معانيها ووزنها فى ممارسة السياسة . . لم يتنبه إلى أن امتلاك القوة شىء والخطـأ فى حسابات استخدامها شـىءأخر . . لم يعرف الرجـل القيود الحقيقية التى بـدأ العالم بـوضعها على قوانين انتشـار القوة وتدخلهـا لحسم الصراعـات الإقليمية ، والسبب فى ذلك فى تقديرى هو الولايات المتحدة الأمريكية .

- فهى التى استمرت فى مضاعفة صادراتها من الأسلحة إلى الأسواق العالمية .
- وهى التى شجعت إسرائيل على ممارسة استخدام القوة فى السيطرة على أرض الغير.
- وهى التى ــ حتى تلك الفترة ـ كـانت تسعى إلى تفتيت المنظمات الـدولية ونزع إرادتها عنها بشكل أهدر القانون الدولى وهز مفاهيم السيادة وحط من قدر العدالة والشرعية .

واستمر الوضع هكذا حتى عملية « عاصفة الصحراء» . . فكما ترددت الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية واحتكارها حينئذ القوة النووية ـ إذ لم يكن الاتحاد السوفيتى

قد وصل إلى حالة التعادل معها فى هذاالمجال ـ فى صياغة نظام عالمى جديد يبنى على توازن المصالح كما حدث فى اتفاقية فيينا عام ١٨١٤ والتى أعقبها « سلام المائة عام » فإنها عادت وترددت مرة أخرى حينما بدأ الاتحاد السوفيتى يرسل الرسالة تلو الرسالة بمفاهيمه الجديدة فى البيروسترويكا . . لم تحاول هـذه المرة أيضا أن تفهم حقيقـة الأوضاع وتكلمـت كثيرا عن «العالم الذى يـراد بناؤه ـ A World Restored ولكنها لم تفعـل شيئا لبناء النظـام العالمى الجديد . . رفعت الشعارات وتـرددت فى تحمل مسئوليتها فى عالم جديـد وظنت أن الأفكار التى تتردد عن ذلـك ماهى إلا نوع مـن « اليوتوبيا» . . بعـد الحرب العالمية الثانيـة لم تفهم خطورة السـلاح النووى الذى تحتكره وعـاملته على أنه سـلاح جديد أشد تـدميرا وتجاهلت قوته فى صياغة سياسة العالم . وفى آخـر الثمانينات لم تفهـم خطورة البيروسترويكا وما يمكن أن تحدثه فى تغيير المفاهيم السائدة .

عاصفة الصحراء ثورة على المفاهيم التقليدية لاستخدام القوة (*) .

وضعت«عاصفـة الصحراء» المفاهيم الإستراتيجيـة فى مأزق حقيقى ، خاصـة فى مفهوم استخدام القوة لابـد من دراستها . . فاستخـدام القوة وسيلة من وسـائل الصراعين العالمى والإقليمى . ولابـد أن نفرق بين الصراع والقتال لأن الأخير إحدى وسـائل الأول وعلينا أن نفهم القيـود الثقيلة التـى تنظم استخـدام القوة والتـى يجب أن يعيها ويتفهمهـا أصحاب القرار، ويتعاملوا معها بكل احتراس واحترام .

فليس هناك أى قيود عالمية وإقليمية على من يريد إطلاق الطلقة الأولى حتى بعد عملية عاصفـة الصحراء ، فيمكن لأى دولـة أن تبدأ القتال فى المكان الـذى تريده ، وفى الـوقت الذى تـريده ، وبالطـريقة التى تختـارها ، ولكـن بعد إطلاقهـا الطلقة الأولى تفقد الـدولة حريتهـا فى إنهاء القتال فى المكان الذى تـريده ، وفى الوقت الـذى تختاره ، وبالطريقـة التى تحلو لها ليـس فقط لتحكـم الدول المصـدرة ، للسلاح فى تصـديره ولكـن لاحتمال تدخـل الشرعية الدولية لحسم الموقف بالشكل الذى تريده أيضا .

وتعمـل الشرعية الـدوليـة المعـاصرة فى عالم أحـادى القطبيـة تقـوده الولايـات المتحـدة الأمريكية ، وعلاوة على ذلك فهى شرعية انتقائية تكيل بأكثر من مكيال لتحكم واشنطن فى مجلس الأمن بعد غياب الفيتو السوفيتى الأمر الذى فتح الباب أمام إصدار قرارات التدخل

(*) أمين هويدى ـ مفهوم القوة بعد عاصفة الصحراء ـ جريدة الأهالى فى ٢٥/ ٩/ ١٩٩١ .

فى النقاط الملتهبة أو عدم التدخل فيها وفقا لمصالحها . . . فماهو مفهومنا لاستخدام القوة فى ظل هذه الظروف؟ كيف نواجه العدوان الحالى والمستقبلى الذى يقع علينا من هنا وهناك فى ظل هذه الشرعية الدولية التى تغير لونها كالحرباء؟ ثم ماهو مفهومنا لاستخدام القوة فى ظل مبادئ الرئيس جورج بوش لتنظيم نقل السلاح والتكنولوجيا إلى المنطقة والتى وافق عليها مؤتمر لندن للدول المصدرة للصواريخ؟ المبادرة تمزج بين تحريم إنتاج واستخدام الصواريخ والأسلحة فوق التقليدية ـ وهى التى أطلقها فى كتاباتى على الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والحارقة ـ وتقييد تصدير السلاح التقليدى، وليس تجريمه بدعوى تلبية الحاجة المشروعة لكل دولة للدفاع عن نفسها ضد أى عدوان . . ولكن من الذى يحدد هذه التهديدات؟ من الذى يحدد حجم ونوع السلاح اللازم ؟ مفهوم المبادرة يشير إلى أن واشنطن سوف تتولى هذه المسئوليةلتشكيل العالم فى إطار مفهومها لشكله الجديد الذى تتخيله عن طريق تشكيل توازنات القوى، فالسلاح هو الأداة الحاسمة لتشكيل السياسات وفرضها إذ يتم نقله من دول المركز إلى الدول الهامشية تبعا لقوانين من وضع الدول المركزية .

وإذا كنا نسعى إلى تحقيق الاستقرار الإقليمى فإن محاولاتنا سوف تبقى مجرد وهم illusion فى غياب تعادل Parity موازين القوى بين دول المنطقة لأنه هو الذى يحقق توازن المصالح والذى يشكل القاعدة الوطيدة التى يبنى عليها الاستقرار، وليس أخطر على الاستقرار من وجود دولة قوية وسط دول ضعيفة لأن ذلك يخلق مايسمى « بغرور القوة» فالقوة لها صفة الانتشار فى غياب قوة أخرى تتصدى لها . . كيف نحقق الاستقرار العادل فى ظل السيطرة الأمريكية على سوق السلاح وتحيزها لإسرائيل؟ كيف نتعامل مع استيراد السلاح من دول المركز وقد أصبحت قواعد ذلك سياسية وتجارية بعد أن كانت سياسية فقط فى الماضى ؟ هل أصبح السلاح فى يد بائعه أم فى يد مستخدمه؟ وفى ظل هذه التطورات ما مفهومنا للقوة كأحد عوامل إدارة الصراع؟ كيف نستخدم القوة فى ظل الخلل فى موازين القوى وفى ظل شرعية دولية تتلون حسب الظروف والمصالح ؟

وأخيرا ما مفهوم المفكرين العرب للقوة فى ظل عالم بلا تناقضات عقائدية وبلاحروب ويتجه تدريجيا إلى تعميم التعاون المتبادل فى ظل رايات السلام؟ والسلام الذى نعيشه هو السلام الواقعى الذى يعترف بوجود الصراعات والتناقضات مع العمل على حلها دون استخدام القوة، وليس السلام الكامل الخالى من التناقضات والصراعات ؟ كيف ندير أزماتنا فى عالم بلاحروب قد يسمح بامتلاك القوة بأحجام وأنواع معينة ويحرم استخدامها إلا إذا رأى غير ذلك، وفى ظل غياب العدالة وتجاهل الحقوق التاريخية؟ كيف نحصل على قوة

رادعة تمنع العدوان وتعيد الحقوق دون قتال فى ظل قوانين الرئيس بوش التى تحدد موازين القوى للدول الإقليمية بحسابات انتقائية فى ظل شرعية دولية تتلون كالحرباء ؟

وسؤال أخير خطير. . مامصير الصناعات الحربية الوطنية أو الإقليمية فى ظل القيود الجديدة على تصدير التكنولوجيا، علما بأن كل هذه الصناعات قائمة على «التجميع» وليس «الابتكار». . يعنى «تجميع» القطع التى يصنعها الغير وليس «ابتكار» قطع من صنع أيدينا؟ومن يقدر على منع الكل يقدر على منع الجزء .

هذه تحديات حقيقية أمام الأمن القومى العربى المستباح الذى يعانى من فجوات كثيرة أهمها فشل أصحاب القرار العرب فى بناء الإرادة العربية الجماعية . وجمود الفكر العربى الذى ينظر إلى المستقبل وقد أحاط نفسه بمفاهيم قديمة حطمتها الزلازل فأصبح عاجزا عن تطويع التحديات المتجددة لصالح الأمة .

الفصـل الـرابـع

ســـــوق السلاح تجارة .. أم سياسة ؟

(قبل البيروسترويكا)

لم تعد تجارة الأسلحـة مجرد تجارة تنشر الحروب والدمار، ولكنهـا تجارة تفرض سيـاسـات معنية وتشكلها . فإن كـان الاستقطاب هو غرض رئيسى فى الاستراتيجية العـالمية فإن تجارة السلاح أو على الأصح نقـل السلاح Arms Transfer هو أداتها الأساسيـة الحاسمة ولكى نبين الحجم الحقيقى للسلع المتـداولة فى هذه السوق الغريبة التى ينفـق فيها أكثر من ٥٠٠ مليار دولار فى العام أى بمعدل مليون دولار فى الدقيقة ، فإننا سوف نستند إلى دراسة قام بها «بول رانك» رئيس الوفد الأمريكى لتحديد الأسلحة والتى يقول فيها : (*) .

- من بين كل ٦ دولارات تحصلها الضرائب ، ينفق دولار على التسليح .
- الضرائب التى تدفعها العائلات على التسليح تفوق ما تدفعه لتعليم أولادها .
- لدى الدول النامية جندى من كل ٢٥٠ من السكان ، وطبيب واحد لكل ٣٧٠٠ من الأفراد .
- تجعل التكنـولوجيـا الحديثة مـن الممكن نقل قـذيفة حـول العالم فى دقـائق معدودة ، والنساء فى بلاد آسيا وافريقيا يسرن يوما كاملا للحصول على الماء .
- تدفـع الدول النـامية فى التسليح ٥ أمثـال ما تـدفعه فى الإنتاج الـزراعى مـن حصيلة العملة الصعبة . وفى نفس الـوقت الذى تتصاعد فيه النقود المتداولـة فى هذا السوق ، نجد أن الحالتين الاجتماعية والاقتصـادية للدول فى أزمـة حقيقية . ففى تقـرير للأمـم المتحدة فى ١٥/ ١/ ١٩٨٢ نجد فيه الحقائق الآتية :

(*) للأمانة العلمية علينا أن نتحفظ على هذه الأرقام لأنها فى تغير مستمر .

ـ ازداد عدد الأفـراد الذين يعـانون من سوء التغـذية إلى ٥٧٠ مليونـا ، وعدد الأميين إلى ٨٠٠ مليـون ومن تنقصهـم الرعـاية الصحيـة إلى ١٥٠٠ مليون . . وكـان هذا قبـل حالـة الجفاف والجوع التى تمر بها دول وسط افريقيا الآن .

ـ انخفض معـدل نمو الاقتصـاد العالمى من ٥٪ إلى ٣,٤٪ وفى الـوقت نفسـه ارتفعت صناعة الأسلحة لتبلغ ٥٠٠ مليار دولار سنويا كما سبق القول .

ـ بالرغم من أن متوسط دخل الفرد من العـالم الثالث لا يزيد عن $\frac{١}{١٢}$ من متوسط دخل الفرد فى الدول الصناعية ، فإن العالم الثالث اشترى ٧٥٪ من كل صادرات الدول الصناعية من الأسلحة خلال السبعينيات بمتوسط إنفاق ١٩,٥ بليون دولار سنويا .

نتائج إيجابية :

من جـانب آخر فـإن تأثير صناعة السـلاح ونقله وتصديـره له نتائج إيجابيـة على الدول المنتجة : إذ يعمـل فى هذه الصنـاعة ٥٠ مليـون عامـل ، و ٢٠٪ من مجمـوعة المهنـدسين والعلماء ، ويقدر البعـض عدد العلماء والبـاحثين الذيـن يعملون فى هـذا المجال بنصـف مليون باحـث ، كما يخصص ٣٥ مليار دولار للأبحاث الحربية .

وبذلك أصبحـت الصناعات الحربية صنـاعة رئيسية يعتمد عليهـا النظام الاقتصادى العالمى ، إذ إنها تحتـاج إلى المواد الخام من الـدول النامية ، مثـل الألمنيوم والنحـاس والنيكل والبلوتونيوم واليورانيوم . وفى الوقت نفســه فهى تسعى لإيجاد أسواق للتوزيع لتغطية نفقات الإنتاج ولموازنة ميزان المدفوعات ، وبذلك زادت معدلات الإنتاج من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٠ كالآتى :

الولايات المتحدة ٤٥٠٪ .

الاتحاد السوفيتى ٢٥١٪ .

بريطانيا ٦٥٠٪ .

ألمانيا الغربية ٦٧٨٪ . إيطاليا ١٠٢٣٪ .

وبالتـالى يمكن تحديد نسبـة تصدير المصـدرين الكبـار فى الأسلحة التقليديـة عام ٦٥ كالآتى :

الولايات المتحدة ٣٩٪ والاتحاد السوفيتى ٣٤٪ وألمانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا كل منها ٣٪ أما فى عام ١٩٧٤ فنسبة الولايات المتحدة ٤٥٪ والاتحاد السوفيتى ٣١٪ وفرنسا ٦٪ وبريطانيا ٥٪ والصين ٣٪ .

وكان التوزيع الإقليمى لاستيراد الأسلحة التقليدية عام ١٩٦٥ كالآتى :

شرق آسيا ٥٥٪ والشرق الأوسط ١٣٪ وجنوب آسيا ١١٪ وأمريكا اللاتينية ٤٪ وافريقيا ٩٪ .

أما فى عام ١٩٧٤ فكان التوزيع الإقليمى كالآتى : الشرق الأوسط ٤٥٪ وشرق آسيا ٣٠٪ وجنوب آسيا ٤٪ وأمريكا اللاتينية ٦٪ وافريقيا ٦٪ .

وحتى نتصور الحجم الهائل من الأسلحة الذى يصب فى منطقتنا ، علينا أن نتذكر أنه كان لدى البلاد العربية فى حرب ١٩٧٣ حوالى ٤٦٠٠ دبابة وهى $\frac{٢}{٣}$ ما لدى دول الناتو إذ لديها ٧٠٠٠ دبابة ــ وكان لدى العرب ١٢٢٥ طائرة قتال أى $\frac{٢}{٣}$ ما لدى الناتو إذ لديه ٢٠٥٠ طائرة . وقد قفزت هذه الأرقام فنجد أن عدد الدبابات التى لدى البلدان العربية عام ١٩٨٠ هو ١١,٠٠٩ فى مقابل ٣٠٥٠ لإسرائيل . وعدد المصفحات الأخرى وصل إلى ٨٨٢٢ فى مقابل ٤٧٠٠ لإسرائيل ، والطائرات ١٩٤٣ للعرب فى مقابل ٦٧٩ لإسرائيل عام ١٩٨٠ .

ولعلنا لاحظنا أن سوق السلاح يعتمد على حركة السلعة من المنبع ، وهى الدول المصنعة ، إلى المصب وهى الدول المستخدمة . والمنبع يطلق عليه « الدول المركزية أو القوى المركزية Central Powers) والمصب تمثل ما يعرف بالدول الهامشية (Perepherial) وكثير من كتابنا يغضب من لفظ « الهامشية» . ولكنه لفظ علمى متعارف عليه لا يعنى التقليل من الشأن بقدر ما يعنى تعبيرا عن واقعها .

والحركة فى ظاهرها كما نرى أمر طبيعى فى كافة السلع بما فى ذلك السلع المتعلقة بشؤون الدفاع كما يظن البعض . ولكن الواقع غير ذلك تماما . فالتحرك فى مجال السياسة العالمية أصبح محكوما بعدة عوامل أهمها مصلحة الدول العظمى لتحقيق التفوق الإقليمى فى توازن القوى بما يخدم مصلحتها . وعلى الدول النامية ـ ونحن منها ـ أن تتحرك فى ظل هذه الحقيقة . والحركة فى المجال العسكرى تحتاج إلى طاقة . والطاقة الذاتية تجعل الحركة ممكنة إلى مسافة محدودة . ذلك لأن الطاقة المتاحة هى التى تحدد المدى الذى يمكن للحركة أن تصل إليه . وإذا كان المرغوب فيه أن يتجاوز المدى الطاقة المتيسرة أصبح لزاما تعويض هذا

النقص من المصادر الخارجية ومن أهمها الدول المنتجة للأسلحة .

ولكن الحصول على الطاقة فى سوق السلاح ليس مطلقا سهلا كما يتخيل البعض ، أى إضافة شحنات من غير حساب ، وفتح المخازن على مصاريعها لإعطاء السلاح أيا كان نوعه أو كيفه أو حجمه ، طالما توفرت قيمة شرائه . هذه العملية التجارية فى ظاهرها لها قوانين تتدخل وتتحكم فيها .

القوانين المتحكمة فى سوق السلاح :

أول هذه القوانين هى مصلحة الدول المنتجة فى العطاء . وهذه المصلحة هى التى تحدد طبيعة القرار بالموافقة أو الرفض .

والقانون الثانى هو الحجم المحقق لمصلحة الدول المنتجة من وراء ذلك فى إطار سياستها العالمية . وهذا يوضح ويحدد حجم الشحنة المعطاة ونوعها ، ولو وضع الحجم المحقق لمصلحة الدولة المنتجة وحجم الشحنة المبيعة أو الممنوحة فى كفتى ميزان ما رجحت إحداهما الأخرى . فالولايات المتحدة مثلا ترى أن إسرائيل تحقق لها مصلحتها « كعصا غليظة» تنسق بها خطوات السير فى المنطقة ، إذن فلتكن إسرائيل دولة إقليمية عظمى . . . بإعطائها نوعا وحجما من السلع الحربية يمكنانها من ذلك .

القانون الثالث هو عدم تجاوز الشحنة المعطاة لدولة من الدول الحد الذى يسمح لها بتجاوز الخط الحرج ، وهو الخط الذى يهدد بتصادم القوى العظمى المنتجة لصعوبة التحكم فى مدى التحرك حينئذ بما يتفق والإطار المرسوم .

وهذه العوامل مجتمعة تحدد : نوع السلاح وحجمه ومداه .

والقانون الرابع فى التعامل هو أن يتم التنفيذ بحيث يضمن الإبقاء على العلاقة المستمرة بين الدولة التى تعطى والدولة التى تأخذ ، وذلك بتحديد حجم الذخيرة المنقولة وحجم قطع الغيار ، وكمية أعمال الإصلاح التى يسمح بعملها خارج الدولة المنبع ، وكذلك فترات التوريد .

والقانون الخامس الذى ينظم هذا النوع العجيب من التعامل هو ضمان عدم كشف ما فى الترسانات من وسائل الدمار . وعلى ذلك فإن الدولة المنبع التى تعطى حريصة كل الحرص ألا تعطى أو تبيع إلا من الأصناف التى تجاوزتها ابتكارات تقنية أخرى أصبحت فى

خطوط الإنتاج . لأنه من يدرى؟ فقد يقع السلاح المعطى بطريقة أو بأخرى فى يد الجانب الآخر بطريق مباشر أو غير مباشر، فيكشف شيئا كان من الضرورى أن يبقى فى طى الكتمان فيخسر جولة فى الحرب التكنولوجية الدائرة .

من الأفراد إلى الحكومات :

فى ظل هذه القوانين يتم التعامل بعمليات حسابية دقيقة تجرى فيها موازنات شاملة، بين مايجب وبين ما ينبغى أن يكون . ويخطىء من يظن أنه قادر على إلغاء هذه القوانين، فمن يريد أن يأخذ أكثر عليه أن يدفع أكثر، والدفع ليس بالضرورة عملة نقدية، ولكن هناك وسائل أخرى كثيرة ومتعددة يتم بها تغطية الحساب، كالقواعد والتسهيلات والاستقطاب والوفاق الإستراتيجى .

والتعامل مع الشركات يخضع لنفس القوانين ، وكذلك مع الأفراد علما بأن تطورا خطيرا حدث فى أيامنا هذه، فقد بدأت تجارة السلاح أول ما بدأت بواسطة الأفراد، وكان الأمر سهلا إذ كان على طريقة ادفع واستلم « ومبروك عليك . . » وتعقدت الأمور أكثر حينما أصبح الأمر فى يد « الشركات الضخمة» واقتصر دور الأفراد على القيام بأعمال السمسرة . أما الآن فهو من صميم أعمال الحكومات فهى التى تبيع أو تسمح بالبيع .

والمسألة فى غاية التعقيد . ولكى نتصور مدى ذلك نضرب مثلا واحدا من الولايات المتحدة . هناك شركات عملاقة لإنتاج الأسلحة ولبيعها مثل شركة روكويل العالمية، ولوكهيد، ماكدونالد دوجلاس، وصناعات ليتون، وهوجز للطائرات، وبوشيل، وكلها شركات يسيطر عليها بنك أمريكا The Bank of America . وبهذا الوضع يصبح هذا البنك قوة ضاغطة حتى على القرار فى البيت الأبيض أكثر من بنوك روكفلر وميلون ودى بونت، ولكنه وفى الوقت نفسه لا يمكنه التصرف لا هو ولا أحد من شركاته دون قرار من هناك . وأصبحت الأمور متشابكة بين جهات التمويل وأصحاب القرار، وبذلك فإن البنوك وليس الشركات هى التاجر الرئيسى فى سوق السلاح .

ويزداد الأمر تعقيدا حيما نبحث الموضوع فى ضوء تضخم نفوذ الشركات، لتصبح متعددة الجنسيات مكونة علاقاتها مع شركات وراء البحار. فشركة لوكهيد الأمريكية لها علاقة مع شركة مسر شميدت الألمانية Messer shmidt وهذه الشركة بدورها لها علاقة مع شركة الفضاء البريطانية British Aerospace وكذلك شركة الطيران الإيطالية Aliitalia

وهما الشركتان اللتان تشتركان مع شركة داسو Da ssault الفرنسية فى إنتاج الطائرة التورنادو.

وبهذا التعقيد أصحبت الدبلوماسية هى فن الإمداد بالأسلحة .

التمويل والعملة :

وجانب معقد آخر يمكن أن نقف عنده لنتحدث عنه فى عجالة، وهو الجانب المتعلق بالتمويل. إذ إن العامل الحاسم فى أى سوق هو « العملة» وهى التى يتحقق عن طريقها البيع والشراء. والعملة فى سوق السلاح لاتكون بالضرورة عملة نقدية، ولكن هناك أنواعا أخرى من العملات تسدد بها فواتير الحساب. ولكن سيقتصر حديثنا فى هذه الفقرة على «العملة النقدية» مركزين على « المنبع الأمريكى » وهو المصدر الأساسى لأغلب البلدان العربية .

فمن يطلع على الخطوط العامة لبرنامج المساعدات الأمنية الأمريكية والذى تقدمه الإدارة الأمريكية للكونجرس لمناقشته والتصديق عليه ، فإننا نرى أن المساعدة تتوزع على النحو الآتى :

١ ـ برامج تمويل المبيعات العسكرية الأجنبية .
٢ ـ صندوق العون الاقتصادى .
٣ ـ برنامج المساعدات العسكرية .
٤ ـ عملية حفظ السلام .

ومن يقرأ هذه الخطة يجد أن أرقامها تترجم حرفيا السياسةالخارجية الأمريكية وليس السياسة الإسرائيلية أو العربية . فالولايات المتحدة الأمريكية لاتنفذ إلا سياستها، ودافع الضرائب الأمريكى لا يدفع ضرائبه لتنفيذ أى سياسة أخرى غير سياسة بلاده التى اقترع عليها أثناء عملية الانتخابات. وبناء على ذلك نجد أن أى بند من بنود الخطة تم اختياره بدقة كى لا يخرج عن إطار تحقيق الهدف الذى وضع ، وهو تمكين الإدارة الأمريكية من تنفيذ سياستها فى الشرق الأوسط مرتكزة على إسرائيل كأداة أساسية .

سياسة « العصا والجزرة » :

ويلاحظ أن الولايات المتحدة الأمريكية تتبع فى تعاملها فى هذا البرنامج سياسة « العصا

والجزرة» ففى الوقت الذى تعطى تسهيلات حقيقية ، لإسرائيل تقوم بوضع القيود التى لا يستطيع العميل أيا كان الفكاك منها . ولنأخذ إسرائيل مثلا على ما نقول :

يتسم التعامل بين الولايات المتحدة وإسرائيل بالمرونة الكاملة :

١ ـ فتتمتع إسرائيل بما يسمى بالتدفق النقدى (Cash - Flow Method) وفى هذه الطريقة يحدد الشارى عند التعاقد تواريخ التوريد ، وجداول الدفع التى يوزع فيها المبلغ المطلوب الحصول عليه من البرنامج على أكبر عدد ممكن من السنين . وبموجب هذا الاستثناء تجنب إسرائيل القسط الأول فقط المطلوب بموجب العقد ، وتستخدم باقى المبلغ المخصص فى تعاقدات جديدة . فاذا كان القرض على سبيل المثال بمبلغ ١٠٠ مليون دولار، واتفق فى التعاقد على أن يكون الدفع على أساس ٥ أقساط سنوية كل منها ٢٠ مليون دولار، فإسرائيل تجنب ٢٠ مليون دولار فقط قيمة القسط الأول ، وتتعاقد تعاقدات جديدة بالباقى وقدره ٨٠ مليون دولار علما بأن القانون الأمريكى يحتم تجنيب كل مبلغ القرض حتى ضمان السداد .

وفى حالة مصر مثلا كانت المعونة توجه إلى مشروعات محددة منذ بداية المعونة عام ١٩٧٥ ، وقد أدى ذلك إلى تراكم قسم كبير من هذه المعونة فى الفترة من ٧٥ ـ ١٩٨٣ دون أن تستخدمه مصر بسبب اختلاف وجهات النظر بين الحكومة المصرية وبين وكالة التنمية الدولية التابعة للحكومة الأمريكية حول أهمية وجدوى وأولويات المشروعات التى تريد الوكالة توجيه المعونة إليها . وقد بلغت هذه المعونات غير المستخدمة ما يقرب من ٢,٧ بليون دولار كان يفترض حسب القانون الأمريكى أن تعود إلى الخزانة الأمريكية ، ولكن اتفق الطرفان على أن تبقى معلقة أى ما يطلق عليه « أموال فى الأنبوب» حتى يتم الاتفاق على استخدامها . وقد حمل هذا الموقف مصر أن تطالب بتغيير هذا النظام من توجيه المعونة إلى مشروعات محددة ليكون توجيه المعونة إلى « قطاعات محددة» وفعلا منذ عام ١٩٨٤ بدأت المعونة تسير على أساس مزج الطريقتين ، وتطالب مصر الآن بمعاملتها بالمثل على طريقة «التدفق النقدى» كإسرائيل أو على الأقل مزيجا بين طريقة التوجيه إلى قطاعات وطريقة التدفق النقدى .

٢ ـ تقوم الولايات المتحدة بكثير من التنازلات عن أقساط القروض . ففى ميزانية عام ١٩٨٣ تنازلت عن ٧٥٠ مليون دولار من أقساط القروض من المبيعات الحربية الأجنبية .

٣ ـ تلتزم الشركات الأمريكية عند شراء إسرائيل للمبيعات الحربية الأمريكية بشراء حصة

من السلع أو الخدمات الإسرائيلية ، الأمر الذى يعتبر شيئا طبيعيا فى حالة المبيعات التجارية العادية ، ولكنه أمر ممنوع فى حالة برنامج المبيعات الحربية الأجنبية ، إذ يحرمها القانون الأمريكى .

٤ ـ القروض طويلة الأجل وبفترة سماح طويلة وبفوائد بسيطة مع إجراءات استثنائية تقفز من فوق قيود القانون .

٥ ـ التغاضى عن المخالفات التى ترتكبها إسرائيل فى ظل القانون الأمريكى الذى ينص على استخدام الأسلحة للدفاع عن النفس ، والحفاظ على الأمن الداخلى ، وتفسير الدفاع عن النفس مطاط لاحدود له .

زيادة التحكم :

هذا من ناحية « الجزرة » أما من ناحية « العصا » فتتمثل فى الفيتو الأمريكى على مبيعات إسرائيل لمنتجات إسرائيلية بها أجزاء أمريكية لطرف ثالث . النص على قيام إسرائيل باستيراد سلع أمريكية تساوى حجم المساعدة الاقتصادية التى تخصص لها ، وأن يتمتع المصدرون الأمريكيون بنفس الحقوق التى تتمتع بها إسرائيل حينما يصدرون إلى الأسواق الإسرائيلية ، وأن يتم نقل ٥٠٪ من كافة البضائع المستوردة بوسائل نقل أمريكية .

ونلاحظ هنا أن « ميكانيزم » التبادل يهدف أولا وآخرا إلى زيادة التحكم فى الدولة الهامشية حتى لو كانت هذه الدولة هى إسرائيل .

هذا من ناحية الجانب الإسرائيلى ، أما من ناحية الجانب العربى فتصر السياسة الأمريكية على :

- أن يكون التوازن دائما فى صالح إسرائيل فى كل الظروف والأوقات .
- الإبقاء على « فجوة تكنولوجية » بين البلاد العربية وإسرائيل تعوض التفوق العربى العددى والكمى .
- لابد أن يتغلب السلاح الأمريكى على ماعداه من أسلحة فى أى تصادم .
- التصدير على آجال طويلة .
- فوائد عالية للقروض العسكرية بحيث تستهلك الجزء الأكبر من المعونة الاقتصادية .

وبخصوص النقطة الأخيرة نضرب مثلا بمصر التى بلغت المعونة الاقتصادية التى تلقتها من الولايات المتحدة عام ١٩٨٣ حوالى ٧٥٠٠ مليون دولار، بينما كانت أقساط «خدمة

الديـون العسكرية» ٤٠٠ مليون دولار سـوف ترتفع إلى ٧٠٠ مليـون دولار حينما تنتهى فترة السماح، ويحل موعد تسديد الأقساط . وقد بلغـت الديون العسكرية لمصر ٤ بلايين دولار بفـائدة مركبـة تبلغ ٥ , ١٣٪ سنـويا، أى تقـارب الفوائد السنـوية ٦٠٠ مليـون دولار دون المساس بأصـل الدين . وقد بدأت مصر فى التخلـف عن سداد الأقساط ربع السنـوية من العام الماضى، وبعد زيارة وزير التخطيط أخيرا قدمـت الحكومة الأمريكية مشروع موازنتها للكونجـرس وتطلب فيه ٨٥٠ مليـون دولار معونة اقتصـادية لمصر ، أى بزيـادة ٦٥ مليون دولار فقط عن معونة العام الماضى، وهى زيادة وصفها أحد المسئولين المصريين بأنها بالكاد تعادل نسبة التضخم النقـدى فى الولايات المتحدة . وقد تم إسقاط الديـون العسكرية بعد اشتراك مصر فى عملية عاصفة الصحراء والحمد لله .

ومن ذلك نرى أن السوق الدولية للسلاح سوق مختلفـة تماما عن باقى الأسواق العالمية، إذ إن السلع المتداولة فيها وطريقة التعامل بين البائع والمشترى بكل وسائل تسديد «الفواتير» للبضائع التـى يتفق عليهـا . . كلها تتـم بطريقـة مختلفة تـؤيد مـا سبق أن ذكـرناه مـن أن الدبلوماسية أصبحت فن الإمداد بالأسلحة .

ويبقى السؤال الهام الذى يجب أن نفكر فيه ليل نهار، وهو كيف يمكننا ـ نحن العرب ـ أن نجعل التعـامل فى هـذه السوق العجيبـة الغريبة بـالنسبة لنـا أقرب إلى التجـارة منه إلى السياسة؟!

ومن حسـن الحظ فبعد التحول مـن عالم ثنائى القطبيـة إلى عالم أحادى القطبيـة ، بعد تحلل الاتحاد السـوفييتى تراجعـت القيود المفروضة على احتكـارات بيع السلاح ، وبـذلك أصبـح نقل السـلاح أقرب إلى عمليـة تجارية منـه إلى عمليـة سياسيـة لدرجـة أننا رأينـا فى السنوات الأخيرة مارجريـت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة ووزراء دفـاع الدول الغربية والشرقية يـزورون منطقة الخليج لتسـويق السلاح كسبًـا للمال وتصحيحًا لميزان المدفـوعات ومواجهـة مشكلة البطالة، بـل وجدنا فى معارض السـلاح التى تقام فى العواصـم المختلفة مثل معـرض «فارينبورو» القريـب من لندن أن هنـاك شركات بريطـانية وأمريكية تتنـافس لتسويق أسلحة روسية رغم مافى ذلك من تنافس بين الأسلحة الشرقية والغربية، والتنافس بين الشركات على أشـده فقد رأينـا فى معرض الخليج لـلأسلحة كيف كـانت شركـة جنرال دانيامكس الأمـريكية المنتجة للدبابـة إبرامز إم ـ ١ ــ ٢ تتنافس مع شركة فيكـرز البريطانية التى تنتـج الدبابة تشـالنجر لبيع ١٠٠٠ دبابـة منها ٢٠٠ ـ ٢٥٠ دبابـة للكـويت، ٥٠٠ للسعودية والباقى للإمارات .

بقى أن ينسق العرب بين أسواق الشراء تبع خطة مـرسومة لبناء قواتهم المسلحة علما بأن الحصول على السـلاح بأى كمية لايحقـق وحده التفوق لأن حجم السـلاح وقدرته تقـاسان بالـرجل الـذى يقف وراءه ، فكفـاءة الإنسان هـى التى تحصـل من الآلـة على أسرار قوتها وتفوقها فإذا كان النظام الدولى قد رفع قيودا كثيرة للحصول على السلعة فواجب على النظام العربى أن يعمل على استخدامها بكفاءة وهذا أمر فى يدنا بكل تأكيد .

الفصل الخامس

مبادرة بوش للحدّ من انتشار الأسلحة في منطقة الشرق الأوسط

أعلن الرئيس جورج بوش مبادرته للحد من انتشار الأسلحة التقليدية وفوق التقليدية والنووية فى منطقة الشرق الأوسط ، وكأنه يريد أن يضرب على الحديد وهو ساخن بعد نهاية عملية عاصفة الصحراء مباشرة .

وكان تاريخ المبادرة ٣٠ مايو / آيار ١٩٩١ .

ومكان الإعلان عنها فى أكاديمية سلاح الطيران فى كلورادو سبرنجز.

ولست أدرى هل أخطأ الرئيس بوش ترتيب أوراق اللعبة حسب أسبقياتها المنطقية فوضع العربة أمام الحصان، وخلط بين الأغراض والوسائل ، أو بين الأغراض الرئيسية والأهداف الثانوية، أو بين الواقع والمؤثرات ، أم إنه يرى الأوضاع الإقليمية بمنظار آخر خلاف المنظار الذى ينظر به اللاعبون الإقليميون، فجاءت أسبقية المواضيع التى يرى الاقتراب منها فى وضعها الصحيح داخل الإطار الذى رسمه وحدده؟ « فأخطار انتشار الأسلحة هى أكثر إلحاحا فى الشرق الأوسط» وهذا نص ما افتتح به خطابه فى كلورادو سبرنجز، والذى يؤكد هذه النظرة الاحتفالات التى قامت فى واشنطن وقيام الرئيس بوش باستعراض للقوات الأمريكية التى اشتركت فى عملية « عاصفة الصحراء » وهى تمر أمام المنصة التى يجلس فيها، وحوله قادة الولايات المتحدة العسكريون والمدنيون رافعة علم أمريكا وأعلام الدول العربية التى شاركت فى الحرب إيذانا ببداية عملية « هدوء الصحراء» . ومن الخطأ الجسيم أن ننظر إلى منطقتنا الملتهبة المتفجرة نظرة إلى السطح الهادئ إذ من ينظر إلى الأعماق يجد أن الأغوار عاصفة بحق ، فما يحدث تحت السطح ، يتناقض تماما مع مايحدث فوق السطح ، فصحارينا الواسعة الممتدة ليست هادئة أو ساكنة ، لأن

أزماتها مازالت موجودة دون حل ، فأصحاب القـرار الفاعلون فى المنطقة سواء من خارجها أو داخلها مازالوا ـ رغم دروس الأزمة الخليجيـة الأخيرة ـ يديرون الأزمات ويلعبون بها بدلا من حلها بإزالة أسبابها ونزع الفتائل عنها .

والمشكلة فى تباين وجهات النظر عند تحديـد أسبقيات الأزمات الملحة هى فى الفجوات الموجـودة دائما عند النظـر إليهـا على المستوى العـالمى أو المستـوى الإقليمـى ، وحل هـذا التناقض لا يمكن أن يتم إلا إذا أخذت وجهة نظر الدول الإقليمية فى الاعتبار، لأن الشرق الأوسـط يعيش بـاستمرار فى اضطـراب وعدم استقـرار تخترق فيه الحدود السيـاسية رأسيـا وأفقيا ، وتمتـزج فيه الحدود السياسية بـالحدود الأمنية ، وتطبق فيـه القوانين الدولية بطـريقة انتقائية ، والسبب فى كل ذلك أولا وأخيرا هو إسرائيل التـى مارست السياسة العدوانية من ضم الأراضى العربية وطرد العرب من بلادهم دون رادع إقليمى أو دولى .

ودون علاج ومواجهـة السبب الرئيسى ستبقى كل الخطـوات أو الإجراءات أو القرارات مجرد وهم . وكنت أتمنـى لو أن الرئيس بوش كـان قد افتتح خطابه فى كلـورادو سبرنجز بأن «أخطار النـزاع العربى الإسرائيلى هى أكثـر إلحاحا فى الشرق الأوسط» لأن معـالجة أسباب النزاع عن طريـق توازن المصالح يقضى بصفة أكيدة على استمـرار سباق التسلح للحصول على توازن القوى .

ملامح أساسية :

مقدمـة كان لابـد منها قبـل أن نتعامل مـع « مبادرة بـوش لتنظيم أو ضبـط التسلح فى المنطقة » وأهم نقاط المبادرة ما يأتى :

* تبدد الاستقطاب والنزاع بين القوتين العظميين ، وأصبح من المحتم التركيز أكثر على الأنظمة حيث الأوضـاع قابلة للانفجـار، وهى الأنظمة المليئة بـالأسلحة الحديثة والأطماع القديمة ، ولذلك فإن المبادرة تشمل كل دول المنطقة بما فى ذلك إسرائيل .

* هناك خطر ماثل يتمثل فى أنه بنهاية هذا القرن سوف يصبح فى قدرة عشرين دولة أن تمتلك صواريـخ بعيدة المدى ، والكثير من هذه الدول لـديه برامج أسلحة نـووية وكيماوية وبيولوجية ، وأخطار انتشار الأسلحة فى الشرق الأوسط أكثر إلحاحا منها فى مناطق أخرى ، وإننا ملتزمون بوقف انتشار أسلحة الدمار الشامل .

*الغرض مـن المبادرة ضبط صادرات الأسلحـة التقليدية ووضع قيـود على الصادرات

التى تساهم فى إنتاج أسلحة الدمار الشامل والتجميد الفورى ثم الحظر النهائى لاحقا على الصـواريخ أرض ــ أرض فى المنطقة ، وأخيرا الحظـر على إنتاج مـواد الأسلحة النـووية مـع مراعاة دعم الحاجة المشروعة لكل دولة فى الدفاع عن نفسها .

* دعوة الدول الخمس الرئيسية المزودة Suppliers للأسلحة التقليدية إلى عقد اجتماع على مستوى عـال فى المستقبل القـريب ، لوضـع الخطوط العريضـة لفرض قيـود على عمليات تزويد الأسلحة التقليدية وأنظمة أسلحة الـدمار الشامل والتكنولوجيا المتصلة بها ، على أن تسمح هذه القواعد لدول المنطقة بالحصول على القـدرات التقليدية التى تحتاج إليها للدفاع عن نفسها ولردع أى عدوان عليها (وافقـت فرنسا على استضافة الاجتماع الأول لممثلى هذه الدول) .

* يتم توسيع إطار هذه المحادثات لتشمل مزودين آخرين لضمان أكبر تعاون ممكن .

* يهدف الاتفـاق بين الدول المزودة لـلأسلحـة إلى مراعـاة مبادئ خـاصـة يتفق عليهـا لتحاشى نقل الأسلحـة المشيعة لعدم الاستقرار، وإنشاء ضوابط تصديـر محلية فعالة تسرى على استخدام الدول المستقبلة للسلاح .

* يقوم المزودون بإشعار بعضهم بعضا مقدما بمبيعات أسلحة معينة ، والاجتماع بصفة منتظمة للتشاور حـول تزويد الأسلحة أو اجتماعـات طارئة إذا اعتقد أحد المزوديـن بخرق القواعدالموضوعة مع إعداد تقرير سنوى عن أعمال التزويد .

* تجميـد بيع واختبـار وإنتـاج الصواريـخ أرض ـ أرض مـن قبـل دول المنطقة بقصـد استبعادهـا من تـرساناتها آخـر الأمر ، على أن ينسـق المزودون تراخيص التصـدير الـلازمة للمعـدات والتكنولـوجيا والخدمـات التى يمكـن أن تستخدم فى إنتـاج صواريـخ أرض ـ أرض ، ولن تقدم التراخيص إلا للاستخدام السلمى لمن تنتهى إليه الأسلحة .

* تنضم دول المنطقة إلى معـاهدة عدم انتشار الأسلحـة النووية N.P.T Non - Prolo firation treaty إن لم تكن قـد قامـت بذلـك فعلا ، مـع وضع جميـع المنشآت النـووية فى المنطقة تحت إشراف الوكالة الدوليـة للطاقة الذرية ، ومواصلة تأييد إقامـة منطقة خالية من الأسلحة النووية فى نهاية الأمر .

* تنضـم دول المنطقـة إلى مبادرة الـرئيـس بـوش الأخيرة لإنجـاز ميثاق عـالمى خـاص بالأسلحة الكيماوية وتطبق نفس المبادئ على الأسلحة البيولوجية .

أسئلة دون إجابــة :

من ذلك نـرى أن أهم اتجاهات مبادرة الرئيـس جورج بوش هى تماشيهـا مع المحاولات التى تتـم فى مجال الحد من التسليـح على المستوى العـالمى بين الولايـات المتحدة الأمـريكية والاتحاد السوفييتى ، ولأنها مبادرة إقليمية تـركز على منطقة الشرق الأوسط فى المراحل الأولى لتتبعها بـاقى مناطق العـالم فى مراحل تـالية ، ولا شك أن هـذا عمل إيجابى نرحـب به تمام الترحيب ، وإن كنا نـرى أن الرئيس بوش بمبادرتـه تلك يحيد عن الغرض الأسـاسى الذى تعهـد به أثنـاء استيعـار أزمة الخليـج بأن يعطـى الأسبقيـة الكاملـة لحل النـزاع العربـى - الإسرائيلى ، والنزاع الإسرائيلى - الفلسطينى ، لأن التركيز على هـذا الموضوع هو الذى يحسم مشكلـة سباق التسلـح ، لتركـز الـدول الإقليمية على التنميـة ورفـع مستـوى المعيشة بعـد التخفف من نفقات الدفاع ، فالوصول إلى حل للمشاكل والنزاعات القائمة هو الذى يعزز الثقة بين الدول من جانب ، ويؤمنها ضد التهديدات الخارجية من جانب آخر .

وهناك اتجاه آخـر لهذه المبادرة وهـو المزج بين التحريـم والتقييد ، فبينما تتجـه المبادرة إلى تجميد إنتاج الصواريخ مثلا تمهيدا لتدميرها تماما فى مراحل تالية ، وكذلك تحريم استخدام الأسلحة فـوق التقليدية والنـووية ، فإنها تتجـه إلى تقييد تصـدير السلاح التقليـدى وليس تحريمه بدعوى تلبية الحاجة المشروعة لكل دولة فى الدفاع عن نفسها ، ولكن من الذى يحدد هذه التهـديدات التـى تحتاج إلى الإمـداد بالسـلاح؟ ومن الـذى يحدد حجمه؟ أو نـوعه؟ وماهى الأعمال العـدوانية التى تتطلب ذلك؟ ومـا هى حدود الحق الشرعى للـدفاع؟ كلها أسئلـة لا إجابـة عنها فى المبـادرة ، إلا أنه يمكننـا أن نستنتج تبعـا للتطورات الخطيرة التـى حدثت فى النظـام العالمى الحالى ، واتجاهه إلى النظام أحـادى القطبية بأن الولايـات المتحدة هى التى سيكون بيـدها ضبط الإمداد بالسلاح لتحقيق التوازن الـذى يكفل لها مصالحها ، وهى تفـرض السلام الأمـريكى pax Americana فى العـالم أجمع ، فـالسـلاح هـو الأداة الحاسـمة لتشكيل السياسات وفرضها لأن انتقالـه من دول المركز إلى الدول الهامشية يتم عن طريق قوانين محددة تفرضها الدولة المصدرة على الدول المستوردة .

ضوابط التغيير :

وعلينا أن ننظـر إلى ماتنتويه الـولايات المتحدة مـن تقييد تصدير السـلاح إلى المنطقة فى ضوء التـوجيهات الرئاسية التـى تحدد السياسة الأمريكيـة الثابتة بخصوص نقـل السلاح ، والتى تتلخص فى الآتى :

* لايمكن للولايات المتحدة أن تدافع بمفردها عن مصالح العالم الحر ، وأصبح من التى

المحتم عليها ألا تقوى نفسها فحسب ، بل عليها أن تساعد أصدقاءها وحلفاءها لتقوية أنفسهم أيضا ومساعدتهم فى تحقيق أمنهم .

* تنظر الولايات المتحدة إلى الإمداد بالأسلحة التقليدية ومعدات الدفاع الأخرى كعناصر رئيسية فى دفاعها العالمى ، وعنصر مهم فى سياستها الخارجية ، فالإمداد بالسلاح يردع النيات العدوانية ويزيد من قدرتنا الدفاعية ويظهر عزمنا على تحقيق أمن أصدقائنا وحلفائنا ويحقق الاستقرار الداخلى والاستقرار الإقليمى مما يشجع على حل الخلافات سلميا ويزيد من كفاءة إنتاجنا الدفاعى .

* يتطلب تحقيق هذه الأهداف قيام الحكومة الأمريكية بالسيطرة على الإمداد بالسلاح وتوجيهه بحيث تتحقق المصالح المتبادلة للولايات المتحدة وحلفائها وأصدقائها ، وسوف تقيّم الولايات المتحدة الطلبات المقدمة لهاعلى أساس تحقيق الردع فى الدفاع مع إعطاء أسبقية خاصة للطلبات التى تخص حلفاءها الذين تربطهم بها علاقات أمنية .

*عند اتخاذ القرارات ستراعى العوامل الآتية :

- درجة توافق الإمداد بالسلاح مع الأخطار التى تواجه الدول الصديقة .
- مدى مواجهة الإمداد للأخطار الخارجية .
- مدى ملاءمة الإمداد لتحقيق الاستقرار فى المنطقة .
- لايشكل الإمداد حملا زائدا على إمداد القوات الأمريكية بالسلاح ، ولا يشكل عبئا ماليا مغالى فيه .
- تعالج كل حالة إمداد على حدة ، مع إعطاء عناية خاصة لطلبات الإنتاج المشترك أو المعدات ذات القيمة التكنولوجية الحساسة ، واحتمال انتقالها إلى طرف ثالث مع حماية قدرتينا التكنولوجية والحربية .

* على ممثلى الولايات المتحدة فى الخارج مساعدة الشركات فى تسويق منتجاتنا ، فإننا نتعامل مع العالم كما هو، وليس كما نتمنى أن يكون .

تعقيدات تثير الشكوك :

ولكى نتفهم مدى التعقيدات التى تحيط بمبادرة جورج بوش فيما يخص الوضع الممتاز لإسرائيل فى الاستراتيجية الأمريكية ، مما يحيط تطبيقها على كل الدول بالشك الحقيقى . علينا أن نثبت هنا مقتطفات من تقرير المحاسب العام بعنوان « المساعدات الأمريكية

لإسرائيل» ويقول فيها : « إن الغرض الرئيسى للمساعدة الأمريكية لإسرائيل هو إظهار مساعدتنا لحليف لنا فى المنطقة ولتعزيز الدفاع عن إسرائيل ، وتحصل إسرائيل على أكبر نسبة من ميزانية المساعدات الخارجية ، وعلى أفضل تنازلات وشروط عن أى دولة أخرى ويصل حجم المساعدات إلى أكثر من بليونى دولار من ميزانية المبيعات الحربية الأجنبية Foreign Military Sales (Fms) ومن ميزانية العون الاقتصادى Economic Support Fund (ESF) وعلاوة على ذلك حصلت إسرائيل على أنواع مرنة من التمويل مثل طريقة التدفق النقدى Cash Flow Method وفى هذه الطريقة يحدد المشترى عند التعاقد تواريخ التوريد ومواعيد الدفع التى يوزع فيها المبلغ المطلوب على أكبر عدد من السنين ، وبموجب هذا الاستثناء تجنب إسرائيل القسط الأول فقط من العقد المبرم وتستخدم باقى المبلغ المخصص فى تعاقدات جديدة ، علاوة على التنازلات عن أقساط القروض ، كما تتسلم إسرائيل القروض التى لا تدفع دون خصم قيمة الأرباح ، كما تحصل إسرائيل على النصيب الأكبر من برنامج المساعدات الاقتصادية ، علاوة على أن الشركات الأجنبية التى تشترى منها إسرائيل من بند المبيعات الحربية الأجنبية تلتزم بشراء جزء من السلع أو الخدمات الإسرائيلية ، ويتم نقل التكنولوجيا المتطورة بموجب برنامج مبيعات الأسلحة الأمنية إلى إسرائيل بطريقة فريدة لا تتكرر مع أى دولة أخرى ، وقد وافقت الحكومة الأمريكية على صرف المعونة جملة واحدة فى أول العام . وأخذ المحاسب العام يسرد الاستثناءات الواحد تلو الآخر مبديا قلقة الشديد حتى يصل آخر الأمر إلى أنه « أصبح جليا أن الحل الوحيد لأمن إسرائيل هو الوصول إلى اتفاق مع جيرانها العرب» .

فهل تشمل مبادرة الرئيس بوش كل هذه الخفايا أم إن التقييد سوف يكون صارما على جانب لمصلحة الجانب الآخر وهو إسرائيل ؟! .

مبادرة أخرى مهمة :

إن مبادرة الرئيس بوش لم تكن هى الوحيدة فى هذا المجال ، فقد تقدم جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا باقتراح تتولى هيئة الأمم المتحدة بموجبه قيد مبيعات الأسلحة فى سجل مخصص لذلك ، كما أعلن رئيس البنك الدولى بأن البنك سيربط مستقبلا بين حجم القروض التى يقدمها للدول النامية وبين حجم ما تخصصه هذه الدول من موارد للإنفاق العسكرى ، وهما محاولتان من المستحيل تنفيذهما ، فالدول المصدرة للسلاح زادت كثيرا لتجعل من السلاح تجارة لسد العجز فى ميزان المدفوعات ولحل مشاكل البطالة .

وهناك مبادرة سوف نقف عندها بالضرورة لأهميتهـا ، وهى مبادرة الرئيس فرانسو ميتران من أجل نزع أسلحة الدمار الشامل والأسلحة التقليدية من العالم ، والتى تعتمد أساسا على تعزيز دور الأمـم المتحدة فى إرساء دعائم النظـام العالمى الجديد ، إذ تنص المبـادرة فى أحد بنودها الـرئيسية على أن يناط بمجلس الأمن الـدولى مسئولية وضع سياسـات نزع الأسلحة وعدم انتشار ومنع استخـدام أسلحة الدمار الشامل فى العالم ، وأن يشجع تـوقيع اتفاقيات إقليمية أو عـالمية بهذا الخصوص على أن تكون الـدول الخمس دائمة العضويـة فى المجلس قدوة لغيرها من حيث الالتزام بما يقرره المجلس .

ولإثبات حسن النية لفرنسا أعلن ميتران عن مـوافقة بلاده على التوقيع على معاهدة الحد من الأسلحـة النووية بعد أن كـانت فرنسـا ترفض فى السـابق التوقيع عليهـا هى والصين ، ويدعـو ميتران إلى المحافظة على التـوازن الإقليمى فيما يتصل بالإمـداد بالأسلحة التقليـدية احتراما لحق كل دولة فى المحـافظة على أمنها ، ويدعو الدول الخمـس الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن إلى اجتماع يعقد فى باريس للاتفاق على أسس ضبط بيع الأسلحة لعرضها على الجمعية العمـومية لـلأمم المتحدة بعـد ذلك ، بهدف الاتفاق على إنشـاء سجل لـلأسلحة المتداولة تحت إشراف الأمين العام للأمم المتحدة .

وبذلـك تتميز المبادرة الفرنسيـة على المبادرة الأمريكيـة بأنها تعطى المنظمة الـدولية دورا أكبر فى القضية ، كما تتميـز باعتراف بـأن القضاء على أسباب النـزاعات الإقليميـة لابد أن يسير جنبا إلى جنـب مع الحد مـن التسلح ، ليـس فقط فى منطقـة الشرق الأوسط كما يـرى بوش بل فى كل أنحاء العالم .

وهناك نـواح إيجابية فى المبـادرة الفرنسية غير مـا سبق ذكـره ، فهى تقترح أسسـا صالحة لتحقيق الأمن الإقليمى مثل :

١ ـ حل الخلافات القائمة كوسيلة لإيجاد الثقةوروح التعاون بين دول المنطقة الواحدة .

٢ ـ إيجاد نظام لتبادل المعلومات فى مجالات التسليح لتعزيز الثقة بين الدول .

٣ ـ المحافظة على تـوازن القوى الإقليمى عن طريق المفاوضـات كخطوة أولى للحد من التسلح .

٤ ـ إعـلان منطقة الشرق الأوسـط منطقة خاليـة من أسلحة التـدمير الشامـل ، تمهيدا لتطبيق ذلك فى مناطق أخرى .

٥ ـ تنفيذ الاتفـاقيات العـالميـة بخصوص منـع انتشـار الأسلحة النـووية والكيماويـة والبيولوجية تحت إشراف الأمم المتحدة .

وكما نرى فإن المبادرات العالمية مبادرات تعبر عن مجرد أماني ، وتلتف بعيدا أو قريبا حول الوسيلة الوحيدة التى تمنع انتشار الأسلحة بأنواعها المختلفة فى منطقتنا ، وهى حل النزاع العربى ـ الإسرائيلى على أساس من توازن المصالح وليس على أساس من توازن القوى ، إذ إن الأخير عامل متغير حسب واردات الأسلحة والتكنولوجيا من منابعها المتعددة .

مطلوب مبادرة عربية :

وهنا يحق لنا أن نطرح مبادرة عربية حتى نساهم مع من يقترحون ، فالمنطقة منطقتنا والأمن أمننا والاستقرار استقرارنا .

إن علاج مثل هذه القضايا المصيرية يحتم التعامل مع أصل المشكلة وجذورها ، فمنطقتنا لم تكن تعرف سباق التسلح ، ولم تكن تعرف الأسلحة شديدة التدمير قبل زرع إسرائيل كجسم غريب فيها ، إلا أن المطامع الإسرائيلية التى لا حدود لها ورفضها الإجماع الدولى على ضرورة حل المشاكل التى خلقتها فى المنطقة على أساس الأرض فى مقابل السلام هى السبب الأساسى فى سباق التسلح ، فإذا ما قررت الشرعية الدولية مواجهة القضية الأصلية كما واجهت العدوان العراقى على الكويت وطبقت قرارات مجلس الأمن ، فإن كل المشاكل التى تحول دون الاستقرار الإقليمى سوف تتداعى الواحدة عقب الأخرى ، إذ يظهر للجميع دون استثناء أن القرارات الدولية لابد من احترامها ، وأنها سوف تطبق بطريقة لا تمييز فيها أو انتقاء . فهذه هى القضية الأساسية التى تتفرع عنها عشرات القضايا ، ومن ضمنها تنظيم التسليح فى المنطقة ، فإن اقتنع الجميع بذلك نكون قد وضعنا الحصان أمام العربة ونكون سائرين فى الطريق الصحيح الذى يتمناه الجميع .

الباب الثالث

البيروسترويكا تغير مفاهيم الصراع

الفصل السادس

وسقط الاتحاد السوفييتى فى ظل الترسانة النووية !!

من أشد المفارقات غرابة والتى نتابع فصولها وأحداثها أمامنا هى سقوط الدولة فى ظل قوتها الحربية الهائلة ! ! فقد تحلل الاتحاد السوفييتى إلى جمهوريات متعددة، ارتضت أو أجبرت فى يوم من الأيام أن تكون اتحادا بينها يتبع سلطة مركزية واحدة تحميها أضخم ترسانة عسكرية تقليدية وفوق تقليدية ونووية - عرفت حتى الآن ! !

والحدث بهذا المفهوم يقدم لنا درسا بالغ الخطورة، وعلينا أن نستوعبه ونأخذ العبرة منه لأنه من الحكمة أن نتعلم من أخطاء غيرنا بدلا من أن نتلقى الدرس عن أخطائنا، وهذه أعظم دروس التاريخ الذى لايعيد نفسه ولا يتكرر، ولكنه أكبر منبع لدروس نشأة الدول وسقوطها . . فالدول تتكون نتيجة لأسس موضوعية وتنهار أيضا لأسباب موضوعية، ولذلك علينا دائما ألا نكتفى بدراسة ما حدث ، ولكن علينا أيضا أن نتعمق فى دراسة لماذا حدث ما حدث؟ والدراسة وحدها ـــ على هذا الأساس ـــ لاتكفى ولكن لابد من استخدامها لتعزيز نقاط القوة عندنا أو لتلافى نواحى النقص التى تنخر فى عظامنا تبعا لبرامج محددة وخطط عملية مدروسة فى حدود القدرة المتوفرة والمتاحة والإصرار اللازمين لتحويل الأفكار إلى واقع والخطط إلى حقائق . . فالدول والأنظمة لاتبنى بالأفكار وحدها ولا بالشعارات التى تنطلق فى الهواء ، ولكن لا يتم البناء إلا بالقدرة على العمل والإرادة التى لا تلين عند التنفيذ، فالأفكار التى لاتتحول إلى واقع هى مجرد دخان يتصاعد فى الهواء لافائدة ولا عائد من ورائها .

ماحدث فى الاتحاد السوفييتى أمره معروف، فقد سقط الاتحاد فى ظل قوته العسكرية الضخمة التى بنيت أساسا للحفاظ عليه، ولكن لماذا حدث هذا السقوط؟ أسباب ذلك كثيرة، ولكنا سنركز على أحدها والذى نعتقد أنه أعظم الدوافع، وهو فشل الاتحاد السوفييتى فى تحقيق توازن معقول بين ثلاثية أساسية فى إدارة الدول وهى : العسكرة والأمن والتنمية .

والعسكرة MititariZation كما نعلم لا تعنى أبدا مجرد التسليح ، ولا مجرد النواحى

العسكرية ، ولكنها تعنى أكثر من ذلك بكثير إذ تعنى سعى الدولة إلى التوسع والتدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى وتأثر مجتمع ما بالمؤسسة العسكرية عن طريق إجراءات عسكرية متتابعة ومتراكمة تؤدى إلى التزامات تبعدها عن العملية الديمقراطية . وتعنى أيضا تضخم الصناعات الحربية للدول التى تنتج أدوات الحرب للاستهلاك المحلى أو التصدير للخارج وتفوقها عن غيرها من قطاعات الإنتاج وأن تصبح القوات المسلحة منافسة للسلطة أو عامل ضغط عليها ويخلط الكثيرون بين العسكرة وبين العسكر أو رجال الحرب The military فالعسكر ما هم إلا المواطنون فى المجتمع لهم ما للباقين من حقوق وعليهم ما على الآخرين من واجبات فتحت الزى العسكرى وما يعبر عنه من كرامة وفخار رجال عاديون لهم نفس قيم وآمال الآخرين أما الحكم العسكرى Military Adminstration فهو صفة مميزة لنوع من أنواع الحكام يتميز بالشمولية والفردية والقهر قد يقوم به عسكريون أو مدنيون على حد سواء(*) .

أما الأمن فيعنى أمن الوطن وأمن المواطن ، وهو يكفل أمن الوطن ضد التهديدات الخارجية وأمن المواطن ضد التحديات الداخلية المتمثلة فى الفقر والجهل مع تحقيق الرفاهية ورفع مستوى المعيشة وتحقيق الديمقراطية وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكومين . وهناك بعض الدول ، ومن ضمنها الاتحاد السوفييتى قبل انهياره تؤمن بأن التسليح هو الوسيلة لتحقيق الأمن ، وبذلك تهبط بمستوى الأمن القومى إلى مستوى الأمن العسكرى وهذا خطأ فادح ، فالأمن يعنى التنمية الشاملة لمواجهة التحديات الداخلية بنفس قدرة التحرر من الخوف من التهديدات الخارجية .

وغرض التنمية شامل يهتم بكل نشاطات الدولة (اقتصادية ـ سياسية ـ حربية ـ ثقافية . .) بنسب متوازنة ، ولذلك تجد أن التنمية تعزز الأمن القومى ، بينما تتعارض مع العسكرة ، وإذا اعتبرت العسكرة هى الوسيلة الوحيدة للأمن مع إعطائها الموارد القومية المتاحة فإن القليل الذى يتبقى يصبح غير كاف لتنمية الدولة .

ولعلنا استنتجنا فى ضوء هذه المفاهيم أن الاتحاد السوفييتى أعطى أسبقية كاملة «للعسكرة» على حساب الأمن القومى الشامل وبمعنى آخر فإنه ركز الاهتمام على مواجهة التهديدات الخارجية Threats المتمثلة فى حلف الأطلنطى وعلى رأسه الولايات المتحدة ، ولم يهتم كثيرا بالتحديات الداخلية Challenges المتمثلة فى تحقيق الديمقراطية وتدعيم

(*) أمين هويدى ـ العسكرة والأمن وتأثيرهما على التنمية والديمقراطية فى الشرق الأوسط ـ دار الشروق .

الاقتصاد القومى ورفع مستوى المعيشة . والشعوب لا تأكل « المدافع والصواريخ» ولكنها تحتاج إلى الخبز والزبد والحرية وحقوق الإنسان » وخوفا من الانفجارات الداخلية التى قد تنجم عن إتباع هذه السياسة لجأ الاتحاد السوفييتى إلى سياسة الجزرة لحشو أفواه الشعب بالغذاء حتى لا يتمكن من إبداء الرأى . الأمر الذى أظهر البلد فى حالة رفاهية مصطنعة مبنية على قوى اقتصادية متآكلة ، ولم يكن غريبا والحالة هذه أن ميخائييل جورباتشوف نادى من أول الأمر بالبروستريكا (أى إعادة البناء) وبالجلاسنوست (أى العلانية) وكلاهما أجهز عليه فى آخر الأمر لأنه افتقر إلى المهارة فى استخدامهما بطريقة أخلت بتوازن الدولة والنظام .

تسبب عن هذه السياسة خلل كبير فى التوازن بين القوة العسكرية للدولة Military power وقدرتها . والقوة العسكرية تساوى حجم القوات المسلحة + نوعيتها + كفاءتها القتالية + العزيمة فى استخدامها إذا تطلب الأمر ذلك + كفاءة وقدرة القيادة . . . أما قدرة الدولة تساوى القوة الاقتصادية + القوة الحربية + القوة السياسية + القوة التكنولوجية + القوة الروحية أى أن قدرة الدول = مجموع قواها فى مختلف المجالات .

اهتم الاتحاد السوفييتى إذن بقواته العسكرية ووضع ذلك فى قمة أسبقياته وتأخرت أسبقيات بناء القدرة ، وأصبح الاتحاد السوفييتى بذلك كالجسم غير المتوازن له عضلات ضخمة مركبة على جسم ضعيف .

وقد خصص الاتحاد السوفييتى نسبة كبيرة من الدخل القومى لمواجهة نفقات الدفاع على حساب الحرية السياسية للشعب متمثلة فى حقوقه السياسية ، وكذلك الحرية الاجتماعية متمثلة فى مواجهة احتياجاته ، ولذلك كان من المفارقات الغريبة وصول الصواريخ السوفيتية إلى أى بقعة من بقاع الكوكب الذى نعيش فيه ، بل إلى الكواكب الأخرى ، وعجز السلعة السوفيتية الجيدة عن الوصول إلى المواطن والأسواق الخارجية لعدم قدرتها على المنافسة . كان من المفارقات الغريبة أن يتقدم الاتحاد السوفييتى فى التكنولوجيات الحربية بقفزات هائلة ويتخلف فى التكنولوجيا المدنية بخطى واسعة عن العالم الغربى ، وبذلك ضعفت قدرة السلطة المركزية عن أن تكون قوة جذب للأطراف Perepheries .

ولكن لماذا فعل الاتحاد السوفييتى ذلك ؟ لماذا ركز على سباق التسلح ولو كان ذلك على حساب تنمية قدرة الدولة ورفع مستوى المعيشة ؟ . وفى تقديرنا لم يكن أمام الاتحاد السوفييتى إلا هذا الخيار إلا أنه تمادى فيه إلى حد استنزف قواه وأنهكها فقد انتهت الحرب

العالمية الثانية بحدثين كبيرين : الحدث الأول هو الاحتكار الأمريكي للقوة النووية التى أبلغتها للعالم ـ الأصدقاء والأعداء فى رسالة واضحة فى هيروشيما وناجازاكى ، وبذلك أصبحت بمثابة الشمس التى تدور فى فلكها كل الكواكب الأخرى محتلة مقعد القيادة فى العالم . أما الحدث الخطير الثانى فهو خروج الاتحاد السوفييتى إلى الوجود على شكل إمبراطورية ممتدة فى آسيا وأوروبا ، ولكن مع عدم توفر رادع نووى يجعل الإمبراطورية الوليدة تقف على قدم المساواة مع العدو الأمريكى الذى كان صديقا حتى الأمس القريب ! ! ! وهذه هى السياسة ليس بها صداقة دائمةولا عداوة دائمة ، ولكنها لا تعترف إلا بالمصالح الدائمة ومصالح الأمس المتوافقة مع الغير قد تصبح متناقضة اليوم أو الغد وهذا ماحدث ! !

وبعد سنوات أربع بالضبط ، حصلت الإمبراطورية الوليدة على « القنبلة » وبذلك وصلت الدولتان العظميان إلى ما عرف « بالتعادل النووى » . وتشكل النظام العالمى الجديد على أساس ازدواجية القطبية Bipolar New international Order وقد كان هذا يكفى لصياغة عالم جديد ، كما كان مؤملا . إلا أن سباقا رهيبا للتسلح فى كافة المجالات التقليدية وفوق التقليدية والنووية بدأ دون حدود .

ومرة أخرى نتساءل : لماذا بدأ السباق هكذا بعد أن حصلت القوتان العظميان على «السلاح النهائى»؟ سؤال مطروح يتعلق بموضوع هام آخر هو « حد الكفاية » إذ فشلت القوتان العظميان فى معرفة حقيقة السلاح الرهيب الذى أصبح فى مخازنها واعتبرتا أن السلاح النووى ماهو إلا سلاح تدميرى آخر ربما يكون أشد تدميرا ــ يضاف إلى أنواع إلى الأسلحة التدميرية الأخرى التى تمتلئ بها ترساناتها . . . لم تعرف القوتان أنه سلاح ردع وليس سلاح قتال إذ أسقطتا التأثير السياسى الهائل للسلاح الجديد ، وكلنا يعرف أن الردع هو استخدام أسلحة القتال لمنع القتال وهو فن عدم القتال ، وللقليل من هذا السلاح تأثير الكثير منه إذ يكفى أن تمتلك ما يمكنه تدمير العالم كله مرة واحدة ، ولا داعى لأن تمتلك ما يدمره عشرات المرات لأنه بعد التدمير الأول لن يبقى شىء صالح للتدمير «والضرب فى الميت حرام» .

وانطلق السباق لا يلوى على شىء ، ولكن مع بعض الشواهد العارضة :

* فبينما كانت القاعدة الاقتصادية للولايات المتحدة تتحمل الاستنزاف فى نفقات الدفاع كانت القاعدة الاقتصادية للاتحاد السوفييتى تتآكل بمضى الزمن ، وأصبح الإنفاق العسكرى « يأكل من لحم الحى » على مدى الزمن ، وقد تنبه خروشوف لهذا الأمر ونادى بالسباق فى ميادين أخرى ولكنه سرعان ما أزيح بواسطة غيره .

* وبينما لم يؤثر هذا الإنفاق الحربى إطلاقا فى ديمقراطية الولايات المتحدة أو فى رفع مستوى المعيشة ـــ إلا بشكل أقل كثيرا من الاتحاد السوفييتى حيث كانت قبضة النظام فى موسكو تزداد ضغطا على الجماهير، وأصبح الحزب فوق الشعب وليس فى خدمة الشعب .

* ثم انتشرت شعوب الاتحاد السوفيتى خارج الستار الحديدى الذى فرض عليها أول الأمر، وأخذت تقارن بين ما هم عليه من افتقار لكماليات الحياة وبين حالة الآخرين الذين يتمتعون بالرفاهية مما كان يجعل أصوات الإصلاح ترتفع ، ولكنها سرعان ما تخبو تحت ضغط الثلاثى الحاكم : K.G.B المخابرات والحزب، والمؤسسة العسكرية .

ولاشك أن استنزاف قدرات الاتحاد السوفييتى كان مخططا من جانب الولايات المتحدة الأمريكية خاصة فى العقد الأخير، إذ بدأت واشنطن فى الإعلان المتتابع عن نظم أسلحة جديدة تدفعها إلى خطوط الإنتاج وعن برامج ربما تكون خيالية حتى تجبر الطرف الآخر على أن يستمر فى سباقه ، ووصلت الأمور داخل الاتحاد السوفييتى حدا خطيرا وحساسا ينتظر من يضع « الجرس فى رقبة القط» وكان ميخائيل جورباتشوف هو الذى تقدم فى شجاعة يحمل جرسه فى يده اليمنى ورأسه على كفه الأيسر.

وانتهى سباق التسلح فى مراحله الأخيرة ، بتفكك الاتحاد إلى جمهوريات انضمت إلى كومنولث لا يعلم إلا الله إلى متى سيستمر، وترسانته الحربية والنووية كاملة لم تمس على الأقل حتى الآن . وكذلك بتقهقر مركز الولايات المتحدة الاقتصادى وأصبحت القوة الأولى من الناحية الحربية ، ولكن فى النواحى الاقتصادية والثقافية أصبحت فى مرتبة تلى اليابان فى الشرق الأقصى وألمانيا فى الغرب .

فى يوكوهاما التى تبعد ٥٠ ميلا عن طوكيو وفى مصانع « نيسان» للعربات التى تعمل «بالروبوت» رأيت بنفسى الإنتاج الرهيب للمصنع الذى تخرج من أبوابه « العربات» كما تخرج المكرونة الاسباجيتى من دواليبها لترص فى السفن الجاهزة فى الميناء . وتكتفى اليابان بتشغيل المصانع « وردية» واحدة لأنها لو عملت أكثر من ذلك لأغرقت كل الأسواق بإنتاجها وهذا يتعدى الخط الأحمر فى التجارة الدولية . . . كل هذا يتم تحت حماية الأسطول السابع الأمريكى لأن اليابان ترفض أن تزيد إنفاقها الحربى عن ٢ فى المائة من دخلها القومى لتتفرغ للإنتاج وهى فى حراسة أساطيل غيرها!!!

وفى حوار بين أحد الحكام القدامى مع مستشار لشؤون الأمن القومى إثر الحماس الشديد للحاكم لزيادة الإنفاق على جيوشه ، قص المستشار «حكاية» أحد الرعاة الذى كان

يملك قطيعا كبيرا من الغنم فى خيامه بالصحراء، وكان يخاف دائما من الذئاب التى كانت تهدد قطيعه فلجأ الراعى إلى تربية عدد كبير من الكلاب لحراسة القطيع، ولم يكن غذاء الكلاب متوفرا بعد اقتطاع جزء كبير من غذاء ساكنى الخيام فأخذ الراعى يذبح عددا من الأغنام كل يوم لتغذية الكلاب وجاء اليوم الذى انتهت فيه الأغنام، ولم يبق إلا الكلاب الجائعة ويؤكد التاريخ أن الحاكم لم يستمع إلى نصيحة مستشاره رغم النتيجة التى وصل إليها الراعى . .

وفى رسالة الوداع للرئيس دوايت إيزنهاور عام ١٩٥٣ قال: «كل مدفع يصنع وكل سفينة حربية تنزل البحر وكل صاروخ يطلق تعنى فى النهاية حرمانا للجوعى والعرايا الذين يقاسون من سوء التغذية وقسوة الطبيعة إذ يعتبر ما ينفق فى الصناعات الحربية سرقة من نصيب هؤلاء من دخلهم القومى . فهذا العالم المسلح لا يعنى تبذيرا فى الأموال فحسب، ولكنه يعنى أيضا تبديدا لعرق العمال وشتاتا لجهود العلماء وقضاء على آمال الأطفال . فالمال الذى ينفق على تصنيع قاذفة قنابل ثقيلة يمكن أن يغطى نفقات بناء ٣٠ مدرسةموزعة على ٣٠ مدينة وإنشاء محطتين كهربائيتين تخدم كل منهما مدينة تعدادها ٦٠,٠٠٠ نسمة وتعادل بناء مستشفيين كاملى التجهيز، كما يساوى أيضا رصف طريق طوله ٥٠ ميلا».

وياليت الاتحاد السوفييتى تفهم هذا القول الحكيم، وياليت الولايات المتحدة تستفيد من كلام الخمسينيات لتنقذ العالم من شرور التسليح فى الستينات، وياليت إسرائيل تعرف وتتيقن أن القوة العسكرية فى يدها اليوم، ولكن القدرة الشاملة فى يدنا، والقوة جزء من القدرة إذا وقفت وراءها إرادة عربية قادرة .

الفصل السابع

البيروسترويكا أو إعادة البناء

لاشك أن فترة الثمانينات تعتبر نقطة تحول كبرى فى النظام العالمى الذى يتحكم فى الكوكب الذى نعيش فيه ، فها هى الدول الاثنتا عشرة الأعضاء فى السوق الأوروبية المشتركة تخطو خطواتها الثابتة لإعلان « الولايات المتحدة الأوروبية» بسوقها الموحدة عام ١٩٩٢ ، وهاهى الصين تحت قيادتها الجديدة تعلن وتخوض ثورة التصحيح الكبرى ، والتى تطلق عليها « الجاى ـ جى Gai - Gi » والتى تعنى التغيير الجذرى حتى لو أدى الأمر إلى التخلص من المفاهيم القائمة وتغييرها بطريقة ثورية لأن « جى Gi » إحدى مقاطع كلمة «جيمنج ـ Geming » أى الثورة ، ثم هاهو ميخائيل جورباتشوف يعلن عن « إعادة البناء» أى « البيروسترويكا Perostroika » والتى يركز فيها على تغييرات جذرية داخلية يغلفها بتغييرات فى السياسة الخارجية جعلت العالم يعيد حساباته ، ويرتب أوراقه من جديد .

وسوف نحاول أن نلقى بعض الأضواء على بعض الزوايا الرئيسية فى أفكار ميخائيل جورباتشوف عن « البيروسترويكا »

١ ـ البيروسترويكا ـ لماذا ؟

حينما قفز « جورباتشوف» إلى قمة السلطة أيقن أن « السيارة لم تكن تتجه إلى حيث يعتقد من يجلس على عجلة القيادة . » وهذا أمر سبق أن حذر منه « لينين» فى أوائل أيام الثورة البلشفية . فالعالم كله يتغير عدا الاتحاد السوفيتى الذى وضع نفسه فى إطار ايديولوجى جامد لايريد أن يتحرر منه . . فالتطورات الاجتماعية غيرت طبيعة المجتمعات وعلاقاتها ببعضها البعض . فبريطانيا لم تعد كما كانت أيام بالمرستون أو حتى ونستون تشرشل ، وفرنسا لم تعد كما كانت أيام نابليون ، ولا ألمانيا بقيت كما كانت أيام لودندرف أو

حتى هتلر، وكذلك الحال لم تعد إيطاليا كما كانت أيام عمانويل وموسولينى . . . فلماذا إذن يبقى الاتحاد السوفيتى على نفس الحال الذى كان عليه أيام لينين وستالين، وإن عالم العشرينات حينما بدأت الثورة فى روسيا ليس هو عالم الثمانينات أو التسعينات والاتحاد السوفيتى اليوم ليس هو « روسيا القيصرية» التى حطمها « لينين» ورفاقه بعد الثورة .

والثورة ليست عملا « استاتيكيا Static » يحدث فى لحظة ثم يلقى الثوار بعدها أسلحتهم ويستريحون تظللهم أكاليل الغار بعد النصر . بل الثورة عمل « ديناميكى ـ Dy-namic » تسعى إلى التغيير والتطوير نحو الأفضل. وبذلك فهى تعنى البناء والتدمير وبدون تدمير لايمكن تنظيف الموقع ليقام البناء الجديد. . إن البيروسترويكا تعنى إزالة جذرية وحازمة للعقبات التى تعرقل التنمية الاجتماعية والاقتصادية كما تعنى التضحية بالفروع من أجل انطلاق الجذور .

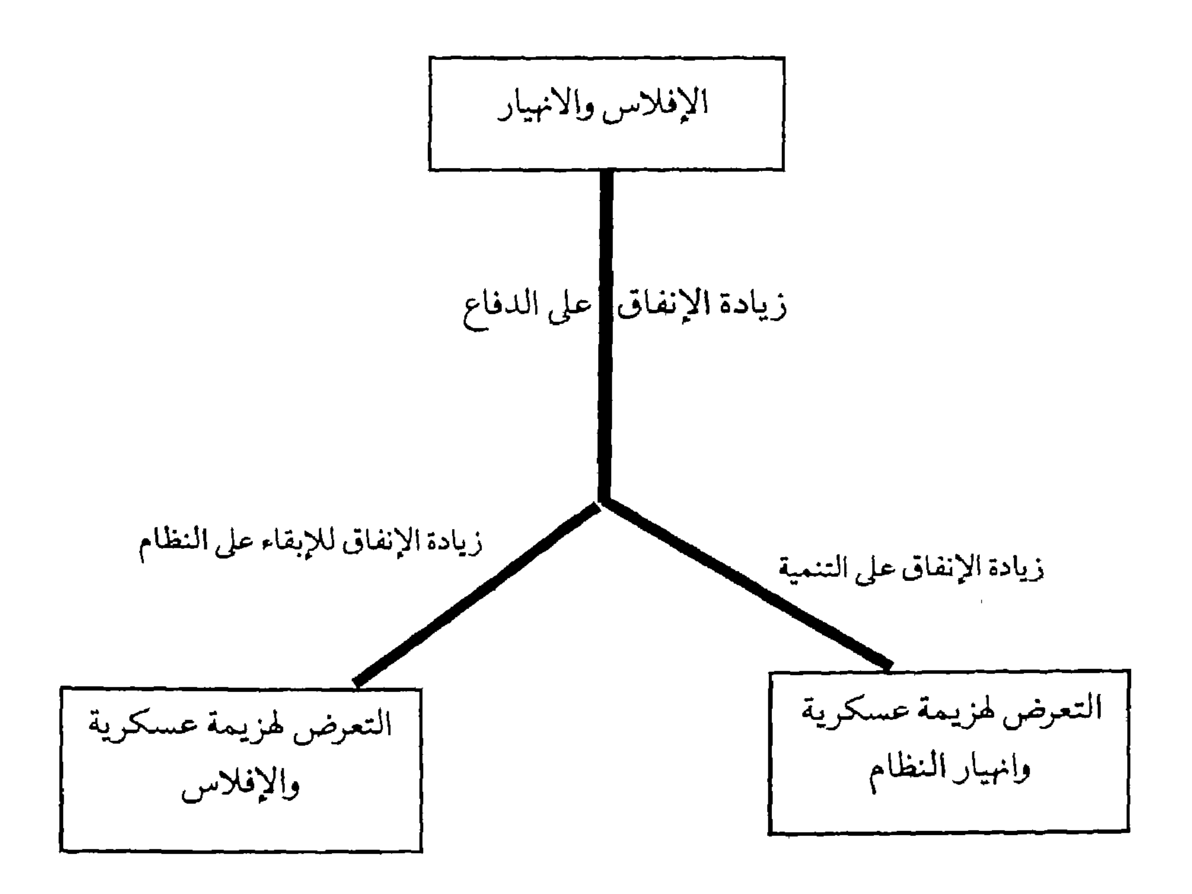
إن النظرية الماركسية تنادى بالتغيير المستمر على أساس أن وسائل وعلاقات الإنتاج تتطور بصفة دائمة الأمر الذى يحتم على البناء السياسى الذى يمثلها أن يتواءم مع التغيير وإلا ينهار من أساسه إذ يصبح البناء مرتكزا على أساس تغيَّر كلية عن الأساس الذى أنشىء فوقه فى مبدأ الأمر. . . نفس لينين ووجه بذلك بعد الثورة مباشرة حينما ووجه بالأمر الواقع فنادى « بالخطة الاقتصادية الجديدة» التى فتح عن طريقها مجالا للقطاع الخاص والاستثمار الأجنبى، فالبلاد فى حاجة إلى التقاط الأنفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام .

وبناء على هذه النظرة أقدم جورباتشوف على تنفيذ إجراءات غير معتادة : انتخاب المديرين فى المؤسسات والمكاتب، تعدد المرشحين لانتخابات السوفييتات، المشروعات المشتركة مع الشركات الأجنبية، مصانع ووحدات ومزارع جماعية وحكومية تسير نفسها بالتمويل الذاتى ، رفع القيود عن المزارع التى تغذى مصانع للمواد الغذائية ، اتساع النشاط التعاونى ، تشجيع النشاط الفردى فى الإنتاج صغير الحجم، إغلاق الوحدات الخاسرة، صحافة أكثر وضوحا، تأجير المزارع للعائلات لفترة تصل إلى ٥٠ عاما . . .

ولكن مازال السؤال قائما. . . البيروسترويكا لماذا ؟ ما الذى حدث بالضبط فى الاتحاد السوفيتى لإعلان الثورة على الثورة ولكن فى نفس طريقها ؟

الدولة كائن حى يتأثر بما حوله ويؤثر فيه، ولذلك فهى دائمة التطور والتحرك، والدولة ترتكن فى تحولاتها وتحركاتها لتنمية ورفع مستوى المعيشة وزيادة الدخل، ثم القوة السياسية أو نفقات الإبقاء على النظام كقوة فاعلة فى الداخل والخارج. . . ويتم الإنفاق على هذه

المجالات طبقا للموارد العامة للدولة ويشكل هذا الإنفاق فى هذه المجالات الثلاثة مايعرف « بالمشكلة الثلاثية لصانع القرار The Decision Maker's Trilemma » كما يتضح من الشكل التالى :



وكما نرى فإن المشكلة عويصة بحق ، فإذا زادت نفقات الدفاع تعرض الوضع الاقتصادى لأزمة حقيقية تؤثر فى مصداقية النظام ، وإذا أهملت نفقات الدفاع أصبحت الدولة معرضة للهزيمة وفقد النظام مصداقيته ، وإذا زاد الإنفاق لبقاء النظام أدى ذلك إلى الإفلاس والهزيمة . . . ولايتحقق الأمن القومى إلا بالتوازن الكامل فى إنفاق الموارد المتاحة ، وهذا يحقق للدولة قدرتها المتحكمة ، والقدرةهى مجموع أو محصلة قوى الدولة .

الدولة ـ أى دولة ـ تسير على أرجل ثلاثة ، فإذا نقصت إحداها أصبحت الدولة عرجاء ، وإذا اختل التوازن بين الأرجل الثلاثة ـ أى القوى الثلاثة ـ تخبطت الدولة وأصبحت فى وضع حرج لأن قدرتها مفقودة ، فهى قدرة ينقصها التوازن .

والذى حدث فى الاتحاد السوفيتى حتى بداية عصر « جورباتشوف» ثورة ضخمة بكل المقاييس فى ظل الظروف التى سادت فى تلك الفترة ، فقد انتهت الحرب العالمية الثانية بنظام عالمى جديد « أحادى القطبية» سيطرت فيه الولايات المتحدة على العالم فى ظل «الاحتكار النووى» وكان هذا خطرا ماحقا على العالم الاشتراكى بقيادة الاتحاد السوفيتى إذ أصبح للولايات المتحدة القدرة على فرض « السلام الأمريكى » كما تراه على الكوكب الذى نعيش فيه . ولم ينس الاتحاد السوفيتى مافعلته قنبلتا « هيروشيما » و«ناجازاكى» باليابان وأصبح لا يوجد إلا خيار واحد أمامه وهو خوض معركة حياة أو موت لتحقيق « التعادل النووى» مع الولايات المتحدة لتحويل العالم إلى عالم « ثنائى القطبية» بدلا من « أحادى القطبية» ونجح الاتحاد السوفيتى وأصبح يمتلك ترسانة نووية وتقليدية هائلة ورادعة .

وحينما وصل الاتحاد السوفيتى إلى غرضه وجد نفسه فى نقطة حرجة اختل فيها التوازن بين القوى الثلاث : العسكرية والاقتصادية والسياسية وأيقن جورباتشوف أن قدرة الاتحاد السوفيتى الداخلية هى التى تحدد مدى ومصداقية سياسته الخارجية وأن رجلا قوية واحدة ـ وهى القوة العسكرية ـ لا تكفى للتحرك فى العالم الذى نعيش فيه . . وجد جورباتشوف أن القوة الاقتصادية للاتحاد السوفيتى تتآكل فليس معقولا أن الاتحاد السوفيتى الذى بلغ الذروة فى التكنولوجيا العسكرية ووصل إلى القمر وعصر الفضاء عاجز فى الوقت نفسه فى مجالات التكنولوجيا المدنية وعاجز عن توفير المواد الغذائيةلشعبه ، ويضطر أن يستورد النسبة العظمى من احتياجاته من أسواق منافسيه ، ويفتقر شعبه إلى كثير من المواد الاستهلاكية ، بل تولدت لدى الشعب السوفيتى عقدة من جودة المنتجات الغربية . . . ليس معقولا أن يستمر الاتحاد السوفيتى يعيش معدلات التنمية بحجم الاستثمارات المتزايدة وكمية المواد الأولية والطاقة المستخدمة فى الإنتاج ، وليس بزيادة الإنتاجية ورفع مستوى الإنتاج أو أن يظل غائبا عن الأسواق العالمية فى كثير من المجالات ، الأمر الذى يضعه فى موقف حرج لا يمكن من الحصول على العملة الصعبة لعجزه فى مجال الصادرات . . ليس معقولا أن تكون قوته العسكرية جبارة كاسحة ، وقوته الاقتصادية متواضعة عاجزة فى عالم لاتقل فيه المنافسة الاقتصادية أهمية عن المنافسة العسكرية بأى حال من الأحوال .

وفى الوقت نفسه ليس معقولا وفى ظل قوته العسكرية الهائلة أن يظل الوضع السياسى للدولة والفرد على نفس الوضع الثقيل الذى تطلبته مرحلة التحول العظمى . . . ليس معقولا أن يصبح الحزب الشيوعى فوق الشعب ، وليس مع الشعب مسيطرا على كل السلطات خاصة بعد أن ترهل ودب فيه الفساد . . . إن المزيد من الاشتراكية لايمكن أن

يتحقق إلا بمزيد من الديمقراطية واشتراك الجماهير فى عمليات التحول . . إن العمل وحده هو الذى يحدد مكان المواطن الحقيقى فى المجتمع وكـذلك وضعه الاجتماعى ، فالاشتراكية ليس لها علاقة بـالمساواة ، ولايمكن أن تضمن ظروف الحياة والاستهـلاك وفقا للمبدأ « من كل حسب قدرتـه ولكل حسب حاجته» إذ سيكون ذلك فى ظل الشيـوعية . أما الاشتراكية فلهـا معيار آخـر لتـوزيع المزايـا الاجتماعيـة وهو « مـن كـل حسب قـدرتـه ولكل حسـب عمله» . . . للعمال الحق فى اختيـار مديرهم ، وينبغـى على اللجان النقابيـة أن تكون ذات أنياب وألا تكـون شريكا طبيعيـا للإدارة . . إن الجلاسنـوست أو العـلانية والنقـد والنقد الذاتى لابد وأن تمارس على أساس من معرفة الحقيقة . . . فلا يجوز أن تستمر أجهزة الإعلام والثقـافة على صـورتها القائمـة فى ظل الأقمار الصنـاعيـة التى جعلـت الدول عـارية أمـام بعضها . . ليس معقولا أن تتضخم القوة العسكرية وتتآكل حقوق الإنسان .

فضل جورباتشـوف أن يواجه النقطة الحرجة لا أن يتجاهلهـا كما فعل غيره ، فكان عليه أن يجد حلا للمعـادلة الصعبة : كيـف يدعم القوتين الاقتصـادية والسياسيـة دون المساس بالقـوة العسكرية؟ لقـد وصل الاتحاد السوفيتـى إلى حد الكفايـة فى وسائل الدفـاع بحيث أصبح قادرا على تـدمير الولايات المتحدة عشر مـرات ، وأصبح واثقا أن الشعب الأمـريكى أصبح رهينة فى يد الكـرملين ، كما أن الشعب السوفيتى رهينة بدوره فى يـد البيت الأبيض ، وبذلك أصبح قـادرا على أن يحافظ على السلام فى ظل قوته الرادعـة . . ولكن مافائدة ضمان المحافظة على السـلام فى ظل الشك فى القدرة على المحـافظة على النظام؟ ولم لايوقف سباق التسلح حتى يدفع ماء الحياة فى شرايين الناحيتين الاقتصـادية والسياسية؟ لم لايستغل قوته العسكرية التى وصل إليها وحققها فى عمليـة إعادة البناء ؟ هكذا فكر وأقدم على التنفيذ ، ولكن ما كان يمكنه القيـام بذلك إلا فى ظل القوة العسكرية التى حققتهـا الأجيال السابقة فى ظل قياداتها المتتابعـة بما لها وما عليها . . فالسيئات لاتذهبن الحسنـات وكل زعيم ليس ملاكا كله ولاشيطانا كله . . . بل هو مخلوق نصفه ملاك ونصفه شيطان . . .

٢ ـ البيروسترويكا ـ كيف ؟!

لم يكن ميخائيل جـورباتشوف أول من حاول « إعادة البناء » مـن قادة الاتحاد السوفيتى فقد حاول ذلك «خـروشوف» فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى بعـد وفاة ستالين وتمكنه من الانفراد بالسلطة ، إلا أن « ليونيد بريجنيف» قام ضده بانقلابه المشهور بمساعده كل من «بودجـورنى» و«كاسـاجين» . . . وجرت محاولة أخـرى لإعادة البنـاء بدأها «أنـدروبوف»

ولكنــه كان يعلــم تماما أن الــوقت لــن يتسع لــه للمسير فى الطريــق الطويــل بسبب أزمتــه الصحية التى كان على علــم بمدى خطورتها ، واكتفى الرجل بــدق ناقوس الخطر ، واتخاذ بعض الخطوات لتطهير الحزب ، وتهيئة المسرح لجورباتشوف عســى أن يتمكن من تنفيذ ما حال القدر دون قيامه بتنفيذه .

وفى الخطوات الإصــلاحية المحــدودة التى تمت قبــل «جوربــاتشوف» كــان النقد يــوجه للزعيم دون الحزب فصــب خروشوف نقده على ستالين مشــوها صورته بطريقــة بشعة حتى كرر « انــدروبوف» نفــس « السيناريو» ليركــز نقده على « بريجنيــف» وجمود سياستــه وفساد إدارتــه . . . إلا أن جوربــاتشوف كــان هــو الوحيــد الــذى تجاسر على أن يوجــه نقده ضــد «الحزب» إذ « يجب أن نبدأ بأنفسنــا وعلى كل فرد فى المكتب السياسى ومــن الهيئات المحلية ومن منظمات الحزب القــاعديــة أن يتحمل المسئوليــة ، كما ينبغى أن نكــون أفضل ممــا نحن عليه ، وسوف نساعد من لايستطيعون تقــويم أنفسهم . . . يجب أن يتخلى البعض طواعية عن الامتيــازات التى لايستحقونها والتى اكتسبــوها بشكل غير مشروع ، وعن الحقــوق التى عرقلــت تقدمنــا . . . لقد ضعــف توجيــه الحزب وأنعدمــت المبادرة وضعــف أداء المكتب السياسى سكرتــارية كذا جهاز الحزب وسادالعبث فى توزيــع الجوائز والألقاب والمكافآت ونشأ مناخ أن كل شىء على مايرام ، وفترت المطالبة بــالانضباط والشعور بالمسئولية وبذلت المحاولات لتغطية ذلك بحملات صاخبة ومشروعات طنانة ، وعجزت منظمات الحزب عن الدفاع عن المبادئ أو التصدى للاتجاهــات الخاطئة ، وأصبح العديد من أعضاء الحزب فى المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد مما أدى إلى ممارسات خاطئة وخطيرة وساد بين هؤلاء عدم احترام القانــون مما أدى إلى سخــط الجماهير العاملــة على سلوك الأشخــاص الذيــن يحظون بالثقــة والمسئوليــة والذيــن يسيئون استخــدام السلطــة ويقمعون النقــد ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا إلى شركاء فى أعمال إجرامية إن لم يكونوا منظمين لها» .

ثم نجــد أن « جورباتشوف » يــرتكن فى كل أقــواله وإجراءاته إلى « لينين » الــذى بقيت أعماله معينــا لا ينضب للفكر الإبداعــى الجدلى والإثراء النظرى . وقــد حدد الرجل مــركزه بدقة بالنسبة إلى « لينين » فكما يقول « ديف موراركا فى كتابه القيم عن جورباتشوف «حدود السلطة » إن التاريــخ سجل لنا الدور الهام الــذى لعبه الأنبياء فى تقدم البشريــة وإن بعضا من الحواريين والفــلاسفة والقادة كــانوا مجرد وسائل لنشر رســالة الأنبياء . . . وإن جــاز لنا تطبيق ذلك على ما نحن بصدده فإن جورباتشوف حدد دور « لينين » فى أنه « النبى » الذى بلغ الرســالــة التى لايجوز تغييرها وما على « جورباتشوف » بصفته أحــد الفلاسفة والقادة إلا

to: www.al-mostafa.com

تبليغ وتأصيل الرسالة . ونجده فى كتاباته وأحاديثه يرجع دائما إلى « مؤلفات لينين فهى بمثابة وصيته السياسية . . كان لينين عندما اشتدت وطأة المرض عليه شديد القلق على مستقبل الاشتراكية» .

وإذا نظرنا إلى التاريخ أيضا لوجدنا أن « الأفكار الجديدة » لاتجد قبولا إلا إذا قدمت على أنها ليست جديدة تماما ، بل لايتعدى كونها إحياء لأفكار قديمة تم تجاهلها ونسيانها فى زحمة الحياة . وجورباتشوف يؤكد دائما بأنه لايوجد جديد فيما يقول فكل ، مايفعله هو مجرد إحياء لمبادئ لينين التى أكد عليها منذ حوالى ستين عاما فقد تحدث لينين عن الانفتاح فى «الخطة الاقتصادية الجديدة» وعن توجيه الرأى العام والنقد والنقد الذاتى ومطابقة مايقال على مايفعل والطهارة الحزبية . . .

وفوق كل ذلك فإن جورباتشوف كان مقدرا تماما الطريق الصعب الذى كان عليه أن يقطعه . . كان مقدرا تماما مقاومة « رجال الحرس القديم» ثم « أصحاب المصلحة فى الإبقاء على الأوضاع دون تغيير» وكذلك الأغلبية الصامتة التى تنتظر تحديد اتجاه الريح ، ولم يكن أمامه إلا خيار واحد لمواجهة كل ذلك وهو « المحافظة على الغرض» فهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق « البيروسترويكا» مع إجراء تعديلات فى الوسائل بين وقت وآخر تبعا للظروف والأحوال ، ولذلك فقد صرح وهو يقدم سياسته « إعادة البناء» « لابد من تنفيذ التحول المطلوب فلا بديل عن ذلك ولا مجال للتراجع بعد أن بدأنا ، فليس هناك مكان نسحب إليه» . وحتى الآن ظهر الرجل على أنه قادر على ذلك فهو رجل « ذو ابتسامة جذابة تكشف عن أسنان حديدية » كما وصفه اندريه جروميكو قبل أن يدفع به إلى زوايا النسيان .

وحتى يكشف عن « العفن» ويحقق الديمقراطية التى ينادى بها نادى أيضا «بالجلاسنوست» فالعلانية والرقابة الحقيقية من أسفل هما طريقا الإصلاح الذى نشيده وتوسع فى الاتصالات المباشرة بالجماهير بالزيارات المتتالية واعتنى بالرسائل التى تصل إليه من القاعدة بصفتها التغذية الخلفية الهامة التى تربط القيادة بالجماهير كما تصل الرسائل إلى مكاتب تحرير الصحف والمجلات ويجرى نشر الكثير منها .

وأخذ بعد كل ذلك فى الإقدام على تغيير الأفراد فى كل المواقع ، فلا يمكن تنفيذ «البيروسترويكا» بنفس القيادات التى عملت فى الماضى ، وكان التغيير بالانتقاء وبالانتخاب وعمل على تدريب القادة الجدد فى دورات قصيرة أو طويلة حسب التخصصات المطلوبة ثم عمل على تقليص سلطة الحزب بزيادة سلطة الحكومة

والسوفييتات ، ثم انتهـز هبوط «الهررست» بطائرته فى الميدان الأحمر متخطيا كـل الدفاعات المضادة للطائرات فانقض على المؤسسة العسكرية ليضعها فى موضعها الصحيح .

ولكن لم يكن من الممكن لجورباتشوف أن يفعل كـل ذلك بالجبهة الداخلية إلا إذا عمل على تهدئة الجبهة الخارجية خاصة مع الولايـات المتحدة مركزا على نزع السلاح وتهدئة النقط الساخنة الإقليمية تـدريجيا فاستمر طوال السنوات الثلاث مـن أول حكمه فى محاولاته مع الولايات المتحدة الأمريكية وقدم كثيرا من التنـازلات حتى حصل على اتفاقية إزالة الأسلحة النـوويـة متوسطـة وقصيرة المدى مـن أوروبـا وحقق الكثير لاسترخـاء الحرب البـاردة على المستوى العالمى وتبريد النقـط الساخنة على مستوى الصراعات الإقليمية ، بـل نجده يعلن يوم ٧/ ١٢/ ١٩٨٨ أمـام الأمم المتحـدة عن مبـادرة جريئـة اقترح فيها « إلغـاء أو خفض وجدولـة ديون بعض دول العالم الثـالـث وخفض القـوات السوفيتية فى أوروبا الشرقيـة ومن جانب واحد بمقدار نصف مليون جنـدى ، ١٠٠٠٠ دبابة ، ٨٥٠٠ نظام مدفعية ، ٨٠٠ طائرة مقاتلة خلال العامين القادمين . » .

إن جـورباتشـوف لايريـد أن يحارب فى جبهتين فى وقت واحـد . . . إنه يـريد تخفيـض نفقات الدفـاع بعد أن وصل إلى حد الكفاية النـووية والتقليدية ، ليضمن السلام ثـم ليزيد الموارد المتاحة ليقوى الجبهة الداخلية ليحافظ على النظام (*) .

(*) كان هذا فى آخر عام ١٩٨٨ قبل أن يزيحه يلتسن .

الفصل الثامن

مستقبل البيروسترويكا وتأثيرها على المستويين العالمي والإقليمي

لم تنل «فرقعة» من «الفرقعات» التي تحدث في الكوكب الذي نعيش فيه مثل مانالته «البيروسترويكا» أو إعادة البناء من اهتمام . . . فقد تناولها ـــ ومازال ـ الساسة والباحثون والمعاهد المتخصصة بالبحث ليصلوا إلى تحديد ردود الفعل على كافة المستويات حتى تتفق الإستراتيجيات مع المتغيرات . . إنهم جميعا يريدون أن يصلوا إلى الحقائق حتى « لايكتفوا برؤية بعض الأشجار بل ليروا الغابة كلها» . . إن إعمال العقل للكشف عن المتغيرات المستقبلية أفيد وأهم من ترك الأمور للعبة الحظ حتى في الحروب التي حددت مسار التاريخ ، واستخدام الحكمة كانت ـ ومازالت ـ أهم من الشجاعة والإقدام ، كما أن الفكر المبدع الخلاق كان أفضل وأجدى في إحراز الانتصارات من السيف والمدفع(١) .

وكالعادة فإن الآراء دائما ماتنقسم عند مواجهة الحدث الجديد في تفسير حدوثة ومدى المتغيرات الحقيقية التي يحدثها بعد إزالة البريق الخاطف الذي يصاحبه في أول الأمر ثم يكون الخلاف الأكبر في كيفية مواجهته لتطويعه لخدمة الأغراض المرجوة بين المتشددين أي الصقور والمعتدلين أي الحمائم .

* * *

البعض يرى أن «البيروسترويكا» موجهة أساسا إلى الداخل في الاتحاد السوفيتي والجماعة الاشتراكية(٢) . . الجبهة الداخلية هي ذات الأهمية الأولى والثانية والثالثة . أما الجبهة الخارجية فهي غطاء لما يحدث في الداخل ، فالتغيير في الجبهة الخارجية طفيف إن لم يكن منعدما . لايفرضه إلا التغيير في الجبهة الداخلية .

---

(١) SIR BASIL H. Liddell Hart, Why Don't we Learn From History? Geerge Allen and Unwin Ltd, London 1971? السير بازل ليدلهارت لماذا لا نتعلم من التاريخ

(٢) من بحث ألقيته في ندوة بمركز البحوث والدراسات السياسية ـ كلية الاقتصاد والسياسة ـ جامعة القاهرة .

فجورباتشوف وهو يحاول تهدئة الحرب الباردة وسباق التسلح يقطع ـ وهو محق فى ذلك على الأقل بالنسبة للمواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ـــ بأن مقولة «كارل فون كلاويزفيتز» فى كتابه « فى الحرب On War » « بأن الحرب هى استمرار للسياسة بطرق أخرى » قد سقطت إلى الأبد فى ظل التدمير النووى المتبادل بين القوتين العظميين. هذه حقيقة لاجدال فيها، ولكن هل يعتبر هذا « تفكيرا جديدا» فى الصراع الدولى المعاصر؟ لقد ورد ذلك فى أدبيات الإستراتيجيتين العالمية الغربية والشرقية على حد سواء منذ الخمسينات فالمارشال ف . د. سوكولوفسكى فى كتابه « حول الإستراتيجية العسكرية السوفيتية » كتب فى أواخر الخمسينات بأن « الإنجازات التى تمت فى الاتحاد السوفيتى أوصلت الغرب إلى أن يختار بين الاستسلام الناجم عن استحالة استخدام الأسلحة النووية وبين الفناء فى حالة استخدامها وجعلته يفكر فى حل وسط عن طريق تغيير الحروب الذرية الشاملة لتصبح حروبا ذرية محدودة ، وأخذت القيادات العسكرية الأمريكية تتخبط بين الردع المرن Flexible Deterrence والرد المتدرج Graduated Response والحروب الوقائية Pre - emptivewars . . ولكن من يضمن أنها ستستمر مقيدة من الجانب الآخر ؟ إن الاستراتيجية السوفيتية المعاصرة تبنى على مفاهيم إنجلز ولينين ، وهى مازالت صالحة حتى فى العصر النووى. فقد ركز لينين على أن الحرب جزء من كل، وهذا الكل هو السياسة . والحرب إذن امتداد للسياسة بوسائل العنف، والعنف هو مجرد عمل سياسى، ومعنى ذلك أن الحرب ليست مرادفة للسياسةوأن السياسة يمكنها استخدام وسائل أخرى غير العنف لتحقيق أهدافها دون اللجوء إلى الحرب « ويستطرد قائلا : ويعادى الاتحاد السوفيتى كافة الحروب العدوانية ويقف إلى جوار كل نضال مقدس للشعوب المغلوبة على أمرها مع استبعاد الحروب النووية وسعيه الدائم لتحقيق التعايش السلمى بين النظامين الاجتماعيين المتناقضين، وهو يعلم أن هذا لايوقف الصراع الطبقى، ولكن يستمر ذلك بوسائل سلمية ودون استخدام العنف . . إن الحل العلمى والتكنولوجى هو الحل المناسب لمواجهة التهديد الاستعمارى . » .

ثم لنقرأ ماكتبه « هرمان كاهن» فى كتابه On Thermonuclear War « الذى صدر عام ١٩٦٠ « بالرغم من أن القوة التدميرية أصبحت من الضخامة بحيث يستحيل استخدامها عمليا إلا أن سباق التسلح مازال مستمرا علما بأن الخيار المعقول الوحيد أصبح اتباع استراتيجية الردع المحدود التى تؤدى فقط إلى القتل المتبادل وليس بالضرورة إلى الفناء المتبادل أو إلى نهاية الحضارة أو إلى نهاية التاريخ». وهذا التفكير يتطابق مع ما قاله

«مالنكوف» من « أن الحرب النووية سوف تؤدى إلى نهاية الحضارة ، ومن ثم لن تقدم الدول الرأسمالية على هجوم نووى ضدنا مما يتيح لنا تخفيض استثماراتنا فى الصناعات الثقيلة والإنتاج الحربى ، وتوجيه الفائض لإنتاج مزيد من السلع الاستهلاكية[٣] » . وفى اعتقادى أن هذا مايريده جورباتشوف بالضبط .

إذن من ناحية الاسترخاء الدولى لم يأت جورباتشوف بجديد ، فالكثيرون قبله رددوا ما يردده الآن . . كلهم تحدثوا عن أنهم إذا كانت الاستراتيجية قبل العصر النووى تعنى الاستخدام الماهر للقوة ، فقد أصبحت فى ظل الرعب النووى فن التهديد باستخدام القوة دون استخدامها ، أو هى فن عدم المواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ، وفن ترجمة القوة إلى الدبلوماسية ، وبعبارة أخرى أصبحت الاستراتيجية النووية هى عبارة عن فن الردع . . فالعالم وصل إلى حال من الاستقرار النووى فى ظل مخزون نووى يدمر العالم مرتين أو أكثر فما فائدة تراكم المخزون بعد ذلك ؟

يعنى الاستراتيجية الكونية فى عهد جورباتشوف لم تتغير إذ ليس من المستحيل تغيير الاستراتيجيات الكونية للدول العظمى لسببين : الأول هو أن هذه الاستراتيجية تخدمها نظم اقتصادية و إنتاجية وعقائدية معينة من الخطر تغييرها بطريقة فجائية وحادة إذ يتسبب عن ذلك خلل فى توازن القوة العظمى والسبب الثانى هو أن التغيير لا يتم بإرادة كاملة بل بإرادات ناقصة تخضع لاستراتيجيةالقوة المضادة . . كل ما حدث أن موسكو تريد فترة لالتقاط الأنفاس حتى مع تقديم بعض التنازلات فى محور خارجى لتحقيق إعادةالتوازن فى المحور الداخلى تحت تأثير الضغوط الاقتصادية الناتجة من تزايد نفقات الدفاع ، وكذلك التقدم الهائل فى وسائل المواصلات والأقمار الصناعية لإعادة تشكيل النظم من الخارج وكأن موسكو تريد أن « تفعلها بيدها لا بيد عمرو . » .

* وهنا يبرز سؤال يحتاج إلى إجابة : ماهو الجديد الذى جعل الولايات المتحدة توافق على التوقيع على اتفاقية إزالة الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى فى أوروبا بعد سنين طويلة من المفاوضات الشاقة؟! إنها تعلم تماما مقدار الإجهاد الاقتصادى الذى تعانى منه موسكو من جراء سباق التسلح ، وكان الأحرى بها أن تستمر فى السباق الذى هو سباق استراتيجى

---

(٣) كتب فى هذا الكثيرون وعلى سبيل المثال : هنرى كيسنجر فى كتابه A world Restored , The Necessity For Choice والجنرال جيمس جافن فى كتابه الحرب والسلام فى عصر الفضاء وميلفن ليرد فى كتابه A House Divided, American Strategy Gap . وبازل ليد لهارت فى كتابه فى الستينات The Revolution of Warfare والجنرال أندريه بوفر فى كتابه الردع والاستراتيجية ، وكلاوس نور فى كتابه الاستخدامات العسكرية فى العصر النووى وفرديناند أوتو ميكشة فى كتابه فشل الاستراتيجية النووية .

الظاهر، ولكنه سباق استراتيجى اقتصادى فى حقيقة الأمر حتى تفجر الاتحاد السوفيتى من الداخل ؟ ولكن هناك سببين لذلك : السبب الأول أن هناك خطا فى الصراع بين القوتين العظميين لايجوز تجاوزه منعا من إجبار الطرف الآخر على اتخاذ إجراءات يائسة . والسبب الثانى أن الولايات المتحدة أيضا وصلت إلى حالة إجهاد اقتصادى أخل بمصداقيتها حتى بين حلفائها تحت ضغط القروض الهائلة التى تقترضها ، والعجز فى ميزان المدفوعات وزيادة البطالة وهبوط سعر الدولار . إن القوتين وصلتا إلى ما نسميه بحالة « الإجهاد المتبادل» نتيجة لتضخم ميزانيات الدفاع .

وهناك سبب آخر لتوقيع الولايات المتحدة على الاتفاق ، إذ إنه لم يشمل القوة النووية البريطانية أو الفرنسية وعلى ذلك فأوروبا مازالت تعيش تحت مظلة نووية من الصواريخ متوسطة وقصيرة المدى بريطانية وفرنسية الصنع ، علاوة على مظلة نووية من الصواريخ عابرة القارات . .

حتى وجهة النظر السوفيتية فى الصراعات الإقليمية مازالت تتحرك فى إطارها المعروف تقريبا ، فوجهة النظر السوفيتية بخصوص الصراع العربى الإسرائيلى هى هى لم تتغير تقريبا ولم يدخل عليها « خميرة تحديثية» كما يعتقد البعض . فموسكو تؤكد دائما ــ ومازالت ـ على بقاء إسرائيل كدولة ذات سيادة داخل حدود ١٩٦٧ مع إجراء تعديلات مقبولة من الطرفين . وكانت لها علاقات مع إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ ، وهما فى سبيلهما لإعادتها لو وافقت على عقد المؤتمر الدولى ، وتؤمن بأن حل القضية ليس عن طريق الحرب ، وهى لم تمانع فى الماضى ولا هى تمانع فى الحاضر فى هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل ، وهى تقف الآن كما وقفت من قبل إلى جانب العرب وهم يطالبون برد أراضيهم بعد حرب ١٩٦٧ وبأن يكون للفلسطينيين دولة . ثم نجدها قد التزمت بمد العرب بالأسلحة فى حدود سياستها تلك . . . وجهة نظر . . !!

* * *

وجهة نظر أخرى ترى عكس وجهة النظر السابقة تماما ، فهناك تحولات عالمية كبيرة تحدث من حولنا ، والبيروسترويكا تتجاوب معها : فقد حل التعاون محل المواجهة فى التعاملات الدولية ، وينادى جورباتشوف بالاعتماد المتبادل والتكامل ، ثم تغير مفهوم السيادة الوطنية فى ظل تداخل المصالح وتشابكها .

والكوكب الذى نعيش فيه يغلفه غلاف جوى واحد Biosphere لا يعترف بتجزئة

العالم إلى كتل وتحالفات وأنظمة ولا يستقيم وجود كوكب منقسم فى ظل غلاف جوى واحد تسكنه مجموعـات من البشرية تتهددها أخطـار كوارث بيئية عظمى لايمكنهـا أن تواجهها بجهود منفـردة وراء خطوط فـاصلة ، فالحدود السيـادية للـدول لم يكن لها جـدوى فى منع إشعاعات شيرنـوبيل من تخطيها مئات الأميـال وزلزال أرمينيا كان حافـزا للعالم أن يتخطى حدوده السيـاسية الفـاصلة لتقديـم المساعـدات إلى الضحايا بغـض النظر عـن جنسيتهم وعقيدتهم ، وبذلك أصبحـت قضايا الإيكولوجيا تسبـق قضايا الأيديولوجيـا وأصبح حماية الجنـس البشرى من أخطـار التكنـولوجيتين المدنيـة والعسكـريـة له الأسبقيـة على الصراع الطبقى بحكم النص الذى أورده جورباتشوف فى البروسترويكا

العالم يواجه بأخطار التلوث والجفاف وديـون العالم الثالث ، وندرة بعض الموارد الطبيعية والموارد غير قابلـة التجدد مثـل البترول ، وهذه قضايـا تجعل الجنـس البشرى غرضـا واحدًا للتهديدات المتزايدة . . ثم مثل هذه القضايـا هى فى حقيقتها ملك للأجيال القادمة لايجوز لنا نحن أبناء هذا الجيل أن نتجاهلها ، كما أن من واجبنا الحفاظ على تراث الأرض للأجيال التى تلينا . . .

ولابد لعالمنا من أن يطور مفهوم السيادة التـى نشأت أصلا لمواجهة التبعية وعدم التكافؤ بين الدول فى القوة والثروة . ولكن إذا أخذنـا بمبدأ الاعتماد المتبادل والتعاون والأمن الجماعى فإن السيادة الكاملة والتمسك بها يتعارضان وهذه الاتجاهات ، ولذلك فإن التنازل عن جزء من السيـادة الوطنيـة أو الإقليمية لصـالح السيادة العـالمية أصبـح ضمانا لمواجهـة الكوارث العالمية التى لا تميـز بين دولة وأخرى ولا بين إقليم وأخر ولا بين عقيدة و أخـرى ، فالسيادة ليست مبدأ سرمديا ميتافيزيقيا ، وعلينا أن نبحث عن بدائل أرقى للعلاقات الدولية .

ولاشك أن لوجهة النظـر هذه مبرراتها ووجاهتها ، ولكنها نظرة رومـانسية . صحيح أنها تعبر تماما عما ورد فى البيروسترويكـا من مبـادئ ، ولكنها مبادئ تـدخل فى عـالم اليوتـوبيا وتتجاهل طبيعة الأشياء وتناقضات النفـس البشرية التى خلقت معها ، فنوازع الخير والشر موجودة بين الناس بمن فيهم أصحاب القرار وتناقض المصالح لايمكن القضاء عليه الا فى ظل عـالم تزول منه الطبقيـة والتسلط . . . ثم كيـف يكون هناك اعتماد متبـادل بين الصياد والفريسة؟ أى اعتماد متبادل هذا بين الـدول الصغيرة فى الجنوب والدول الغنية فى الشمال فى ظل تبـادل خلل التـوازن بين المواد الخام رخيصة السعـر والمواد المصنعة غـالية السعـر ؟ أى اعتماد متبادل بين الدول الدائنة والدول المدينة التى تنهكها المشاكل والتهديدات ؟ الإنسان يصنـع مشاكلـه لنفسـه وبنفسـه ! ! آلاف الناس الـذيـن يموتـون جـوعـا نتيجة الجفـاف

والتضخم فى الوقت الذى يلقى فيه الفائض من الحبوب فى الدول الغنية فى البحر للمحافظة على ارتفاع سعرها ولتصبح موادا استراتيجية ونحن نتشدق بالمبادئ والشعارات . . . الدول الفقيرة وفى مواجهة ظروفها الصعبة وبحالتها المتأخرة تحاول أن تخترق حاجز الفقر دون أمل أو جدوى بعد أن أغرقتها الديون وفتتها الصراعات وأهلكتها نوازع السيطرة التى تهددها من خارج حدودها . . . ماهو الضمان فى ظل تآكل المنظمات الدولية والإقليمية وفى ظل إدارة الأزمات بواسطة الدول العظمى وليس حلها . . ؟ كيف نتحدث عن حلول للصراعات الإقليمية متناسين الحقوق التاريخية لشعوب احتلت أراضيها التى ورثتها عن الأجداد ؟

إن النظرة الرومانسية لايمكن أن تتصدى للوحوش التى تملأ الغابة التى نعيش فيها والتى يسودها قانون « البقاء للأقوى» وعلينا ألا نسير فى الغابة إلا ومعنا كلبنا الأمين . . . الذى هو قوتنا الجماعية .

وجهة نظر ثانية !!!

* * *

أما وجهة النظر الثالثة فسأنقلها عن « ياسوهيرو ناكاسونى Yasuhiro Nakasone» (٤) أهم نقاط رأيه الذى يعتمد فى كثير من جوانبه على الفكر الشرقى المستمد من تعاليم «بوذا» و«كونفوشيوس» تقول « من ينظر إلى العلاقات الدولية خلال الأربعين سنة الماضية يجد أنها عبارة عن حلقات من المواجهة والتعاون والتوتر والاسترخاء ، وعلى ذلك فإن نظرتنا إلى الفكر الجديد لجورباتشوف فى البيروسترويكا والجلاسنوست لا بد وأن تكون إيجابية وعلينا ألا ننسى أن الغرض الأساسى لهذا الفكر الجديد هو إعادة بناء الاتحاد السوفيتى كدولة اشتراكية قوية ولا يجوز أن نركن إلى وهم أن التناقضات فى العلاقات بين النظم الاشتراكية والديموقراطيات الليبرالية ، سوف تنتهى بسهولة فالمنافسة التاريخية سوف تستمر طالما ظل الخلاف الرئيسى بين النظامين قائما . . فالعقائد الاشتراكية مسموح بها فى الديموقراطيات الليبرالية بينما ترفض النظم الاشتراكية العقيدة الديمقراطية الحرة . . الأحزاب الاشتراكية تمارس حقوقها فى النظم الديمقراطية ، بينما لايمكن للأحزاب الديموقراطية أن تمارس هذه الحقوق فى النظم الاشتراكية ، علاوة على أن الديمقراطية فى النظم السياسية التى تعتنقها ليست مجرد وسيلة لتحقيق غاية ، ولكنها إحدى القيم

---

(٤) رئيس الوزراء اليابانى السابق وهى محاضرة ألقاها فى ٢١/ ٧/ ١٩٨٨ فى معهد الاقتصاد العالمى والعلاقات الدولية فى أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتى Institute of world Economy and International Relations IMEMo .

الرئيسية التى يتم تطبيقها لأغراضها السامية . . ولذلك فإن متابعة مايجرى بخصوص الإصلاحات السوفيتية التى نادى بها جورباتشوف أمر واجب . . مامدى تطبيق التعددية الاشتراكية ونتائج ذلك على حرية الفكر والعقيدة للأفراد ، أو حرية عقد الاجتماعات لذوى الأفكار المتعددة؟ ما مدى تطبيق الأفكار التى تبلورت فى المؤتمر الأخير للحزب الشيوعى عن فصل السلطات بين الحزب والسوفييتات أو اتجاهات السيطرة داخل الحزب؟ ما انعكاس ذلك على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى وعلى الأخص فى مجال تخفيض السلاح والصراعات الإقليمية والعلاقات الثنائية؟ ومن المؤمل أن تتوافق التغيرات المنتظرة مع روح القرن الواحد والعشرين» .

ويتحدث «ناكاسونى » عن احتمالات المستقبل فى العلاقة بين الغرب والشرق فيحصرها فى ثلاثة : الاحتمال الأول بقاء العلاقات على صورتها الحالية . والاحتمال الثانى هو استغلال النتائج التى تحققت وتعميقها لجنى ثمار أكثر. والاحتمال الثالث هو تخلى الكتلة الشرقية عن السياسة الستالينية وتخلى الكتلة الغربية عن سياسة الاحتواء ، وإقامة نظام عالمى قائم على التطبيع وعلى قيم ومبادئ جديدة . والاحتمال الأكثر توقعا عند « ناكاسونى» هو الاحتمال الثانى مع خلق قوة دافعة ، واستمرارية لتحقيق الاحتمال الثالث على أساس التعاون والاعتماد المتبادلين فى كل الميادين بالنسبة للجميع .

وعن تأثير البيروسترويكا على الصراعات الإقليمية يركز « ناكاسونى» بطبيعة الحال على آسيا فيرجع المشاكل القائمة للخلافات السياسية فى المنطقة أساساً ولابد من تقييم « الأفكار الجديدة» على ضوء حل مشاكل المناطق الشمالية بين اليابان والاتحاد السوفيتى وعلى استرخاء الإيقاع بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية ، وعلى القدرة على إيجاد حل سياسى للمشكلة الكمبودية .

* * *

وجهة نظر رابعة يتحدث عنها السير «ميشيل هوارد Michael Huward »[٥] «فجورباتشوف شأنه شأن الساسة العظام مثل بسمارك وروزفلت لديه بعد النظر الذى يؤمن

---

(٥) استاذ التاريخ الحديث فى جامعة أكسفورد ومدير معهد الدراسات الإستراتيجية . وقد قدم رأيه فى مؤتمر عقد بين٢٧ - ٣٠ /٩ /١٩٨٨ بعنوان « الناتو فى العقد الخامس ــ ونشر البحث فى مجلة Survival عدد نوفمبر / ديسمبر ١٩٨٨ بعنوان « تحدى جورباتشوف والدفاع عن الغرب The Gorbachev Challenge and the Defence of the west » .

بضرورة التغيير والمهارة والقدرة على استغلال ذلك فى تحقيق أغراضه7 فالساسة لايكتفون برد الفعل بالنسبة للمتغيرات، ولكن لابد وأن يكون لديهم تصور لشكل العالم الذى يريدونه ثم تحريك الأمور فى هذا الاتجاه. وبالنسبة لانعكاسات هذه المتغيرات التى ينادى بها الزعيم السوفيتى فإنها قد تضع أمامنا نماذج واحتمالات أربعة.

احتمالات المستقبل

النموذج (أ)
تحلل الاتحاد السوفيتى نتيجة لإضعاف قبضة الحزب ولرغبة الجمهوريات الإسلامية فى الاستقلال أو انتشار الحركات القومية فى أوروبا الشرقية إلى البلطيق وأوكرانيا.

النموذج (ب)
استمرار الاتحاد السوفيتى فى حالة التطور الداخلى والاسترخاء الخارجى مع تنمية اتجاه تعاونه الدولى.

النموذج (جـ)
استمرار المواجهة - تدهور الموقف الاقتصادى مع استمرار سباق التسلح، وهو الموقف الذى يريد جورباتشوف تفاديه، ولكن ربما تفقده الظروف الضاغطة القدرة على ذلك

النموذج (د)
استمرار السعى للسيطرة على العالم وهو عالم مازال يسيطر على موسكو ويشكل فى الوقت نفسه كابوسا بالنسبة للولايات المتحدة.

إن أخطر الاحتمالات هو الاحتمال (أ) إذ لايمكن تصور أن قيادة جديدة لن تنبعث للسيطرة على الموقف بالقمع الذى عرفه العالم أيام لينين وستالين، خاصة إذا حاولت الولايات المتحدة أن تستغل الموقف لصالحها كالمعتاد... إن هذا الاحتمال سيندفع بالعالم إلى موقف مواجهة خطيرة تجعل العقلاء لا يتمنون حدوثه.

أما الاحتمال (ب) فهو الأنسب بالنسبة للاتجاهات المعتدلة، ولكن يخلق مشاكل حقيقية بالنسبة للغرب! إذ يجعل استمرار السيطرة السوفيتية على شرق أوروبا أمرا مقبولا ثم ما الذى يحدث بالنسبة لحلف الأطلنطى؟ هل تبقى الحاجة إليه قائمة والاتحاد السوفيتى على هذا القدر من التعاون والصداقة؟ ألا ينظر إلى بقاء القوات الأمريكية فى أوروبا على أنه

أمر غير مرغوب فيه بل معطل لانسحاب القوات السوفيتية من شرق أوربا ؟ ألا يدفع ذلك الولايـات المتحدة لكـى تتعامـل مباشرة مـع القوة العظمـى الأخرى دون التـورط فى أوروبا ومشاكلها؟ ثـم هل يبقى فى ظل روح التعاون هـذه مانع من حصـول الاتحاد السوفيتى على مركز المشاركة فى العالم الثالث؟ وباختصار ألا يكون جورباتشوف باتباع هذا الحل قد حقق بالـوسائل السلمية مـافشل فى تحقيقـه من سبقوه بـاستخدام المواجهة والقـوة؟ لقد قلنـا له شروطنا بخصوص تخفيضه الأسلحة النووية التكتيكية مـن أوروبا ، وقلنا له اترك أفغانستان وخفض قـواتك مــن أوروبا وبضرورة التفتيش على مـواقع الصواريـخ ونفذ كـل ذلك . . ويزداد الأمر سوءا بالنسبة للغرب أن الرجل يعنـى وينفذ مايقول ، فهو متأكد أن الغرب لن يشن عليه الحرب ، ولذلك فهو يوفر من نفقات الدفاع لرفع مستوى المعيشة . . إن تخفيض القوات فى صالحه ولكـن تخفيض قوات الغرب يسبب لـدوله مشاكل لايمكـن مواجهتها ، أولها زيادة البطالة . . . ماذا نفعل مع هذا الرجل ؟

أما الاحتمال (جـ) فهـو استمرار الوضع الذى كـان سائدا قبل جورباتشـوف وهو وضع المواجهـة وسباق التسلـح والذى يحاول الـرجل أن يفلـت منـه ، ولكن قـد تستجد ظـروف ضاغطة تمنعه من ذلك . الغرب يرحب بآراء جورباتشوف فى العلن ، ولكن هل هو حقيقة يرغب فى أن يقـوم جورباتشوف بتنفيذ إصـلاحاته ؟ فاستمـرار التهديد السوفيتى يـزيد من تضامن دول حلف الأطلنطى ويخفف من نسبة البطالة ويستنزف القدرة الاقتصادية للاتحاد السوفيتـى فى سباق تسلح غير متعـادل . . . ولكن إلى جانب هـذه المزايا هناك عيـوب من استمرار وضع المواجهة بـالنسبة للغرب ، يزيد من أعبائه الاقتصاديـة نتيجة لسباق التسلح وتعميق الخلاف بين دولـه لمطالبـة الولايات المتحـدة فى إلحاح بزيادة نسبـة نفقات الـدفاع لتخفف من أعبائها الـدفاعية . وألمانيا الغربية تجد صعوبة فى استمـرار تجنيد قوة بشرية هى فى حاجة إليها لزيادة الإنتاج ثم زيادة معارضة الرأى العام .

أما الاحتمال (د) فـلا يحتاج إلى تعليق لدرجـة أن الحكومات تفضل مخاطـر الحل (جـ) ليس فقط للشكوك والمخـاوف التى يثيرها الحل (ب) ولكن من خوفهـم لتطور الموقف إلى الحل (د) . . . لأن تجارب الغـرب مع الحل (ب) تحتـاج إلى جسـارة فى مقـابلة إجـراءات جورباتشوف بإجراءات مماثلة رغما من المخاطر المحتملة على أساس اعتبار خطواته على أنها فرص لاتتاح مرة أخرى وليس على أساس أنها تحديات يجب مواجهتها بطرق أخرى .

وجهة نظر رابعة فى موضوع يثير ـ وسوف يثير ـ كثيرا من التساؤلات والاحتمالات .

بقى موضوع أخير . . ألا نحتـاج نحن العرب وسط كل هذه الفرقعـات التى تدور من حولنا إلى بيروسترويكا عربية يصحبها جلاسنوست عربى؟ أعتقد ذلك .

الفصل التاسع

الكومنولث والشرق الأوسط

عند افتتاح الرئيس جمال عبد الناصر معرض صور أقيم فى إحدى ثكنات القوات المسلحة المصرية فى ٢٧/ ٩/ ١٩٥٥ أعلن عن إتمام الصفقة المصرية ـ التشيكية لتوريد السلاح للقوات المسلحة المصرية، وبذلك كسر احتكار السلاح الذى شكل طوقا فولاذيا على الدول العربية بموجب ما كان يسمى بالاتفاق الثلاثى بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٠ وكان هذا التاريخ بداية لعلاقات طويلة بين منطقة الشرق الأوسط والاتحاد السوفيتى . . ولم تنته هذه العلاقة ـ كما يظن البعض ـ بعد قرار الرئيس محمد أنور السادات يوم ٨/ ٧/ ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفيت من القوات المسلحة المصرية، ولكن كانت النهاية عند سقوط الاتحاد السوفيتى كدولة وانفراطه إلى دول قومية شكلت إحدى عشرة جمهورية منها مايعرف الآن بالكومنولث. وكان هذا إيذانا ببدء علاقات جديدة على أسس جديدة فشكل وتركيب الدولة تغيرا كلية كما تغيرت عقيدتها وتبدلت.

كان العمود الفقرى لتلك العلاقات القديمة فى أول بدايتها وقبل أن تتطور هو نقل السلاح والتكنولوجيا إذ كانت حاجة المنطقة إلى السلاح ـ تحت التهديد الإسرائيلى المتصاعد هى السبب الرئيسى لبدء هذه العلاقات لأن تجارة السلاح خاصة فى الخمسينيات وقت بداية العلاقات شكلت أداة حاسمة فى ممارسة السياسة الدولية وعن طريقها تكونت وسقطت أنظمة باستخدام القوة، وعن طريقها كان يمكن إعادة تشكيل السياستين الخارجية والداخلية للدول وتوجيههما وجهات معينة ، ولذلك كان نقل السلاح وقتئذ من الدول المركزية إلى الدول الهامشية سياسة أكثر منه تجارة إذ كان يمكن لدول المركز صانعة السلاح التحكم فى الدول الهامشية مستوردة السلاح عن طريق المنع والمنح الذى يشكل موازين القوى بطريقة مفروضة، سواء بالتلاعب فى حجم السلاح أو نوعه .

أما الآن فقد تغير « اللاعب» وتغيرت قواعد « اللعبة» لأن المصالح تغيرت

والسياسة لاتعترف بعداوة أو صداقة ولكن أساسها المصلحة ، فمصالح الاتحاد السوفيتى فى الوجود فى المياه الدافئة والتمركز فى قواعد خارج حدوده ومساعدة الحركات الثورية تختلف تماما عن المصالح الحيوية للكومنولث الجديد أو على الأقل فى أسبقيات هذه المصالح إن أردنا الدقة . فاستراتيجية تتبع حتى منتصف الثمانينات لمواجهة الولايات المتحدة والكتلة الغربية فى صراع موت أوحياة تختلف بالقطع عن إستراتيجية تتبع فى التسعينات أمام عدو أصبح صديقا « تقريبا» وبعد أن تحول الوفاق الدولى Detente إلى اتفاق دولى Entente فرسم أى سياسة يعتمد أولا وأخيرا على من هو العدو ومن هو الصديق؟

والتحدث عن الاستراتيجية الجديدة للكومنولث إزاء منطقتنا شىء ضرورى ويجب وضعه فى أسبقية عالية من تفكيرنا وتخطيطنا ، أو هكذا أظن ، ولكن الصعوبة الحقيقية عند الخوض فى هذا الموضوع هو أن الكومنولث فى حالة « سيولة » قابلة للتغيير، فهكذا يكون الحال عند إعادة تركيب الدولة الجديدة على أنقاض الدولة التى سقطت وتفككت ويزداد الأمر صعوبة حينما تجد أن الطرف الآخر للعلاقة ــ وهو الشرق الأوسط ـ فى حالة « سيولة وميوعة» تحتم إعادة تشكيل العلاقات الأفقية والرأسية فى صورة جديدة ، فالأوراق مختلطة إلى حد كبير والمسرح غامض فيه تحركات سريعة ، ولأنها سوف تتبلور فى النهاية فى خريطة علاقات جديدة ، ربما فى القريب ، وربما فى البعيد إذ يتوقف ذلك على قدرة اللاعبين على السيطرة على الأمور .

وهكذا فمن الصعب حقيقة تحديد نوع العلاقات بين طرفين على هذه الحالة من «السيولة» المطلقة أمامهما من المشاكل المعقدة مايفتح المجال لاحتمالات كثيرة يمكن أن تتم بالاتفاق ويمكن أن تتم باستخدام القوة ، ولذلك فالتعميم ـ Generalisation أمر مستحيل . ويمكن الجزم بأن مخططى السياسة فى الكومنولث الجديد لم يتفقوا بعد على الخطوط العريضة لهذه الإستراتيجية على وجه الدقة . وبهذه المناسبة فلا أحد يعرف على وجه اليقين المسئول عن هذا التخطيط الإستراتيجي ولا نظنه « كوزيريف» وزير الخارجية الروسية لأنه لم يكن على قائمة المسئولين الكبار عن اتخاذ القرار إلى وقت قريب إذ إن أكبر سلم صعد إليه قبل أن يوضع فى منصبه الأخير هو كونه أحد مندوبى الوفد السوفيتى فى هيئة الأمم ، فكان تعيينه ضربة من ضربات القدر تحدث كثيرا فى فترات الانتقال حينما تسبق السرعة فى الاختيار التريث الواجب فى الانتقاء .

والتحدى الحقيقى إذن للكومنولث الجديد كلاعب يدخل إلى الملعب فى ظروف جديدة

هو رسم الخطـة التى سوف يمارس على أساسها اللعبـة فى مواجهة ـ أو مع ــ لاعبين آخرين ولا نظـن أنه سيمارس اللعبـة الآن على أساس جيـوبوليتيكـى ، كما كان الحال أيـام الاتحاد السوفيتـى ، ولكن سوف يكـون تخطيطه الحالى على أساس أسبقيتين : الأسبقيـة الأولى هى تلاحم الجبهـة الداخلية لبناء علاقات جـديدة متينة بين جمهوريات الكومنـولث توازن بين السلطة المركـزية اللازمـة لمنع احتمال التفكك، وبين السلطة القطـرية للجمهوريـات التى تريد أن تتنـازل عن جزء من إرادتها حتى ولو كـان ذلك من أجل البقاء داخل الكـومنولث الجديد، والأسبقية الثـانية لابد وأن تكون التغلـب على الوضع الاقتصادى الصعـب الذى ترتب على تفكك الاتحاد القديم، فالبناء السياسى لايمكن أن يتدعم فى ظل البطون الجائعة والخزائن الخاويـة ، وكلتا الاسبقيتين المتمثلتين فى تـدعيم الجبهـة الداخلـة ومحاولة التنميـة الاقتصـادية لاتترك مجالا للكـومنـولث لكـى يقتحـم المجال الجيـوبـوليتيكى لفترة ليسـت بالقصيرة .

ومعنى ذلـك أن الكومنولث سيمـر بفترة انتقال خطيرة قد تستمـر خمس سنوات، وربما تطول حتى نهاية هذا القرن، اختل فيها التوازن الدولى الـذى كان يعتمد على الردع المتبادل اختلالا خطيرا اتخذ شكلا مختلفـا تمام الاختلاف، أجبر الدول الإقليمية التى كـانت تعتمد على الاتحاد السوفيتى القديـم على أن تهرول للاحتماء بالدولة المتفردة المتحكمـة فى نظام جارٍ تشكيله .

وكما أن الرأى العـام الأمريكى منقسـم بين آراء تنادى بالعزلـة وآراء أخرى تنادى بـرفع العلم لقيادة العالم الجديد بعد هزيمة الشيوعية، فإن الرأى العام فى دول الكومنولث منقسم بين المتشددين من دعاة تكوين الإمبراطورية حتى بعد تراجع الحدود إلى ماكانت عليه روسيا قبـل الحرب العالميـة الثانيـة ، وبين دعاة « البيـت الأوروبـى » الذيـن يدعـون إلى الاقتراب والاندماج فى أوروبا الغربية، ثم أخيرا بين دعاة الـوسطية التى تعنى اتخاذ موقف وسط يمد إحدى ذراعيه إلى أوروبا ، ويمد ذراعه الأخرى إلى الشرق .

وتحديد الاتجاه المستقبلى ليس سهلا ولا هو يعتمد على الرغبة الذاتية إذ إن ظروفا داخلية وأخرى خارجيـة سوف تتفاعل لتحديـد الاتجاه المنشود خلال الفترة الانتقاليـة التى يمر بها الكومنولث .

فمن ناحيـة الظروف الداخلية فالسـؤال الكبير هو مدى قدرة الكومنـولث على البقاء ، وهل ستنجح الجمهوريات فى بناء سلطة سياسية تقوى الرابطة بين الجمهوريات وتحول دون التفكك؟ هناك خـلافات شديدة بين الجمهـوريات ، وإن كانت تتفـق جميعا فى رفض أن

تكون روسيا الاتحادية هى الوريث الشرعى للاتحاد السوفيتى القديم وسط شكوك عميقة فى قدرة يلتسين . . الذى يفرط فى الشراب على توجيه الأمور الوجهة السليمة ، ثم هناك الخلاف على السيطرة على القوة الفورية الإستراتيجية والصواريخ البلاستية عابرة القارات مع الرفض القاطع لأوكرانيا وأذربيجان مثلا على سيطرة روسيا الاتحادية على الشفرات الخاصة بإطلاق الأسلحة النووية التى تنتشر فى روسيا الاتحادية وروسيا البيضاء وكازاخستان وأوكرانيا . والخلاف على الأسحلة النووية التكتيكية ليس بأقل من الخلاف على الأسلحة الإستراتيجية ، وفى الوقت نفسه فإن السيطرة على الأولى أصعب من الثانية لانتشارها فى كل جمهوريات الكومنولث ، وترفض بعض الجمهوريات مثل كازاخستان نقل كل الأسلحة النووية التكتيكية إلى أراضى جمهورية روسيا الاتحادية وحدها مع الأخذ فى الاعتبار أن الأسلحة النووية التكتيكية تشمل قذائف مدفعية وقنابل تلقيها قاذفات القنابل ثم هناك الصواريخ قصيرة المدى والألغام النووية . ولا يقف الخلاف عند هذا الحد ، فالدولة (أى الاتحاد السوفيتى) سقطت وبقى الجيش الاتحادى مترابطا حتى الآن بترسانتيه النووية والتقليدية ، وهذا وضع فريد لم يحدث من قبل ، فالدول تسقط وتتفتت إذا تفتتت أو ضعفت جيوشها ، ولكن أن يبقى الجيش أو القوة العسكرية وتزول الدولة التى أنشىء الجيش لحمايتها ، فهذا هو الغريب وغير المعقول وبمن يأتمر هذا الجيش؟ ماهى القيادة السياسية التى تتحكم فيه وتصدر إليه الأوامر؟ والمفروض أن القيادة العسكرية تأتمر بأوامر القيادة السياسية فهى السلطة الآمرة المتحكمة ، ولكن الوضع القائم يجعل الأمر معكوسا؟ فهل سيبقى الجيش الذى أساسه التجنيد الإجبارى بأعداده الضخمة قائما موحدا؟ أم إنه سيبقى موحدا مع اتجاهه إلى التطوع الذى يؤدى إلى جيش محترف أقل عددًا؟ أم إن الجمهوريات ستطالب وتبنى جيوشا مستقلة خاصة بها؟ أوكرانيا ومولدافيا وأذربيجان تريد إقامة جيش خاص بها وروسيا الاتحادية أبلغت واشنطن أنها ستبنى جيشها المستقل . فهل هذا إيذان بالانتقال من جيش يخضع لقيادة واحدة موحدة إلى جيوش تخضع لقيادة مشتركة ، كما كان الحال فى قيادة حلف وارسو المنحل أو حلف الأطلنطى القائم ؟

ثم هناك الخلاف المحتدم على أسطول البحر الأسود ، فبينما تصر روسيا الاتحادية على بقاء الأسطول تحت سيطرتها تصر أوكرانيا على الاحتفاظ بقطع بحرية تكفى لانتشار أسطول خاص بها ، وقامت روسيا بنقل أكبر حاملة طائرات من البحر الأسود إلى مونمارسك .

لعل ماذكرنا يعطى صورة تقرب إلى الأذهان الأعاصير التى تهب على الكومنولث من داخله ، وتجعل الموقف يتميز « بالسيولة اللزجة » التى يمكن أن تحول دون التطلعات الخارجية لوقت غير محدد .

أما عن الظروف الخارجية التى تحول دون الكومنولث ورسمه لسياسة خارجية ثابتة إزاء منطقة الشرق الأوسط فأولها يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية واتجاهها المستقبلى . فهل ستتجه أمريكا إلى نظام أمن جماعى للعالم فى ظل النظام العالمى المقبل؟ هل ستتجه إلى الهيمنة لفرض السلام الأمريكى ؟ أم إن إستراتيجية توازن القوى هى التى ستتحكم فى الاتجاه الجديد بقواعد مختلفة وأطراف متغيرة؟

وكذلك الحال فى أوروبا واتجاهاتها المستقبلية . . كان ويلى برانت مستشار ألمانيا الاتحادية فى أواخر السبعينات ينادى باستراتيجية «الأوست بوليتيك» أى « سياسة الاتجاه نحو الشرق ، وهناك الآن اتجاه فى دول الكومنولث للاتجاه نحو الغرب ، فهل المجموعة الأوربية بأعضائها الاثنى عشر ستتجه إلى توسيع العضوية فتشمل دول أوروبا لمنطقة التجارة الحرة الستة European Free Trade Area -Efta (النمسا ـ السويد ـ فنلندا ـ النرويج ـ ايسلندا ـ سويسرا) لتكوين السوق الأوروبية المشتركة عام ١٩٩٣؟! علما بأن منطقة التجارة الحرة عرضت على كل من بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا عضوية دائمة لتكوين السوق الواحدة؟ ويتوقع الخبراء أنه بنهاية هذا القرن فإن المجموعة الأوروبية European Community - EC سوف تتكون من ٢٥ عضوا من الدول الأوروبية . ولن يقتصر هذا التحول فى أوروبا . على الأمور الاقتصادية ، ولكنه سوف يشمل فى الوقت نفسه الأمور المتعلقة بالسياسة والأمن .

فأين الكومنولث مما يجرى فى البيت الأوروبى من تحولات وتغيرات لايمكن الوقوف على أبعادها ، فألمانيا على سبيل المثال قد توحدت فى غمضة عين وبرضاء المعسكرين حينما لم يكن أحد يتوقع ذلك إلا ربما بعد أجيال قادمة وأين الكومنولث أيضا . مما يجرى فى الشرق الأقصى بعملاقيه اليابان والصين ونموره الأربعة؟ وأين الكومنولث مما يجرى فى الشرق الأوسط وبه مشاكل وصراعات لايعلم إلا الله كيف تنتهى .

الطرف الآخر فى العلاقات مع الكومنولث وهو الشرق الأوسط غارق فى المشاكل والصراعات ، فهل ينتهى الصراع العربى الإسرائيلى إلى سلام يبنى على توازن المصالح ولا يبنى على توازن القوى؟ هل ستصل الأطراف إلى الاتفاقيات العاقلة التى يمكن أن تفتح المجال إلى سلام حقيقى ، أم سيكون التوقيع على اتفاقيات رديئة لايكتب لها الدوام؟ والسلام فى المنطقة له مشاكله وحالة اللاسلم واللاحرب الموجودة لها مشاكلها . . . هذا سبب ميوعته وسيولته . ثم الجمهوريات الإسلامية الست فى جنوب الاتحاد السوفيتى القديم وهى أذربيجان وأوزبكستان وكازاخستان وتركماستان وطاجكستان وقرقيزيا هل

ستتجـه إلى الشمال مرة أخـرى ؟وهـذا أمـر غير معقول ، أم ستتجـه إلى الجنـوب؟ ولمن فى الجنوب؟ هل لإيران أم لتركيا أم للدول العربية الأخرى؟ هل مجرد وحدة الدين تشكل عامل جذب ودعـامة قوية لعـلاقات متينة؟ ثم الموقـف فى الخليج الذى يبدو سطحـه هادئا لمن لايعرف تقلب سياسة المنطقة وهو فى الحقيقة لايبشر بالاستقرار، خاصة وسط غياب الرؤية الحكيمة من أغلب أصحاب القرار .

العلاقات بين الطرفين المعنيين سوف تتخذ اتجاها يتسم بالآتى :

- تحقيق أغراض محدودة ضمن خطط قصيرة المدى قابلة للتغيير.
- لن تكـون للعوامل الجيوبـوليتكية أسبقية فى العـلاقات، ولكن ربما تكون للعـلاقات التجارية ـ وليس الاقتصادية ـ أسبقية خاصة .
- العلاقات بين الطرفين لـن تكون إلا على أساس علاقة دولة بـدولة وليس على أساس مجموعة مع منطقة .
- النفوذ السيـاسى للكـومنولـث محدود ولوقـت غير قصير فى رسم خـريطة العـلاقات بالمنطقة .

وكما نرى فـالصورة مهزوزة لأنها تحاول أن تلتقط أو تصـور مستقبل علاقـات بين طرفين تتميز أوضاعهما بـالسيولة التى يسهـل إعادة تشكيلها تحت ضغوط متغيرة ، ممـا يحتم وضع الخطط التبادلية لمواجهة احتمالات لايمكن التكهن بها بصفة قاطعة .

الباب الرابع

نحن والولايات المتحدة وأوروبا

الفصل العاشر: هيئة الأمم المتحدة تصبح مؤسسة عسكرية .

الفصل الحادى عشر : السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط الملتهب

الفصل الثانى عشر : العالم الإسلامى من خلال منظار أمريكى .

الفصل الثالث عشر : أزمة هاييتى ومبدأ مونرو

الفصل الرابع عشر : البيت الأوروبى .

الفصل الخامس عشر : العلاقات العربية مع الجماعة الأوربية .

الفصل السادس عشر : الحوار بين الشمال والجنوب .

الفصل العاشـر

هيئة الأمم المتحدة تصبح مؤسسة عسكرية عالمية

المفهوم السائد هو أن المؤسسـات الدولية ، هى مؤسسات غير محاربـة تحاول بناء السلام بالعمـل فى المجالات المختلفة . وقـد اتفق العالم على إقامـة عصبة الأمم بعـد انتهاء الحرب العالمية الأولى لإقـامة سلام دائم يجعل الحرب التى انتهت واكتـوى بها العالم آخر الحروب ، ولكن سرعان ماطغـت الأطماع الدولية للمنتصرين على كل المبادئ التـى كانت تتردد وقتئذ وأنهمك الكبار فى توزيع الأسلاب والأنصبة ، وفرض أشد أنواع الضغوط على بعض الدول تحت شعار « ويل للمغلوب » .

ولم يمض ربع قـرن على نهاية الحرب الأولى وبعد أن ساد مبدأ المجـال الحيوى والسيطرة على منابع المواد الخام والأسـواق وجد العالم نفسه وهو يخوض حـربا تقليدية قـاسية انتهت لتعيش الدول فى رعب متبادل تحت مظلة الرعـب النووى ، وأقام الكبار هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى لإقامة العدالة الدولية ، وللحيلولة دون حل النزاعين الدولى والإقليمى بـاستخـدام القـوات المسلحـة ، ولكـن ثـنـائيـة القطبيـة على المستـوى العـالمى ومحاولات الاستقطـاب على المستويـات الإقليميـة بين القـوتين العظميين ، والقوانين السـائدة لنقـل السـلاح والتكنولـوجيا مـن المركز إلى الـدول الهامشيـة كان لها تـأثيرها السلبـى على فعاليـة المنظمات الدولية ، إذ شعرت الولايات المتحدة الأمـريكية بأن إعطاء هذه المنظمات فعاليات حقيقيـة ليس فى صـالحها فى معـركة الاستقطـاب الـدائرة لكثرة الـدول التى حصلـت على استقلالها وسـارعت لـلانضمام إلى الهيئات الدوليـة ولو كشعار وإعـلان عن كيـانها الجديد وسيادتها المكتسبة ، ولذلك عملت الولايـات المتحدة على شل المنظمات الدولية ومنع تنفيذ قراراتها من جـانب ونقل حل المشاكـل الإقليمية والعالمية خارج هـذه المنظمات بمفاوضات ثنائية ومتعددة لاتنتهـى إلى شىء محدد . من جانب آخر سادت نظـرية إدارة الأزمات بدلا من حلها ، وكذلـك نظرية الترابط Linkage بمحاولة إدارة الأزمات فى منطقـة ما فى العالم ومحاولة حل مشـاكل أخرى ذات أهمية خاصة فى أنحـاء أخرى من العالم عن طريـق الربط بينها .

ولكـن بعد انتهـاء الحرب الباردة بسقـوط الاتحاد السوفيتـى كدولـة وهزيمـة الشيوعيـة كعقيدة ، حدث تطـور هام فى النظام العالمى فى نـواح متعددة سنركز فيهـا على دورى هيئة الأمم المتحـدة ومجلس الأمـن . فبعد انتهـاء مرحلـة خوف الـولايات المتحـدة من المنـافسة السوفيتية فى المنظمة الـدولية اتجهت اتجاها جديدا يحقق لها مصالحهـا فقد رأت إعطاء هذه المنظمة قوة فى ممارسة مسئـولياتها المنصوص عليها فى مواثيق إنشائها بـاسم الشرعية الدولية بشرط أن تتحكم هى فى هـذه الشرعية بطريقة انتقـائية تحقق لها مصالحهـا الخاصة وأعطت لنفسها الحق فى تفسير العدوان والإرهاب واختيار المعتدين مـن وجهة نظرها ، فما يراه العالم اعتداء يمكن أن تراه الولايات المتحدة ردا للعدوان ، وهكذا دواليك ورأت علاوة على ذلك عقد اجتماع يحضره رؤساء الدول الأعضاء فى مجلس الأمن لتعزيز دور المنظمة الدولية وزيادة مسئوليات واختصاصـات السكرتير العام للأمم المتحدة الدكتـور بطرس غالى وكلفه المؤتمر بتقديم اقتراحاته لتنفيذ ذلك .

وفى تصريحات متصلة الغـرض منها الوقوف على رد فعـل الرأى العام ـ أعلـن السكرتير العام الجديد عن بعـض إقتراحاته التى كانت محل اهتمام المتخصصين ولاشـك ، وكان من ضمن هـذه التصريحات اقتراحان أثـارا اهتمامى بحـق : الاقتراح الأول ينادى بـإنشاء قـوة مسلحة دوليـة دائمة تحت تصرف السكرتير العـام تمكنه أن يتـدخل بها فى مواقـع الأحداث لتفادى الإجـراءات المطولـة الحالية لموافقـة مجلس الأمـن على إرسال قـوات دولية أو قـوات متعددة الجنسيات إلى النقـاط الساخنة . . والاقتراح الثانى هو أن يكـون تحت تصرفه جهاز استخبارات يمكن للدول الأعضـاء بمجلس الأمن تغذيته بالمعلومات عـن النقاط السـاخنة المحتملة حتى يمكنه منع الانفجار قبل حدوثه . ولاستكمال تقييم الاقتراحين يجب وضعهما فى الإطار الآتى :

- وجود القوات الدولية التى تتبع السكرتير العـام للأمم المتحدة فى أماكن كثيرة فى العالم خاصة الشرق الأوسط وأوربا الآن بعد تفجر الصراعات الإثنية هناك فى الفترة الأخيرة .
- أطقـم دوليـة ذات طبيعة فنية لتدمير الترسـانة العراقيـة ، خاصة الترسانتين النـووية ، والكيماوية والأسلحة الأخرى طويلة المدى كالصواريخ .
- أطقـم لترسيم الحدود بين الكويت والعراق مثلا لتنفيذ القرارات الدولية .

ومعنى ذلك فإنه لو سارت الأمور فى هذا الاتجاه فى ظل تصاعد المشاكل الإقليمية وليس انحسارها ، فإننا لن نفاجأ بأنـه وقبل انتهاء الفترة الأولى للدكتور بطرس غالى كسكرتير عام للأمم المتحـدة بأنه سيضطر لارتداء الـزى العسكرى ويضع على كتفيه رتبة عسكـرية تليق بقيادة قـوات عالمية على هـذا المستوى الخطير، ويصبح لـه هيئة أركان حـرب مشتركة ذات

فعاليات كبيرة تضع الخطط وتنفذها ، وبذلك يكون السكرتير العام قد دخل من باب هيئة الأمم وهو رجل سياسى فذ ويخرج منه بعد الفترة الأولى - إذ أعلن أنه لن يرشح نفسه لفترة ثانية - وهو جنرال أو فيلد ماريشال !! وإذا قيل إنه يوجد فى تنظيم هيئة الأمم الحالى هيئة أركان حرب غير فعالة حتى الآن وإنه يمكن تقويتها لتتولى القيادة ، فهذا قول مردود عليه بأن التصور فى استخدامها عند وضع الميثاق يختلف عنه الآن بعد أن تغيرت الظروف والأحوال . وأصبح من غير المتصور أن ترى السكرتير العام وهو جالس فى مركز قيادته ليتصل بقواته عن طريق الأجهزة الالكترونية والأقمار الصناعية يتلقى منها تقارير عما يحدث فى مسرح العمليات ويصدر لها أوامره وقراراته للتحرك حسب تغير الظروف والأحوال . ويبدو أن السكرتير العام للأمم المتحدة أو مستشاريه الذين يساعدونه فى الوصول إلى هذه الاقتراحات قد تأثروا بما كتبه السير بريان أركهارت Sir Berian Arquhart فى كتيب أصدره مركز الدراسات الاستراتيجية بلندن رقم ٢٦٥ فى شتاء ٩١/ ١٩٩٢ Adelphi Pa-per - 265 تحت عنوان الأبعاد الجديدة للأمن العالمى New Dimensions in Jnternational Secarity إذ ورد فى المقال الهام نص اقتراحات السكرتير العام ، وأضاف إليها الكاتب أنه بانتهاء الحرب الباردة أصبح واجبا إحياء دور مجلس الأمن وتدعيم اختصاصات السكرتير العام وشرح وجهة نظره فيما أسماه الإجراءات الوقائية لتفادى الأحداث قبل وقوعها بالعمل على جمع المعلومات وتحليلها ونشر القوات فى النقاط الساخنة قبل اشتعالها ، فواجب مجلس الأمن من وجهة نظره ليس الحفاظ على السلام فحسب ، ولكن عمل أو بناء السلام أيضا بإجراءات غير تقليدية لم يجر العمل بها من قبل .

وقد انطلق السكرتير العام عندما اقترح ما اقترح من مفهوم جديد ولاشك يهتم بعملية بناء السلام ، وكذلك بمنع العدوان قبل حدوثه أو على الإقل الوجود فى النقط الساخنة بعد تفجرها بوقت قصير لمنع انتشار النيران وتطويقها ، وهو غرض موضوعى ولكن الوسائل المقترحة لا تتناسب أبدا مع الغرض المحدد . فبناء السلام لا يتم بخلق قوى عسكرية دولية تضاف إلى القوات العسكرية الموجودة فى أنحاء العالم ، ولكن هذا الغرض النبيل الذى تسعى الإنسانية إلى تحقيقه يمكن أن ينفذ بوسائل أخرى فى ضوء إطار إستراتيجى هو محاولة التفاهم علي إزالة أسباب الصراعات وتفجر المواقف وانتشار النقاط الساخنة بدلا من السماح باستمرار هذه الأسباب ، ثم محاولة إطفائها عند الانفجار أى على مبدأ « الوقاية خير من العلاج » .

فعلى الأسرة الدولية أن تتفق أولا على احترام مؤسساتها بتنفيذ قراراتها تنفيذا صارما وعلى الجميع ، فلا يجوز أبدًا أن تطبق الشرعية الدولية بطريقة انتقائية أو أن تدار المنظمات الدولية بطريقة انفرادية ، وإلا أصبحت فى خدمة مصالح الدولة الكبرى ، وهى الولايات المتحدة

الأمريكية ، فلا يعقل أبدا أن يضرب العراق لفعلته الشنعاء ولعدم احترامه القانون الدولى ، أو القرارات الشرعية الدولية وتترك إسرائيل ذات التاريخ الطويل فى عدم احترام القرارات الدولية آخذة بمبدأ « نفذ أولا وضع الجميع أمام الأمر الواقع ثم يأتى دور الرأى العام والقانون الدولى اللذين يعترفان دائما بالأمر الواقع فالفرض لايمكن أن يتحقق إلا بالقوة» .
وعلى رأى إيجال ألون فإن « أمن إسرائيل لايتحقق إلا بالأوضاع على الأرض مثل القنوات ـ ويقصد قناة السويس ـ والأنهار ـ ويقصد نهر الأردن وأنهار جنوب لبنان ـ والجبال ـ ويقصد الجولان وجبل الشيخ ـ ويأتى بعد ذلك دور القوات الدولية أو القوات متعددة الجنسيات» ونحن نتساءل : هل لو وضعت القوات التى طلبها السكرتير العام للأمم المتحدة فى اقتراحاته تحت قيادته فعلا هل يستخدمها لإجبار إسرائيل على التخلى عن الأرض التى احتلتها وترفض إعادتها تنفيذا لقرارات الأمم المتحدة؟ هونفسه أجاب عن ذلك بالنفى ففى رأيه أن القرارين ٢٤٢ ، ٣٣٨ لم يشيرا إلى الباب السابع من الميثاق الذى يسمح باستخدام القوة لتنفيذ القرارات !!!

وعلى الأسرة الدولية العمل على حل الأزمات على أساس توازن المصالح ، وليس إدارتها على أساس توازن القوى ، فمادام النظام الدولى يسمح بالإبقاء على الفتائل فى القنابل فإن الصراعات والصدامات سوف تستمر ، وعلينا أن نتخيل منطقتنا وقد نزعت الفتائل منها وعمل الجميع على رفع مستوى معيشة الشعوب ، ووضع الخطط للتعاون المتبادل لاستخدام الامكانيات المتاحة . أظن لو تم ذلك لخفضنا الأعباء العسكرية التى ينوء بها السكرتير العام للأمم المتحدة لأنه مهما حاول لإنشاء قوات دولية ، فإنها سوف تعجز عن منع الاصطدام المباشر فقد بدأت حرب ١٩٦٧ فى سيناء فى ظل وجود القوات الدولية وكذلك حرب ١٩٧٣ .

ثم بماذا يتقاتل الأطراف؟ وبماذا يتصارعون؟ طبعا بالأسلحة على اختلاف أنواعها والأسلحة تنقل من الدول المركزية إلى الدول الهامشية تبعا لقوانين تبنى موازين القوى الإقليمية بما يخدم مصالح الدول صانعة السلاح . فبعد حرب عاصفة الصحراء ما زالت الأسلحة تصب فى المنطقة بصورة لم تشهدها من قبل حتى فى ظل مبادرات الرئيس بوش للحد من نقل السلاح . والولايات المتحدة كما ورد فى مجلة النيوزويك الأمريكية فى عددها بتاريخ ٢٢/٦/ ١٩٩٢ هى أكبر مورد للسلاح فى المنطقة ، وبالرغم من أن جورج بوش ينادى باستثناء منطقة الشرق الأوسط فى إطار نظامه العالمى الجديد إلا أن الذى يحدث هو عمليات مستمرة لإعادة تسليح المنطقة ، وقد صدرت واشنطن بها قيمتة ١٣ بليون دولار من الأسلحة إلى دول المنطقة عقب انتهاء حرب الخليج ، وبذلك تصدرت الدول المصدرة للسلاح إلى المنطقة . » وإذا منعنا وسائل القتال عن النقاط الساخنة فإنها سوف تبرد من

تلقاء نفسها ولايحتاج الأمر حينئذ أن يخلع السكرتير العام لباسه المدنى ليرتدى البزة العسكرية ويضع على كتفيه أعلى الرتب، وعلى صدره أكبر النياشين .

وأخيرا فإذا نجحت الأسرة الدولية فى تحقيق العدالة بين الشمال والجنوب ، وبين الشرق والغرب ، وسد الفجوات الموجودة نتيجة لاختلال العلاقات فى المجالات الاقتصادية والثقافية وفى مجال المحافظة على البيئة لساعدنا على فرض الاستقرار العالمى ، والاتجاه نحو السلام .

إذا استمرت الاقتراحات فى الاتجاه الخطير الذى نقرؤه بين وقت وآخر فإن هيئة الأمم سوف تجد نفسها وقد اتجهت إلى العسكرة militarization وإذا استمر الدكتور بطرس غالى فى التحدث هكذا فى المشاكل السياسية الدولية عن طريق الفنون العسكرية والمخابراتية فإنه سوف يصبح كقادتنا العسكريين الذين هزمونا دائما أمام إسرائيل حينما يتحدثون فى الأمور السياسة ولايفسرون لنا كيف قاموا بواجباتهم العسكرية بعد أن أصبحوا يواجهون الذئب ولايفصل بينهما إلا خطوات .

ولكن ما العمل حقيقة فى عالم لايمكن أن تفرض فيه احترام القوانين إلا باستخدام القوة؟ فالتحرك السياسى حتى ولو قامت به هيئة الأمم المتحدة لابد وأن يكون له أنياب وحتى هذا لم يعد كافيا فى مواجهة الأزمات الحالية لأن بعضها تصبح عصية على أنياب القوة الدولية فتكسرها أحيانا ، وتخلعها أحيانا أخرى .

والأمر بهذه الصورة يحتاج إلى مبادرات فى المديين القصير والطويل الأولى لمواجهة الأزمات الحالية تستخدم فيها القوة أحيانا ، والأخرى لمنع وجود هذه الأزمات وتطويقها باستخدام الاقتصاد والعلم .

وهذا حلم من الأحلام لأنه لو حدث يصبح معجزة فى ظل هذا النظام العالمى المراوغ .

الفصل الحادى عشر

السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط الملتهب

ما من منطقة فى العالم تفوق منطقة الشرق الأوسط فى عدد بؤرها الساخنة الملتهبة، والتى تكاد تشبه منطقة آبار النفط الكويتية التى أشعلها الرئيس صدام حسين قبل انسحابه من الكويت والتى أطفئت بعد جهود ضخمة لم تخفف من حجم المأساة . . . ! ! ولكن إذا كانت الجهود قد نجحت فى إطفاء الآبار فإن إطفاء البؤرات المشتعلة فى الشرق الأوسط ربما لن يتم إلا بعد أجيال وأجيال لأن أسباب الاشتعال متعددة ومتشابكة ومتجذرة . . ولذلك فالمنطقة - فى رأينا - ستظل كالجمرة « تلسع وتحرق » من يتدخل فيها .

والشرق الأوسط ــ شأنه شأن باقى أجزاء العالم الثالث - يمثل كابوسا مخيفا للرؤساء الأمريكيين، ولذلك فقلما يتعرض مرشح الرئاسة الحصيف إلى هذا العالم الرمادى فى حملته الانتخابية وإلا سيسقط كما حصل للقس «جيسى جاكسون» عام ١٩٨٨، ولكن وللمفارقة الغريبة ، فإن أى رئيس بعد أن يجلس فى مكتبه البيضاوى فى البيت الأبيض يجد ملفات هذه المناطق الساخنة تقفز أمامه رغما عن أنه حاول جهده الإعراض عن مواجهتها من قبل، بل ويجد أن مستقبله السياسى يتوقف إلى حد كبير على نجاحه أو فشله فى إدارة أزمات الشرق الأوسط الثقيلة ، التى تشبه « البكرة» التى تعقدت خيوطها لدرجة يتعذر فكها . . وفى كثير من الأحيان يجد الرئيس الأمريكى نفسه وقد زج بلاده فى مواقف باعثة على الإذلال، فالرئيس جيمى كارتر ذو الابتسامة التى تشبه ابتسامة «الحوت» وجد نفسه كسير الجناح فى طهران، وهو يحاول إنقاذ الرهائن المحتجزين بعد ثورة الخومينى، وكانت النتيجة موت ثمانية من المجندين الأمريكيين واستقالة وزير الخارجية وخرج جيمى كارتر من البيت الأبيض . وفوق كل ذلك إذلال دولى للولايات المتحدة الأمريكية أقوى دولة نووية فى الكوكب الذى نعيش فيه، ثم جاء ريجان ليعلن على الملأ بصفته شرطى العالم أو قائد قوات المطافئ العالمية» بأن وجود جنود البحرية الأمريكية فى لبنان يحقق المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن سرعان ما وجد نفسه مضطرا إلى سحب هؤلاء

الجنود بعد هجوم فدائى واحد بسيارة ملغومة على معسكر جنود البحرية فى بيروت . ولذلك فإن معارك «ووترلو» الخاصة بالرؤساء الأمريكيين تجرى دائما فى مسارح العالم الثالث بوجه عام، وفى مسارح الشرق الأوسط بوجه خاص .

ولكن علينا أن نتذكر دائما أن الولايات المتحدة الأمريكية هى صانعة «عقد ومشاكل» المنطقة، والمفروض أن تكون قادرة على حلها وهذا يطرح سؤالا خبيثا . هل هى راغبة حقيقة فى حل المشاكل التى صنعتها طالما توفرت لديها القدرة ؟ أم إنها تفتقر إلى القدرة التى تحقق لها الرغبة ؟ أم أنها تفتقر إلى القدرة والرغبة معا ؟

وإذا جازفنا وحاولنا أن نجيب على الأسئلة الصعبة فعلينا أن نرجع إلى الماضى القريب جدًا حينما رفعت علم السلام فى عملية درع / عاصفة الصحراء، وتزعمت العالم وأصدرت القرارات فى مجلس الأمن وفرضت الشرعية الدولية باستخدام أرفع درجات التكنولوجيا .

يعنى كانت الولايات المتحدة في هذا الإجراء غير المسبوق راغبة وقادرة .

ولكن ويا للعجب ! ! ! نجد أن الولايات المتحدة فى تعاملها مع التعنت الإسرائيلى لا ترفع العلم الذى سبق أن رفعته أمام عدوان العراق بل ونجدها تتصف بالحلم والتأنى . . . حتى كلمة عنيفة واحدة تبدر منها ضد «الولد الشقى» ! فهل لديها القدرة على فرض الشرعية الدولية على إسرائيل ؟ بالقطع نعم . هل لديها الرغبة ؟ هى تقول نعم وعلينا أن ننتظر ما تجيب عنه الأيام . . .

* * *

ومنطقتنا الملتهبة هذه حيوية بالنسبة للعالم الغربى والولايات المتحدة، ولا نريد أن نكرر هنا ما هو معروف عن دوافع أهمية المنطقة سواء من النواحى الجيوبوليتيكية أوالإستراتيجية أو الاقتصادية . كل ما يهمنا أن نركز على نقطتين هامتين : فقول البعض إن الولايات المتحدة تفتقر إلى إستراتيجية إقليمية فى إطار إستراتيجيتها الكونية قول غير صحيح لأن للقوة العظمى خططها . وقول البعض بأن سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة تفتقر إلى الثبات والاستمرارية فهو قول صحيح لأن الولايات المتحدة تتحرك فى المنطقة بمبادرات ومبادئ متغيرة بتغير الظروف، ولكنها تتفق فى مجموعها على تجاهل مصالح دول المنطقة مع تحيز كامل لإسرائيل، وسنضرب أمثلة بذلك بالتحدث بإيجاز عن مبادئ ريتشارد نكسون، وجيمى كارتر، ورونالد ريجان، وجورج بوش .

١ـ مبدأ نكسون :

لخص الرئيس تكسون مبدأه فى تقريره المقدم إلى الكونجرس فى ١٨/ ٢/ ١٩٧٠ بعنوان «السياسة الخارجية للولايات المتحدة خلال السبعينات : استراتيجية جديدة من أجل السلام» وذلك فيما يلى :ـ

(أ) ستبقى الولايات المتحدة على كافة التزاماتها

(ب) ستوفر الحماية لأى دولة حليفة أو حيوية بالنسبة لأمتنا إذا واجهت تهديدا من دولة نووية (كان يقصد الاتحاد السوفيتى)

(جـ) فى مواجهة أشكال العدوان الأخرى سنوفر التفوق الاقتصادى والعسكرى حينما يطلب منا وحسبما هو ملائم لنا ، ولكننا نتوقع من الدول المهددة أن تتحمل المسئولية المباشرة لتوفر القوة البشرية للدفاع عن ذاتها ، وحافظ نكسون على تنفيذ هذه المبادئ فى إطار محدد : عدم الزج بالقوات الأمريكية فى مسارح العمليات تلافيا لما حدث عند تورطهم فى فيتنام ، فتح أبواب الترسانة العسكرية أمام الدول الحليفة والتابعة وهى تخوض القتال لتحقيق مصالحها الذاتية ومصالح الولايات المتحدة بالوكالة ، وقد انعكس ذلك على تزايد وازدهار مبيعات الأسلحة ، وأخيرا تشجيعه لعسكرة بلدان العالم الثالث لاستنزاف موارده واتجه نكسون الى الحفاظ على المصالح الأمريكية الإقليمية بالوكالة عن طريق دول المنطقه مثل إيران والسعودية وإسرائيل : إيران وإسرائيل تقومان بدور العصا والسعودية بدور الجزرة .

٢ ـ مبدأ جيمى كارتر:

حافظ مبدأ تكسون على المصالح الأمريكية حتى نهاية السبعينات ، ولكن انهار المبدأ بانهيار نظام الشاه ، وانتصار الثورة الإيرانية واهتزاز النظام السعودى وأنظمة دول الخليج تحت رياح القوة الإيرانية . وقد عبرت التوجيهات العامة الإستراتيجية للولايات المتحدة الواردة فى تقريرى وزير الدفاع الأمريكى عامى ٧٩ ، ٨٠عن المبادئ الجديدة .

(أ) سنواجه أى هجوم على دول حليفة بمستوى حجمه .

(ب) لابد وأن يكون ردنا سريعا وحاسما لإجهاض أى محاولة لفرض أمر واقع جديد

(جـ) أن نبنى قوة تؤهلنا للدخول فى قتال أو منع قيام الحرب

وفى ضوء هذه الرؤية بدئ فى إنشاء قوة الانتشار السريع للتعامل مع النزاعات المحلية فى

الشرق الأوسط ، والخليج العربى ، والمحيط الهندى ، والقرن الإفريقى ، والتى اعتبرت ككتلة متداخلة ومنطقة مواجهة مع الاتحاد السوفيتى مما تطلب البحث عن قواعد وتسهيلات ثابتة فى المنطقة مع إنشاء قواعد عائمة تعمل كمخازن للأسلحة والعتاد ، وتكون قادرة فى الوقت نفسه على القيام بعمليات إنزال على الشاطىء ، وقد نجح مبدأ كارتر بفضل حماس الأنظمة التى سارعت وقدمت القواعد والتسهيلات كقاعدة بربرة الجوية فى الصومال ، وقاعدة ممباسا فى كينيا ومطارات مصيرة ومرفأى ريسوت وقابوس فى عمان ، وكذلك فى مناطق أخرى فى الخليج .

٣ـ مبدأ رونالد ريجان :

واجه مبدأ كارتر عند التطبيق صعوبات كثيرة كان لابد من مواجهتها :

(أ) مشكلة المسافة بين قاعدة العمليات فى كاليفورنيا ، وبين قوس الأزمات فى منطقتنا إذ تبلغ المسافة الجوية ٧٠٠٠ ميل جوى والمسافة البحرية ٨٥٠٠ ميل بحرى عن طريق قناة السويس ، ١٢٠٠٠ ميل بحرى عن طريق رأس الرجاء الصالح .

ومعنى هذا خطير للغاية فالفوز يعقد لمن يصل أولا ، والاتحاد السوفيتى أقرب ، ومجرد وصول قواته إلى مكان ما يحول دون وصول قوات أمريكية لنفس المكان تفاديا لمواجهة نووية .

(ب) وهناك المشاكل الإدارية التى تعنى نقل المتطلبات اللازمة للقوات المحاربة ، خاصة وأن المنطقة لايتوفر بها المياه العذبة فكل فرد يحتاج إلى ١٢ جالون ماء/ يوم تزن ٤ر١٠٠ رطل وتشغل ٦ر١ قدم مكعب عند نقلها ، وهذا مثل واحد لتقرير بُعد المشكلة وحجمها .

(جـ) والمشكلة الثالثة سياسية ، إذ لايمكن للولايات المتحدة أن تعتمد بصفة أكيدة على أى من النظم القائمة فى المنطقة إلا على إسرائيل ، فهى الدولة ذات النظام المستقر ويمكن استخدامها كقاعدة جوية لحماية الخليج على بعد ١٠٠٠ ميل ، وهى بذلك أقرب للمنطقة من طائرات الأسطول السادس .

ولمواجهة ذلك تقرر أن تكون قوة الانتشار السريع أصغر حجما وأكثر خفة فى الحركة مع تكوين أسطول جديد لمواجهة أحداث المنطقة ، كما لابد من الوجود المسبق على الأرض ولو عن طريق الإكراه والاقتحام عنوة حينما يتطلب الأمر ذلك ، وبالإضافة إلى هذا الاتجاه تبنى

رونالد ريجان مبدأ دحر القوى الراديكالية فى العالم الثالث بدعم حركات المقاومة المناهضة للشيوعية فى أفغانستان، وأنجولا، وكمبوديا، ونيكاراجوا .

٤ ـ مبدأ جورج بوش :

المفروض أن يتماثل مبدأ جورج بوش مع مبدأ رونالد ريجان فكلاهما من الحزب الجمهورى إلا أن هذا التماثل المفروض حدوثه بعيد عن الواقع إذ إن جورج بوش مارس سلطاته طوال فترة رئاسته التى أوشكت على الانتهاء فى ظل تغييرات جذرية فى النظام العالمى الذى كان سائدا أيام ريجان، فقد سقطت الشيوعية كإحدى العقائد المنافسة وتحلل الاتحاد السوفيتى وضعفت سطوة السلطة المركزية تدريجيا على الجمهوريات فزاد ابتعادها عن المركز، وانتهى بها الأمر إلى تكوين الرابطة الجديدة التى تقل فيها العلاقات بين الجمهوريات التى تكونها عن الكومنولث والكوندفدرالية . وبالرغم من أن ريجان استعاد القوة العسكرية الأمريكية ونفذ برنامجا ضخما لتحديث الأسطول إلا أن النواحى الاقتصادية كانت قد بدأت تعانى من كثرة تضخم نفقات الدفاع، وانتهى الأمر إلى زيادة معاناة الإقتصاد الأمريكى وتراجعه عن إقتصادات اليابان فى آسيا، وألمانيا فى أوروبا التى تسرع خطاها منذ الوحدة .

وبالرغم من المعاناة الداخلية لإدارة بوش إلا أن مشاكل العالم الثالث فرضت نفسها، وفى هذا المجال يلاحظ بعض الكتاب مثل تشارلس وليم ماينز فى مقالته فى مجلة الفورن بولسيى ـ Foreign policy بعنوان «قضايا أمريكا المعلقة فى العالم الثالث America's third world flang up s» إن الشمال فى طريقه الى الكهولة فى حين يظل الجنوب شابا والشباب يسيطر عليه الاضطراب والميل إلى التغيير، وهذا يعنى أن السنوات القادمة ستكون فترة توتر سياسى هائل فى العالم الثالث وهو عالم الشباب الذى لم تلحقه الشيخوخة بعد فأطفال الضفة الغربية والحجارة فى أيديهم وأطفال مدن السود فى جنوب إفريقيا الذين يسيطرون على الشارع هناك هم موجة المستقبل» وكان على بوش أن يواجه هذا العالم المضطرب أحيانا بممارسة الدبلوماسية كما حدث فى أنجولا وكمبوديا وأحيانا بالتدخل العسكرى المباشر كما حدث فى عملية عاصفة الصحراء، وأحيانا أخرى عن طريق بذل المساعى الحميدة كما يحدث الآن فى مفاوضات العرب وإسرائيل .

ووجد جورج بوش نفسه أمام تناقض جديد بعد انهيار العدو الرئيسى وهو الاتحاد السوفيتى، فمن هو العدو الآن وأين هو التهديد الحقيقى الذى يمكن أن يؤثر على المصالح الأمريكية فى المسارح الإقلمية، ومن أهمها الشرق الأوسط والتهديد الحقيقى يقع داخل

المنطقة ومن تصرفات دولها ، كما حدث فى حالة الحرب العراقية الإيرانية أو استيلاء العراق على الكويت ، أو التناحر على مسرح لبنان ، أو من الصراع العربى الإسرائيلى أو من قتال الجنوبيين مع السلطة المركزية فى السودان . هذا التناقض بين تراجع التهديدات العالمية وتعاظم التهديدات الإقليمية ألقى واجبا ثقيلا على رئاسة أركان الحرب المشتركة فى إعادة تنظيم قوانينها لتواجه التهديد الجديد علاوة على ضرورة إعادة النظر فى الوجود الأمريكى فى القواعد العالمية بعد أن قلل التقدم التكنولوجى من القيمة الإستراتيجية للقواعد الأجنبية ، فالتكنولوجيا الجديدة أصبحت تمكن الولايات المتحدة من الرحيل طواعية ، ولذلك فإننا أميل إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة لم تكن تريد بقاء قواتها البرية فى الكويت ، أو فى مناطق أخرى فى المنطقة ، وإن ما تم كان بناء على إلحاح من الدول الإقليمية حفاظا على كياناتها إذ كان يكفيها بعض المخازن لتخزين المعدات الثقيلة مع وجود قوى تعمل كقواعد جوية متحركة فى الوقت نفسه .

والوضع العالمى الذى وجد جورج بوش نفسه فى خضمه وضع يتسم بالسيولة ، فالهدم فى أنحائه المتعددة أكثر من البناء ، فالاتحاد السوفيتى تحطم ولكن البناء الذى سوف يخلفه متصدع لايدرى أحد على وجه الدقه كيف يكون مصيره النهائى ، والبيت الأوربى ما زال تحت الإنشاء وسط عقبات كأداء ، ووسط تخوف ثقيل من أن يخرج المارد الألمانى بعد الوحدة الألمانية من القمقم من جديد ، والقارة الإفريقية ملتهبة كجوف بركان غير متماسك عوامل انفجاراته تفوق بكثير عوامل ثباته ، والقوانين التجارية السائدة تزعزع السوق أمام الإنتاج الأمريكى الضخم مما يهدد بزيادة التضخم ، وأخطر من ذلك زيادة البطالة والأصوات الساخطة تصم آذان الرئيس تدعوه أن يركز على الأوضاع الداخلية الصعبة ، بدلا من التفرغ للأوضاع الخارجية الأصعب .

ولذلك فإن النظام العالمى الحالى ـ ونحن جزء منه ـــ ما زال فى دور المخاض ، ونحن جميعا الآن نمر على جسر متأرجح يستند أحد طرفيه على عالم قديم متصدع ، وطرفه الآخر ما زال معلقا فى الهواء لأنه يستند على المجهول . ولا نظن أبدا أن لجورج بوش وسط هذا العالم غير المحددمبدأ ثابتا يتعامل به على المدى الطويل أمام هذه المتغيرات التى تحدث فى أحجام غير متوقعة وسرعات مخيفة لايمكن حسابها أو التنبؤ بها حتى بالوسائل التكنولوجية الخارقة التى تتسبب فى سعادة الإنسان وشقائه فى وقت واحد .

وبخصوص مبدأ بوش للتعامل مع الشرق الأوسط فربما يكون إطاره العام حتى الآن منحصرا فى النقاط الآتية :

● فربما يوضع الشرق الأوسط فى الأسبقية الرابعة من الاهتمام بعد الوضع الإقتصادى

الأمريكى الصعب الـذى يمس مباشرة أصحاب الأصوات الانتخابيـة ، وبعد ما يجرى فى شرق أوروبا ، والتهديد الخطير الناتج من احتمال انتشـار الأسلحة والأدمغة النووية ، وبعد ما يجرى فى البيت الأوربـى من محاولات ربما تخرج أوروبا بعدها كالماردالأول كماكـانت قبل منتصف هذا القرن

● ثم وربما يربط منطقة الشرق الأوسط بالجمهور يات الإسلامية فى جنوب ماكان يعرف بالاتحاد السـوفيتى فى ضوء عدة اعتبـارات هامة : فبعـض الجمهوريات مثل كـازاخستان تعترف بـدولة فلسطين، وهـى قوة نـووية تـرفض نقـل أسلحتها النـووية إلى أرض روسيـا الاتحادية وفى الوقت نفسه هناك احتمال كبير أن تنقل أسلحة تقليدية ، وفوق تقليدية خلال أسـواق السلاح السـوداء . ثـم العلاقـات العـاطفية بين هـذه الجمهـوريات وبين البـلاد الإسلامية فى الشرق الأوسط والتى سارع بعضها فى وصل الخطوط تمهيدا لعلاقات مستقبلية لابد وأن تؤثر على مجريات الأمور .

● ويركز بوش على بناء صلح بين العرب وإسرائيل ، فهذا حلم الرؤساء المتتابعين من يوم إنشاء الدولة الإسرائيلية ، بـل كان هذا الموضوع وراء كل أزماتنا مع الـولايات المتحدة والتى بدأت بشكل حاد بعد قيام عبـد الناصر بكسر احتكار السلاح عام ١٩٥٥ وضرب الإعلان الثلاثى لعـام ١٩٥٠ الذى يحدد تصدير السـلاح إلى المنطقة بحيث يضمن أن يكـون توازن القـوى إلى جانـب إسرائيل بـاستمـرار، والذى شـاركت فيـه كـل من واشنطـن وباريـس ولندن . . . ولكن على أى أساس يبنى هذا الصلح المأمول؟ هل على أساس توازن القوى أم على أساس توازن المصالـح ؟ فإن تـم البناء على الأساس الأول فإن الأمـر سوف ينتهى بنا إلى اتفاقيات رديئة لـن تضمن الاستقرار، وإن تم البناء على الأساس الثانـى أى مبادلة السلام بالأرض مع الحد مـن التسلح لإيجاد توازن قوى إقليمـى معقول فربما تنجح المحـاولة بقبول إسرائيل كعضو فى العائلة الإقليمية لكى تمارس بصفة دائمة واجبها فى الحفاظ على المصالح الأمريكية بالوكالة By Proxy .

● وقد يكون فى تفكيره التمهيد لعقد اتفاق أمنى إقليمى يتجاوز الحدود العربية إلى تركيا فى الشمال وربما إيران فى الشرق ، يبنـى على أساس محورى الميـاه والنفط . فـالمياه وتـوزيعها العادل يضمنان الاستقرار والتعاون اللازمين لاستمرار تدفـق النفط من منابعه ليعطى الحياة للدول الصناعية ، والتى سوف تستمر علاقاتنـا بها كعلاقة المصنع الذى ينتج بالسوق الذى يستهلـك . هذه العـلاقـة التى تحافـظ دائما على رفـاهية بـلاد الشمال جنبـا إلى جنب مـع انخفاض مستـوى الجنوب وهى معـادلة ضرورية ـ مـن وجهة نظره لاستمـرار السيطرة على أسعار المواد الخام الموجودة فى مخازن الجنوب الذى يؤثر على سعر الإنتاج فى الشمال .

ومن رأينا أن المشروع الأمريكـى سوف يرتكز على ركيزتين فى السنوات القليلـة القادمة :

الركيزة الأولى ذات طابع اقتصادى، والركيـزة الثانية تعتمد على الحد من تسليح دول المنطقة بمقاييس انتقائية .

أما عن الركيزة الاقتصادية فقد تكون بداية بنائها فى «المفاوضات متعددة الأطراف» التى اتفـق عليهـا فى مفاوضـات النـزاع العـربى الإسرائيلى، والتـى تقـرر عقـدها فى مـوسكـو ٢٨/ ١/ ١٩٩٢ التى ستحضرهـا ٣٥ دولة، عـلاوة على أنها سوف تبحـث استغلال الموارد الطبيعية فى المنطقة مع رسم العلاقات الاقتصادية لدولها وتوزيع الأدوار بالنسبة لمن يملكون ولمن لايملكون . . . فمـن يملكون الثـروة مثلا ومن لا يملكـونها . . من يملكـون المياه أو النفط أو العمالة أو الأسواق أو المصانع، وبين من لايملكون . . إنها تريد مشروع ماريشال آخر دون أن تدفع شيئا، كما حدث فى أوروبا، بل يكون تمويله ذاتيا سواء فى ثروة المنطقة أو من خبراتها .

بخصوص الركيزة المتعلقة بالتسليح فإن المشروع الأمريكى يحاول إحياء الاتفاق الثلاثى لعام ١٩٥٠، والذى حدد الحصـول على السلاح بواسطة دول المنطقة من أسـواق الولايات المتحدة وبريطانيـا، وفرنسا حتى يسهل السيطرة على الوضع القـائم تحت اعتقاد من أنه إذا تهدم هذا الـوضع فإن الدول الإقليميـة سوف تدخـل فى مرحلة سباق تسلـح ربما يؤدى إلى اقتحام الاتحاد السوفيتى إلى المنطقة ، وكان الإعلان بمثابة حظر شامل على استيراد السلاح حتى لا يتهدد بقاء إسرائيـل فى أول إنشائها، ولكن بعد كسر احتكار السـلاح هذا بإعلان عبد النـاصر يوم ٢٧/ ٩/ ١٩٥٥ عن اتفـاقية السلاح المصريـة التشيكية أخذت الـولايات المتحدة نفسها تساعد إسرائيل فى المحافظـة المستمرة على أن يكون توازن القوى فى جانبها، ويظهـر ذلـك جليا فى التـوجيهـات الـرئاسية التـى أصـدرهـا الـرئيس رونـا لـد ريجان فى ٨/ ٧/ ١٩٨١ والتى يوضح فيهـا السياسة الأمريكية بخصوص الإمـداد بالأسلحة [١] وهى توجيهـات جعلت من الإمـداد بالأسلحة أداة السيا سة الخارجيـة الأمريكية، فـزادت من ميزانيـة المساعـدات الحربية وألغت القيـود التى كـان سلفه جيمى كـارتر قـد وضعها على تصدير السلاح وأصبح ريجان يتعامل مع العالم كما هو، وليس كما يتمنى أن يكون على حد قولـه وكذلـك فى تصريح الـرئاسة الأمـريكية يـوم ١٦/ ٧/ ١٩٨١ الخاص بمنع الانتشـار النووى [٢] والذى ينص على «منع انتشار التفجيرات النووية لدول إضافية وجعل ذلك واجبا أساسيا من واجبات سياستنا الخارجية» يعنى لا اعتراض على إسرائيل النووية، ولكن غير مسموح لدول إضافية من دول المنطقة لكى تلحق بها .

---

(١) أمين هويدى ـ الصراع العربى الإسرائيلى بين الرادع التقليدى والرادع النـووى ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص٤٦ .

فى حدود هذا المفهوم أعلن جورج بوش عن مبادرته للحد من انتشار الأسلحة فى منطقة الشرق الأوسط أثناء زيارته لأكاديمية سلاح الطيران فى كلورادوسبرنجز فى ٣٠/ ٥/ ١٩٩١ وكان الغرض منها كما أعلنه « ضبط صادرات الأسلحة التقليدية ووضع قيود على الصادرات التى تساهم فى إنتاج أسلحة الدمار الشامل والتجميد الفورى ثم الحظر النهائى لاحقا على الصواريخ أرض ـ أرض فى المنطقة ، وأخيرا الحظر على إنتاج مواد الأسلحة النووية مع مراعاة دعم الحاجة المشروعة لكل دولة فى الدفاع عن نفسها ، وحتى يجعل الحظر دوليا كما فى الاتفاق الثلاثى لعام ١٩٥٠ تقرر دعوة « الدول الخمس الرئيسية المزودة للأسلحة التقليدية Sppliers إلى عقد اجتماع على مستوى عال فى المستقبل القريب لوضع الخطوط العريضة لفرض القيودعلى عمليات تزويد الأسلحة التقليدية وأنظمة أسلحة الدمار الشامل والتكنولوجيا المتصلةبها . . وقد تم عقد الاجتماع فى لندن بعد ذلك بأسابيع .

ويبدو أن القرارات السرية التى اتخذت فى المؤتمر بدأت تحدث آثارها إذ صرح وزير الإنتاج الحربى المصرى فى اجتماع حضره مع أعضاء لجنة الأمن القومى لمجلس الشعب أن «هناك ضغوطا دولية يتم ممارستها على مصر لوضع قيود ومعوقات على الإنتاج الحربى المحلى فى أعقاب حرب الخليج وإن واردات مصر من المواد الخام ومستلزمات الإنتاج تخضع للرقابة فى السوق العالمية للتأكد من عدم استخدامها فى الصناعات الحربية » .

وهناك السياسة الأمريكية التحتيةCouvert أو السريةالتى تتدخل بصورة أوأخرى لخدمة المصالح الأمريكية ، وهذا ينقلنا إلى مجال أخر، ولكن أين هى السياسة العربية ؟ أين هذا المخطط العربى لمواجهة هؤلاء الذين يخططون ؟ أنا شخصيا لست أدرى ومن يعرف عنه شيئا فليتصل بى رجاء ! !

الفصل الثانى عشر

العالم الإسلامى من خلال منظار أمريكى

وصاحب المنظار هو « ريتشارد نكسون » الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية إذ تحدث عن « العالم الإسلامى »فى الفصل الخامس من كتابه الأخير الممتع « انتهز الفرصة ـ Seize The moment» والذى تصدى فيه بطريقة عملية للتحديات التاريخية التى تواجه بلاده اليوم بعد انتهاء الحرب الباردة واضعا تصوراته عن المنهج الجديد الذى يجب أن تسير عليه الولايات المتحدة فى المستقبل بعد أن أصبحت القوة العظمى الوحيدة فى العالم . وأساس تصوراته استبعاد الآراء التى تنادى « بأن القوة العسكرية لم تعد لها ضرورة » بعد انهيار الاتحاد السوفيتى كدولة والشيوعية كعقيدة كما حدد العالم الإسلامى والدول المتخلفة كمناطق تفرض تحديات خاصة أمام الولايات المتحدة إلى جانب التحديات التى تواجهها فى أوروبا وفى دول الباسفيك . وهو فى اتجاهاته عن ضرورة استخدام القوة فى ممارسة الدبلوماسية يتفق تماما مع وجهة نظر جورج بوش الرئيس السابق للولايات المتحدة كما يتفق ذلك أيضا مع معتقداتى وكتاباتى لأن الدبلوماسية دون قوة تساندها هى بمثابة طفل رضيع بلا أنياب ، فعن طريق القوة يمكن فرض أو رفض الأمر الواقع الذى يتعارض مع الأهداف القومية ويهدد الأمن القومى .

وهناك نقطةنظام أطرحها من البداية فلست خبيرا بالشؤون الإسلامية حتى أتجاسر وأقتحم دروبها الصعبة الغامضة ولذلك فليس لى تعليق مفيد على وجهات نظر مطروحة من قبل الغير، كل ما فى الأمر أننى قرأت لكتاب عرب أفاضل اعتراضات حادة على ماكتبه نكسون عن هذا الموضوع الشائك لدرجة أن البعض تجاوز الاعتراض إلى التعريض والاتهام بحيث يخيل للمرء أن هذا البعض لم يقرأ ما كتبه الرجل أصلا أو ربما يكون قد قرأه بتسرع فانفعل بما قرأ فكتب ما كتب مما أثار قضية هامة فى ممارساتنا مع الغير، إذ إن هناك فجوة كبيرة بين طريقة تعاملهم مع التحديات ـ من وجهة نظرهم ـ وطريقة تعاملنا مع نفس التحديات . . . فهم يتعاملون معها بالعقل ونحن وللأسف الشديد نتعامل معها بالعاطفة والتشنج . . . هم يتعاملون معها بالتخطيط والإجراءات البناءة ونحن نتعامل معها

بالشعارات الطنانة البراقة . ولذلك فهم يصلون دائما إلى المحطة فى الوقت المناسب ليركبوا القطار ونحن فى أغلب الأحوال نصل إلى المحطة بعد أن تكون « السبنسة » قدغابت عن الأنظار . . . وبسرعة وحتى ندخل فى الموضوع ، فلا أنا أؤيد نكسون فيما كتب ، ولا أنا أعترض على ما كتبه الكتاب العرب . . . كل ما فى الأمر أننى أحصر اهتمامى فى المقارنة بين طريقتين لمعالجة التحديات : طريقة موضوعية تعتمد على العقل . وأخرى انفعالية تعتمد على العاطفة . وريتشارد نكسون فى كتابه المذكور يوجه اللوم الى من يظن من الأمريكيين أن المسلمين شعوب غير متحضرة ودمويون وغير منطقيين وأنهم لايذكرون عنهم إلا أنهم يريدون محو إسرائيل ، وأنهم احتجزوا الرهائن فى إيران وأنهم يفجرون الطائرات ، وقاموا بغزو الكويت ، وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة ـ حتى بالنسبة للصين الشيوعية ـ فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم « الإسلامى » ويستطرد نكسون ليستعرض بعض أقوال المراقبين الذين يحذرون من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتكية متطرفة وإنه مع التزايد السكانى والإمكانيات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطرة كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر المشترك للعالم الإسلامى لأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى دار الإسلام و«دار الحرب » حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية .

وينتقد نكسون بشدة هذه الأقوال لأن هذا الكابوس المخيف لن يتحقق فإن المسلمين من الكثرة والاختلاف بشكل لا يسمح لهم أن يكونوا قوة واحدة . والعالم الإسلامى ليس هو الشرق الأوسط إذ يبلغ تعداد المسلمين ٨٥٠ مليونا (أى سدس سكان العالم) يعيشون فى ٣٧ دولة من دول العالم ، ينتمون إلى ٩٠ جنسية ويتكلمون مئات اللغات واللهجات ، وهم ينقسمون إلى ثلاث طوائف رئيسيه السنة والشيعة والصوفيون (!!!) يعيشون فى أرض يبلغ طول أضلاعها ١٠٠٠٠ ميل ، وتمتد من مراكش إلى يوغوسلافيا ، ومن تركيا إلى باكستان ومن آسيا الوسطى إلى أندونيسيا ، وكذلك يوجد فى الصين من المسلمين ما يفوق ما هو موجود فى الجزيرة العربية ، ومقدار المسلمين فى الاتحاد السوفيتى السابق ٥٠مليونا .

ويستطرد نكسون قائلا « يشترك المسلمون فى صفتين أساسيتين : إيمانهم بالدين الإسلامى ، وعدم الاستقرار السياسى . والإسلام ليس مجرد دين بل هو أساس لحضارة كبرى هى بمثابة المنبع لكل التيارات السياسية والثقافية الإسلامية ، وكما أنه يوجد فى الدول الغربية أحزاب يؤمن بعضها بسياسات السوق الحرة ، وإعانة البطالة والاشتراكية ، فكذلك يوجد فى العالم الإسلامى جماعات تؤمن بتيارات سياسية مختلفة منها الأصوليون والرجعيون والتقدميون . . إن التنافس بين دول العالم الإسلامى جعله بؤرة الصراعات ، بل وكما كانت معظم الدول الإسلامية تتكون من عدة قوميات ، أو أجناس مختلفة ، فقد سادت المنطقة

الصراعات الداخلية وربما يحدث فى كثير من الدول الإسلامية ما حدث فى لبنان مستقبلاً . وتبلغ نسبة التزايد السكانى أقصاها فى المجتمعات الإسلامية ، فمن المتوقع مثلا أن يزداد سكان الشرق الأوسط إلى الضعف عام ٢٠١٠ ، ولكن وفى الوقت نفسه لا تتزايد معدلات التنمية مما ينتج عنه هبوط مستمر فى مستوى المعيشة ، وأغلب حدود الدول رسمتها قوى الاستعمار الأوربية فى الماضى ، وهى تمثل نقطة رئيسية أخرى للنزاع بين الدول ، أو بين الدولة والأقليات فيها وتحكم الدول الإسلامية أنظمة معظمها ديكتاتورى قائم على النظم التقليدية ، وعلى السيطرة بالقوة ، وقد ظهرت كل هذه الصراعات فى المنطقة التى يتجمع بها أكبر كم من السلاح فى عالم الدول المتخلفة ، فقد أنفقت الدول الإسلاميه حوالى ٨٪ من دخلها القومى على التسليح فى حين كان إنفاق الدول الغربية أقل من ٥ ٪ . وبالرغم من تقارب العالم الإسلامى من الاتحاد السوفيتى سابقا من أجل السلاح إلا أن الإسلام وقف بصلابة ضد الشيوعية بطريقة أقوى مما وقفت المسيحية ضدها . وقليل من الأمريكيين يدركون مدى عراقة العالم الإسلامى ، ويتناسون أن الإسلام لايقر الإرهاب . وبينما كانت أوروبا ترتع فى غياهب العصور الوسطى كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ازدهارها ، ولقد أسهم الإسلام كثيرا فى تقدم العلم والطب والفلسفة ، وعندما ظهر النوابغ والعلماء فى عصر النهضة الأوربى فإن نبوغهم وتقدمهم كانا راجعين إلى أنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامى .

هذه الإنجازات ـ يقول نكسون ـ تبين ماكان عليه العالم الإسلامى فى الماضى ، وكذلك تبين ما يمكن أن يكون عليه فى المستقبل إذا توقفت الحروب المميتة وعدم الاستقرار السياسى ، وعلينا أن نرسم سياسة طويلة المدى تؤدى إلى توجيه العالم الإسلامى الوجهة الصحيحة التى تتفق مع تاريخه وحضارته السابقة مع حل المشاكل العاجلة ، وإلا سيكون مهد الحضارة مقبرة لها . وعند تعاملنا مع العالم الإسلامى يجب أن نلاحظ أنه ليس قالبًا سياسيا واحدا وأنه عالم ثورى بطبيعته ، وأن فيه الأصوليين الذين ينظرون إلى الماضى ويتخذون منه هداية للمستقبل ، والرجعيين الذين يؤمنون بالحزب الواحد المرتكن على الأيديولوجية القومية المتعنتة والتقدميين الذين يسعون إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر للاستفادة بأحدث تكنولوجية غربية مع الاحتفاظ بعراقة وأصالة البلاد . والولايات المتحدة تدعو للتعاون مع التقدميين ففي هذا مصلحتهم ومصلحتنا ، وعلينا ألا نرسم سياسة إسلامية تسري على كل البلاد الإسلامية ، كما علينا أن نحدد نقاط ارتكاز لنا تؤكد وجودنا ، إذ هناك أربع دول شركاء منطقيين فى هذه السياسة هى تركيا وباكستان ومصر وأندونسيا مع عدم المبالغة في علاقاتنا مع الدول التي نتعامل معها حتى لانكون هدفا للناقدين ، فلا يجوز للعلاقات أن تصل إلى حد الوصاية مع عدم التعامل مع قادة هذه الدول كأنهم

مراسلون بيننا وبين شعوبهم ، أو كأنهم أبواق للدعـاية الغربية إذ إن هذا الأسلوب هو أسرع طريقة ندفنهم بها ، ولايجوز أن نغضب إذا اضطرت إحـدى الدول الصديقة نتيجة لضغوط داخلية أن تعارض سياستنا ، وأن نقبل رفض أصدقائنا فى بعض الأحيان لبعض تصرفاتنا ، وعلينا بعد انتصارنا فى حرب الخليج تجنب ثلاثة أخطاء : محاولة وضع حل شامل للأمن فى المنطقة . محاولة وضع نظام للحد من التسلح . وأخيرا محاولة إعادة توزيع الثروة فى المنطقة . لأن ذلك سيحول الدول الفقيرة إلى دول متسولة تمد يـدها لتلقى الإحسان ، وعلينا ألا ننسى أن أكثر مـايهمنا فى الشرق الأوسط هو البترول وإسرائيـل ، وبخصوص إسرائيل فهـى دولة نووية ومباحثات السلام بينها وبين العـرب يجب أن تحقق أهدافا أربعة : الاعتراف الكامل بها ، الاعتراف بحدودها ، إعـادة الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ إلى العـرب ، وإعطاء الحكم الذاتى للفلسطينيين .

ولكى نكمـل الصورة بالنسبـة لأفكار نكسون رجعنا إلى مـاذكره عن المسلمين فى كتـابه «١٩٩٩ ـ نصر بلاحرب» وهـو من أحسن الكتب الستة التى أصدرها الـرئيس الأسبق بعد إعتزالـه فنجده يؤكـد على أن الأصولية الإسلاميـة هى التى ستحـل محل الشيوعية كـوسيلة للتغيير باستخـدام العنف ، وعلينا أن نحـذر من أن تعمينا تصرفـات المسلمين الأصوليين المتطرفة عـن عظمة الميراث الإسلامى ، فالـدين الذى أخرج القذافي وصـدام والخمينى هو نفسه الـذى أخرج ابـن سينا أكبر علماء الطب ، والـرازى أعظم الأطبـاء قاطبـة والبيرونى أعظم الجغـرافيين والهيثم أكبر علماء البصريـات ، وابن جبير أشهـر الكيماويين وأخذ بعـد ذلك يقارن مقارنة موضوعية بين الإسلام كدين سماوى والشيوعية كعقيدة وضعية ، وانتهى إلى أن رياح التغيير قادمة فى العالم الإسلامى ، ولا يمكن لأحد أن يتصدى لها .

أمام هذه الآراء من كاتب بوزن ريتشارد نكسون لا تنفع الكتابات العصبية ولا الحملات الكتابية التـى لاتحمل أكثر من النقد . وفى مجال الفكر لا يجوز أن ننقـد فكرة بعينها إلا إذا كان لـدينا أفضل منهـا ، فلا يجوز هدم ما هـو قائم إلا إذا توفـرت القدرة على بناء البـديل الأفضل وعلى الذين هاجموا ما قاله نكسون أن يتمسكوا بآرائهم وانتقاداتهم بشرط أن يقدموا فى المقـابـل خططا عقـلانيـة تتسـم بالمصـداقيـة . . فـالكلمات المرسلة لا تبنـى المستقبـل ولاتصحح الأخطاء القائمـة ، ولكن مقارعة خطة الغير بخطط من جانبنـا هى لغة الماضى والحاضر والمستقبـل ، وإن كنا تجاهلنـا ذلك فى الماضـى فلا يجوز أن يستمـر تجاهلنا لـه فى الحاضر والمستقبل وإلا على نفسها جنت « براقش»

الفصل الثالث عشر

أزمة هاييتى ومبدأ مونرو

قبل ساعات قليلة من بدء غزو هاييتى ، وبعد مباحثات استغرقت ١١ ساعة قام بها الرئيس جيمى كارتر مبعوثا من الرئيس الأمريكى كلينتون ، وافق الجنرال راؤول سيدراس حاكم هاييتى العسكرى على التنازل عن الحكم والخروج من الجزيرة هو وأعوانه ، وبدلا من قيام القوات المتحالفة برئاسة الولايات المتحدة بغزو الجزيرة قامت نفس القوات بالانتشار داخل الجزيرة للسيطرة على الأوضاع وتسليم السلطة إلى الرئيس جان أرستد الذى سبق أن طرده سيدراس عام ١٩٩٠ إثر انقلاب أطاح به إلى حين ، وذلك دون إطلاق طلقة واحدة من الأطراف المتصارعة .

هذه النتيجة المدهشة التى انتهت إليها الأزمة الساخنة لصالح الولايات المتحدة مثل جيد على الإدارة الناجحة للأزمة لأن تقييم إدارة الأزمة هو فى عدم تطورها إلى صدام مسلح مع الحصول على الأغراض التى تسببت فى تصاعدها لأن أزمة هاييتى وصلت كما شاهدنا إلى النقطة الحرجة التى أيقن الجميع عندها أن الغزو أصبح أمرا محتوما ، ولكن ما لبثت الأمور أن تراجعت بعيدا عن نقطة الذروة لتصل إلى اتفاق الأطراف على حل لتلافى القتال .

كانت الوسيلة الحاسمة للوصول بالأزمة إلى النتيجة التى انتهت إليها هى « استراتيجية الردع ـ Deterrence » وهى عبارة عن استخدام وسائل القتال لمنع القتال ، أو هى فن الحصول على الأغراض دون قتال . وتفشل استراتيجية الردع إذا بدأ القتال . وإدارة الردع تتم بحسابات مختلفة تماما عن إدارة القتال ، فلكل حساباته ومبادئه علما بإن إدارة كليهما تحتاج إلى الاستخدام الماهر للقوة مع اختلاف كبير بينهما : ففى الردع تستخدم القوة وهى فى حالة الثبات دون اشتباك static وفى القتال تستخدم القوة وهى فى حالة الحركة Dynamic .

وفى الأزمة الأخيرة استخدمت القوة بحسابات دقيقة حتى تؤتى نتائجها المرجوة دون الحاجة إلى الاقتتال لأن النتيجة التى يسعى إليها كلينتون كانت تغيير السلطة القائمة واستبدالها بالسلطة المخلوعة ، وكان هذا سيتم حتما بالقتال عن طريق الغزو المسلح للتفاوت الكبير فى القوى المضادة ، فأن يحصل الرئيس كلينتون على غرضه دون قتال

وبالتهديد فقط باستخدام القوة لأمر يدعو إلى الإعجاب ولانقول التأييد، فقد حاول الرئيس جورج بوش ذلك من قبل فى عملية « عاصفة الصحراء» التى سبقتها عملية «درع الصحراء» والتى تم فيها حشد القوات ويرجع فشل عملية الردع التى قام بها الرئيس بوش إلى الحسابات الخاطئة للرئيس صدام، كما نرجع نجاح الرئيس كلينتون فى عملية الردع التى قام بها إلى الحسابات الدقيقة التى قام بها الجنرال راؤول سيدراس لأن عملية الردع تتم على أساس معادلة دقيقة تتكون من ثلاثة أطراف :

امتلاك قوة الردع + الإعلان عن القوة الحقيقية الرادعة والإرادة الحاسمة لاستخدامها + تصديق الطرف الآخر لتأثير القوة المضادة = الردع .

فى حالة الرئيس صدام لم يتحقق الطرف الثالث للمعادلة لأنه لم يصدق قيام الرئيس بوش باستخدام القوة، ولم يحسب بدقة توازن القوى فى حين حدث العكس فى أزمة هاييتى .

وتكشف الأزمة بحق جوهر النظام العالمى الحالى ، وهو حق الدولة العظمى فى التدخل حتى فى الشؤون الداخلية للدول فى أى مكان تدخلا اختياريا تحت مظلة الشرعية الدولية القسرية بعد أن أصبح مجلس الأمن شركة متعددة الجنسيات برئاسة الولايات المتحدة، فتدخلت من قبل فى بنما وقضت على رئيس الجمهورية متهمة إياه بالاتجار فى المخدرات ورحلته فى عربة لورى إلى فلوريدا ليحاكم أمام العدالة الأمريكية، وتلا ذلك تدخلها فى بلاد عدة فى إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط مما يجعل كثيرا من الأنظمة تتحسب هذا التدخل وهى تمارس علاقاتها الدولية .

ولقد قيل الكثير عن سبب تدخل الولايات المتحدة فى تغيير الحكم فى هاييتى باستخدام القوات المسلحة، فأرجع البعض - تمشيا مع البيانات الأمريكية - ذلك إلى فرض الديمقراطية وإحترامها بالإصرار على إعادة الرئيس المنتخب أرستيد إلى مقعد الرئاسة . ولو صدق هذا التبرير فإن واجب الولايات المتحدة أن ترسل قواتها إلى عشرات الدول لتغيير الأنظمة القائمة على أسس أبعد ما تكون عن الديموقراطية . وأرجع البعض هذا الاهتمام الشديد بهاييتى إلى أسباب داخلية تتعلق بالتجديد النصفى لانتخابات مجلس الشيوخ وضرورة حصول الديمقراطيين على نصر رخيص يحقق فوزا فى الانتخابات القادمة أوللتغطية على فشل الرئيس كلينتون فى تحقيق كثير من القضايا الداخلية التى وعد بتحقيقها أثناء خوض معركة الانتخابات ضد الرئيس جورج بوش .

قيل كل هذا وأكثر منه وليس هدفنا مناقشة ذلك، ولكن الأمر الذى يمكن إضافته فى هذا المجال هو أنه من سوء حظ الجنرال راؤول سيدراس أنه قام بالانقلاب منذ سنتين فى

هاييتى التى تقع فى نصف الكرة الغربـى المشمول بمظلة « مبدأ مونرو » علاوة على أنها تقع فى بطن الولايات المتحدة فى الكاريبى وتعتبر فناءها الخلفى وغير مسموح لأحد أن يلعب فى بطن الدولة العظمى أو فى فنائها الخلفى إلا بالقواعد والأسس التى تفرضها، وصاحب هذا المبدأ ـ مبدأ مونرو ـ هو الـرئيس الخامـس للولايـات المتحدة الأمـريكية « جيمـس مونـرو ـ JAMES MONRE » الذى انتخب للرئاسة عام ١٨١٦ ثم أعيد انتخابه للمرة الثانية عام ١٨٢٠ وقـد ساهـم قبل تـوليه الـرئاسـة ـ وهـو يعمل سفيرا ووزيـرا ـ فى شراء مصـب نهر المسيسيبى بما فى ذلك جزيرة نيوأورليانز من أسبانيا وإقناعها بالتنازل عن فلوريداكما اشترك فى مباحثات شراء لويزيانا من نابليون فى ٣٠/ ٤/ ١٨٠٣ .

كانت أوروبا وقتئذ تعتمد فى صراعاتها على ممارسة سياسة القوة ـ Power Policy التى اعتمدت بدورها على سياسة توازن القوى ـ Balance Of Power إلا أن الولايات المتحدة التى نشأت حـديثا كدولة فى نصف الكـرة الغربىWesterm Hemisphere والتى كانت تفتقر إلى القـوة لمجاراة غيرهـا فى هذا المجال نـددت بتلك السيـاسة الأوروبيـة، ولكنها فى الوقت نفسه أجازت استخدامها كـوسيلة لتحقيق مصالحها فى مجالها الحيوى فى الأمريكتين . فأوروبا وأمريكا مجالان سياسيان منفصلان يشكل المحيط خندقا مائيا يباعد بينهما، وقد نادى بـذلك كل من الـرئيسين جورج واشنطن، وتـوماس جيفرسـون قبل إعلانه بـوضوح كامل كمبدأ بواسطة الرئيس مونرو فى ٢/ ١٢/ ١٨٢٣ .

كـانت السيـاسة الأمـريكية المعلنـة وقتئذ تنـادى بعدم تـدخلها فى الشـؤون الداخليـة للآخـرين حتى تتفـرغ للبناء الـداخلى، ولكن خوفـا من التدخـل الأوروبى مـرة أخرى إلى نصف الكرة الغربى بعد أن تراجع إثر انهيار السياستين الاستعماريتين الأسبانية والأوروبية . هنا أعلن مونرو خطوة جديدة لتعزيـز وتأكيد السياسة الأمريكية فى مجالها الحيوى، فكما أن الولايات المتحـدة لاتريد التدخـل فى شؤون الآخرين فعلى أوروبـا بدورها عدم التـدخل فى الشؤون الأمريكية « فالولايات المتحدة قـد تحارب إذا تم اختراق نصف الكرة الغربى، فكل توسـع أوربى هناك يعتبر خطـرا يهدد السلام والأمن» . وتحت مظلة مبـدأ مونرو هـذا بعدم التدخل المتبادل بين الولايات المتحدة وأوروبا استخـدمت واشنطن نفس سياسة القوة التى سبـق أن نددت بها لتعـزيـز سلطاتها وتجارتها وضـم الأراضـى وفـرض سلطانها على الهنـود والمكسيك وتكساس لتبنـى نفسها كقوة عظمى « ولم تجد أى غضاضة فى استخـدام سياسة غير أخلاقية، لتوسيع ممتلكاتها ونفوذها فى نصف الكـرة الغربى فى ظل إعلانها عن سياسة أخلاقية ظاهرها الطهارة والشفافية مستبعدة أن يكون توسعها جزءا من سياستها الخارجية »

كقول هنرى كيسنجر فى كتابه الأخير « الدبلوماسية ـ Diplomacy » . . ولكن السياسة لاتعرف المبادئ الأخلاقية بل تتعامل مع المصالح المجردة، خاصة إذا كانت تلك المصالح فى المجال الحيوى أى فى « الفناء الخلفى » للولايات المتحدة الأمريكية .

ولسنوات تالية لم يلاق مبدأ مونرو اهتماما فى واشنطن حتى أثناء احتلال بريطانيا لجزر الفوكلاند والحصار الفرنسى لكل من المكسيك والأرجنتين عام ١٨٣٨ ، وكان الرئيس بولك Polk هو أول رئيس يحيى المبادرة معلنا فى مواجهة تدخل بريطانيا وفرنسا فى تكساس إذ صرح عام ١٨٤٥ بأن « ضم تكساس هام جدا حتى يمنع احتلالها بواسطة قوة أخرى لو بقيت مستقلة وفى هذا تهديد للأمن الأمريكى» . وبذلك تعدى مبدأ مونرو مواجهة خطر قائم إلى مواجهة أخطار محتملة ، وفى ظل هذا التطور قام الرئيس أندرو جاكسون بشراء ألاسكا عام ١٨٦٨ ، وتتابع التأكيد على مبدأ مونرو بالأقوال والأفعال من الرؤساء المتعاقبين ، فعلى سبيل المثال أعلن روبرت لانسنج وزير خارجية وودرو ولسون أن « حكومة الولايات المتحدة سوف تساند جمهوريات الكاريبى فى بنائها لحكومات أمينة ومسئولة بناء على ما تقتضيه كل حالة على حدة . » ثم عاد الرئيس تيودور روزفلت ليعلن عام ١٩٠٤ «انفراد بلاده فى التدخل فى نصف الكرة الغربى ، وتنفيذا لذلك تدخل فى حل مشكلة ديون هاييتى مع البنوك الأوروبية عام ١٩٠٢ وفى عام ١٩٠٣ تدخل فى بنما لمواجهة الاضطرابات الداخلية ومساعدتها على الاستقلال عن كولومبيا ـ وفى عام ١٩٠٥ فرضت الولايات المتحدة حماية مالية على الدومينيكان وفى عام ١٩٠٦ احتلت كوبا . . . إلخ .

فوقت أن كانت الولايات المتحدة تخطو خطواتها الأولى فى القرن التاسع عشر لتصبح قوة عظمى اكتفت بفرض وصايتها على نصف الكرة الغربى تحت مظلة مبدأ مونرو ولتشكله فى نموذج يخدم مصالحها ، ولكنها بعد أن أصبحت الدولة العظمى الوحيدة بعد سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتى بدأت فى محاولة تشكيل العالم كله فى نموذج يخدم مصالحها تحت مظلة النظام العالمى الجديد فلم تعد المحيطات من الاتساع بحيث تعزل الولايات المتحدة عن العالم ، وإذا توفرت القوة لابد وأن تتجسد فى واقع سياسى مع استبعاد مبادئ الفضيلة لأن أصحاب الفضيلة كان فى إمكانهم أن يرثوا العالم لو كانوا للأقوياء ، فالبقاء للأقوى .

الفصل الرابع عشر

البيت الأوروبى

ربما يكون ميخائيل جورباتشوف الرئيس السوفيتى السابق وآخر الرؤساء للاتحاد السوفيتى كما عرفنا بعد انتهاء الحرب الثانية هو صاحب تعبير « البيت المشترك » . . بناء على عوامل الجغرافيا والتاريخ التى تجعل الاتحاد السوفيتى أحد سكان البيت المشترك هذا «فلكل أسرة سكنها الخاص كما توجد مداخل مختلفة لهذا البيت ، ولكن الأوروبيين لا يمكنهم إنقاذ بيتهم وحمايته من حريق جامح أو غير ذلك من الكوارث وجعله أفضل حالا وأكثر أمنا والإبقاء عليه فى نظام سليم إلا إذا عملوا معا بطريقة جماعية واتبعوا المعايير المعقولة للتعايش» .

ولكن « أوروبا الواحدة» من الأطلسى حتى الأورال كما يقول جورباتشوف فى كتابه «البيروسترويكا» كانت ـ ومازالت ـ حلما يراود أحلام القادة والزعماء . . كان نابليون يريد تحقيق الحلم بقوة السلاح لتخضع أوروبا الموحدة كلها لزعامته ، وهو يقود « الجيش العظيم ـ Grand Armee » ، ولكن آماله تحطمت أمام إستراتيجية « الأرض المحروقة» التى اتبعها الجنرال الروسى العظيم ميخائيل كوتوزوف قائد الجيش الروسى والتى انتهت بحرق موسكو نفسها بعد معركة بورودينو واضطرار نابليون للانسحاب بجيشه المهزوم متخذًا نفس الطريق غربا وسط زمهرير الشتاء ، ليواجه مصيره النهائى فى معركة ووترلو بعد هروبه من منفاه فى «إلبا » .

ويحدثنا التاريخ أن روسيا حاربت إلى جانب أوروبا فى الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا وتركيا حتى قيام ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ التى انتهت بتولى الحزب الشيوعى السلطة محل القياصرة ، وبالرغم من الحرب الباردة التى تبعت انتهاء الحرب الأولى إلا أن روسيا الشيوعية حاربت إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية فى الحرب العالمية الثانية .

حتى بعد انتهاء الحرب الساخنة وبداية الحرب النووية الباردة تحت مظلة الردع المتبادل بين الكتلتين الشيوعية والرأسمالية ، وجدنا زعيما مثل « ويلى برانت» مستشار ألمانيا الغربية ينادى بسياسة « الأوست بوليتيك» أى الاتجاه نحو الشرق ، وكان هذا الاتجاه لا يقبل

المساومة من الولايات المتحدة الأمريكية فأزيح المستشار الألمانى عن منصبه بتجسيم حادث تجسس حدث مـن أحد مساعديـه ، وانتهى الحادث الذى يمكن أن يحدث مـع أى رئيس بإبعاد شميدت عن المنـاصب القيادية فى ألمانيا الغربية مكتفيا بـرئاسة « الاشتراكية الدولية» وكان اتجاه أوروبا الغـربية نحو الشرق يقابله اتجاه الاتحاد السـوفيتى نحو الغرب ، فبـالرغم من حائط بـرلين وحلفى وارسو والأطلنطى والصواريـخ النووية الموجهة شرقا وغـربا ، فإن هذا لم يمنع الاتحاد السوفيتى من مد خط سيبريا لنقـل الغاز من منابعه فى سيبريا غربا إلى بعـض دول أوروبا الغـربية ، وكجسر يصـل بين الشرق والغـرب ، وكان لهذا الاتجاه قصـة نذكرها حتى نعرف كيف يدار الصراع العالمى حتى بين الحلفاء .

كان أنبـوب غاز سيبريا يمتـد من « يورينجوى» فى سيبريـا إلى كل دول أوروبا الغـربية بطول ٣٠٠٠ ميـل وحجم الغـاز الذى كـان من المفـروض أن ينقله ٤٠ بليـون متر مكعب سنويا وتكلفته ١٠ بـلايين دولار كان الاتحاد السوفيتى سيقترضها من البنـوك الغربية بفوائد معقولة ، وبدأ العمل فى هذا الخط عام ١٩٨٤ محدثا انقساما كبيرا بين دول حلف الأطلنطى إذ اعتبرت الولايات المتحدة أن هذا الاتجاه خطر ماحـق على سياستها الكونية وعلى سيطرتها على أوروبا ، فـواجهت الخطر الاستراتيجـى القادم من الشرق بـاستراتيجية ، الاقتراب غير المباشر indirect Approach من الجنوب بمـد أنبوب غاز من منطقة « حـاسى مسعود» فى جنوب الجزائر والتى تضم أكبر وأغنى حقول الغاز الطبيعى فى العالم كله عبر البحر المتوسط لمسافة ١٥٥٠ ميلا تحت مضيق صقلية شمالا حتى العاصمة الإيطالية روما ، وقد تم تعاقد إيطاليـا على شراء ١٢ بليون متر مكعب من الغـاز الجزائرى كل عام ولمدة ربع قـرن ، وهذه الكمية تمثل نصف احتياجـات إيطاليا مما شجع الحكومة الإيطاليـة وقتئذ على تأجيل اتخاذ قرار بشأن الغاز السوفيتى ، وكان هذا هجوما غير مباشر من الجنوب إلى الشمال على أنبوب غاز سيبريا المتجه مـن الشرق إلى الغرب يعطل أى طريق أمام الاتحاد السـوفيتى ليتصل مع أوروبا الغـربية مما جعـل المارشال «جولـدمان» مديـر مركز الأبحـاث السوفيتية فى جـامعة هارفـارد يعلق بـأن الأنبوب الجزائرى خبر أسـود بالنسبة لـلاتحاد السوفيتـى إذ إنه منـافس ومعرقل له وقـد يعتبره البعض بديلا عنه مما سيقلل دخل الاتحاد السـوفيتى ، من العملات الأجنبية نتيجة لأن بعض الدول الأوربية ستفقد حماسها نحو أنبوب سيبريا .

وبقليل مـن الاستطراد فالملاحـظ أننا ـ كعـرب ـ كنا الـوسيلة الفعلية للقضـاء على خط سيبريا ولكـن ـ وكـالعادة ـ دون مقـابل . والملاحـظ أيضا أن أى اتجاه استراتيجـى لايمكن مواجهتـه إلا باتجاه استراتيجى مضاد لأن التحـركات التكتيكية دون إطار استراتيجـى ينظم خطواتها لاطائل من ورائها .

كان جورباتشوف عامى ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ أمينا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، وزار باريس عام ١٩٨٤ وفى حديث بينه وبين فرانسوا ميتران تساءل رئيس الجمهورية الفرنسية «لماذا لاتضطلع بمسئولية التقدم التدريجى نحو سياسة أوروبية أكثر شمولا؟» وبعد عام واحد وأثناء زيارة ميتران لموسكو تحدث ميتران إلى جورباتشوف قائلا «من الضرورى أن تصبح أوروبا حقا المدافع الرئيسى عن تاريخها مرة أخرى بحيث يمكن أن تقوم بدورها كاملا كعامل التوازن والاستقرار فى الشؤون الدولية» ولذلك فقد تصدرت السياسة الأوروبية والاتجاه نحو تعزيزها المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى ، وقد تحمس لهذا الاتجاه وفى خطابات رسمية وزير خارجية ألمانيا الاتحادية جنشر «فنحن على استعداد لتقبل فكرة بيت أوروبى مشترك ، وللعمل مع الاتحاد السوفيتى لجعله بيتا مشتركا بحق» وقد أيد هذا الاتجاه ريتشارد فون فاتيز ، وكان الرئيس الألمانى فى ذلك الوقت وكذا جوليو أندريوتى وزير خارجية إيطاليا وغيرهما من الزعماء .

هذا التقارب بين الشرق والغرب فى أوروبا يقلق تماما الولايات المتحدة الأمريكية ، خاصة وهى تسعى للهيمنة على العالم ، فهى تستمع بقلق لما يقال أحيانا من بعض الجهات الأوروبية « بأننا نريد البيت الأوروبى المشترك ولايعنى هذا قفل الأبواب فى وجه أحد ، ولكن قرار هذا الأمر من شؤون مالك الشقة ، والمالك لايريد لأحد أن يدفع الباب الأوروبى عنوة ويتصدر المائدة فى الشقة» ويزداد قلقها وهى تسمع من يقول « أوروبا فى مكانها جغرافيا وستظل كذلك ، وليس معقولا أن يرحل العقل الأوروبى عبر الأطلنطى أو أن تسيطر عليه أفكار مستوردة عبر الاطلنطى ، فالثقافة الأوروبية العقلانية العميقة ذات الطابع الإنسانى لن تسمح لنفسها بالتراجع أمام العربدة البدائية للعنف والأدب الإباحى الداعر، وأمام فيض المشاعر الرخيصة والأفكار الهابطة » .

كلام غليظ ولكنه يقال :

ثم كان سقوط الاتحاد السوفيتى كدولة ، والشيوعية كعقيدة ، وتسابق الجمهوريات الجديدة لمحاولة الانفتاح وتطبيق آليات السوق ، بل والمطالبة علنا بأن يسيروا فى ركب الغرب ، وفوق كل ذلك وحدة الألمانيتين هكذا فجأة دوافع التقارب بين الشرق والغرب فكل هذا الذى حدث كان يشكل موانع حقيقية أمام الرغبات المكبوتة ، وربما يفسر هذا تباطؤ الولايات المتحدة لمد يد المساعدة للكومنولث الجديد واندفاع بعض دول أوروبا الغربية على العكس من ذلك إلى تقديم العون .

ثم أصبح حلف وارسو الآن فى خبر كان ، والحالة فى حلف الأطلنطى مهزوزة غير

مستقرة، وهـذا شيء خطير لأن النـاتو المنبر الرئيسـى للأمن الجماعـى الأوروبى، وكـانت الولايات المتحدة تسيطر عليه سيطرة كاملـة، فهى التى تحمى دول الحلف بمظلتها النووية الاستراتيجيـة والمنتشرة فى الفضاء وعلى الأرض وفـوق سطح الماء وتحتـه، ولكن الحمايـة الآن ضد من؟ فالتهديد الذى كان يوحد أوروبا الغربية فى تجمعات عسكرية أصبح غير واضح فمن هو العدو الآن؟ وعلينا أن نتذكر أن الناتـو لا يضم كل دول أوروبا الغربية إذ لا يضم سويسرا والسويد وأيرلنـدا والنمسا ثم فرنسا التى مازالت تتبـع سياسة شارل ديجول فى عدم إخضاع قواتها النووية لقيادة الحلف والتى تسعـى كثيرا لتعزيز علاقتها مع دول شرق أوروبا وروسيا على رأس القائمة. هذه الأوضاع سببت « انفلاتا» غير معهود فى دول الحلف لدرجة أن جيمس بيكر فى اجتماع الحلف الذى عقد فى يونيو ـ حـزيران الماضى وجه حديثه بصوته البارد كالثلـج قائلا « لو قامت دول الحلف بـاتخاذ مبادرة أمنية منفردة فإن قـوات الولايات المتحدة الأمريكية سوف تسحب من أوروبا » وقام الرئيس جورج بوش وجيمس بيكر بإقامة اتحاد اقتصادى ـ قد يصبـح أمنيا فى المستقبل ـ بين الولايات المتحـدة وكندا وأصبح انضمام المكسيك إليه مسـألة وقت، فكانـت هذه الخطوة هى خطـوة لمواجهة مايمكن أن تـأتى به الأقدار من أوروبا، وقـد اعتبرها هنرى كيسنجر أعظم إجراء اتخذه نظـام الرئيس بوش على الإطلاق فهى خبطة معلم بحق.

وكأن كل هذه الفرقعات فى الجناح الغربى للبيت الأوروبى غير كافية لعدم الاستقرار إذ قامت أصوات تنادى بأن تجعـل للاتحاد الاوروبى الغربى دورا رئيسيا. Western European Union -WEU وهو يتكـون من دول البنلوكس وفـرنسا وألمانيا وإيطاليـا والبرتغال وأسبانيا وبريطانيـا، وتقوم فرنسا بمحاولة لدفع هذا الاتحاد للقيـام بدور فعال بعد أن ضل الناتو طـريقه إلا أن بريطانيا تعارض ذلـك ولاتقبل بديلا عن إصلاح شـؤون الناتو، ورغما عن ذلك فإن هناك أفكارا لإنشاء قيادة مشتركـة للاتحاد، بل وهناك تخطيط متكامل لإنشاء قوة انتشـار سريع خاص بـه. إلا أن الولايات المتحدة تعـارض هذه المحاولات بكـل قوتها بمساندة بريطانيا ودول البنلوكس.

وعرضـت فرنسا ـ المشـاغبة ـ بـرئاسة ميتران سيناريـو يثير الدهشة يقضى بـإنشاء اتحاد فيدرالى أوروبى يضـم روسيا ويستبعد الولايـات المتحدة للتصدى لمشاكـل أمن القارة، وفى المقـابل يعـرض جيمـس بيكـر سيناريـو تحالـف أمنى واسـع. هـو التحـالف الأوروبـى الأطلنطى من فـانكوفر إلى فلاديفوستـك سيمثل أوروبا وروسيا وأمريكـا وكندا، وفى مؤتمر الأمـن والتعاون الأوروبـى الذى عقـد فى برلين فى أواخـر يونيـو ١٩٩١ اقترح بيكر بعـض الأسس التى يقوم عليها التحالف الكبير : سياسة السماوات المفتوحة لمراقبة تنفيذ اتفاقيات تحديد السلاح وإجـراءات بناء الثقة والترتيبات المشتركـة لمنع الصراعات الإقليمية، وكـالة

دائمة للإشراف على المسائل المتعلقة بحقوق الإنسـان ، وضع مبادىء لتنظيم شؤون الهجرة ثم أخيرا النظـر فى بدائل تكفل حـرية التجارة واستبـدال الصناعـات الحربية بالصنـاعات المدنية .

من ذلك نرى أن البيت الأوروبى فى حالة من الفوضى ، وإن ظهر بخلاف ذلك فبعض سكـان هذا البيـت يتجه إلى النـاتو والبعـض الآخـر يتجه إلى الاتحاد الأوروبـى الغربـى ، البعض يتجه إلى الشرق والبعض الآخر يتجه إلى الغرب ، ثم نجد بعض سكان شقق البيت يتجهون جنـوبا إلى الـدول العربيـة على الشاطـىء الآخر مـن البحر المتـوسط . والـولايات المتحدة وهى فى معمة الانتخابات الرئاسية تحاول تنظيم التحركات وتبدو كرجل المرور الذى فقد سيطرته على ما يجرى من حـوله ، وهى لاتريد ان تعترف أن « الأولاد كبروا » وأن أوروبا أصبحـت أقرب إلى « مـدرسة المشـاغبين » منها إلى أولاد يصطفـون فى طابـور واحد ليـؤدوا التحية .

ولا أظن أن البيت العـربى فى حالة أفضل من نـاحية الفوضى التى تلفـه من الغرب إلى الشرق ، ولكن إن كانـت أوروبا تقوى على الاعتراض وإحداث الشغب فإن البيـت العربى لايقوى على ذلـك لأن البيت الأوروبـى أصبح له إرادة . أمـا البيت العـربى فهـو ينظر إلى مايجرى من حوله وقد فقد إرادته .

الفصل الخامس عشر

العلاقات العربية مع الجماعة الأوروبية
موضوعات مهمة على جدول الأعمال

بنهاية هـذا القرن، وربما قبل أو بعد ذلـك بقليل، سوف تكون الجماعـة الأوروبية قطبا مسموع الكلمـة فى رسم وتوجيه السيـاسة العالميـة، فهى منذ الآن وبـالرغم من صـداقتها اللدودة مع الولايـات المتحدة الأمريكية لاتقبل مجرد تفكير واشنطن فى اتبـاع سياسة الهيمنة على العالم لفرض مايسمى بالسلام الأمريكى . . فأوروبا شعوبا وحكومات تصاب بما يشبه «الأرتكاريـا» عندمـا تسمع بـذلك، فهـى الأقدم تـاريخا والأعمق حضـارة وثقافـة . . . صحيـح هبت الـولايات المتحـدة مـن الشاطئ الآخـر للأطلنطـى لمساعـدتها فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثـم هبت لمساعدتها بمشروع ماريشال لإعـادة بناء أوروبا بعد أن دمرتها الحرب . . ولكنهـا لن تسمح مرة أخـرى لكى تكون مسرحا لحرب تضعهـا فى نهايتها موضع من يستحق المساعدة، وبذلك فقد صممت على أن تدخل المنافسة العالمية بأسلحة من اختيـارها، وهـى الأسلحة الاقتصـادية والثقافيـة بعد تحييـد سلاح استخـدام القوة فى ممارسـة الصراع، وبعد زوال الخطـر الذى كـان يهب عليها مـن الشرق بعد سقـوط الاتحاد السوفيتى كدولة وعقيدة .

وعلاقة أوروبا بالبلاد العربية علاقات قديمة، وذكرياتها فى غالبها لاتبعث على الرضاء إذ اختلطت فيها الـدماء بوسائل الاستغلال التـى خلفت آثارها حتى اليـوم، ولكننا نسعى إليهم، وهم يسعون إلينـا لتحقيق المصالح المتبادلة متناسين ذكـريات الماضى، وهذا درس لنا فى علاقاتنا العربية ـ العـربية التى يجب أن تقفز فوق الآلام والضغائن والأخطاء، فليس فى السياسـة صداقة دائمة، ولاعـداوة دائمة فهى لاتعرف إلا المصـالح الدائمة، ثـم هناك درس آخر لابد من التوقف أمامه، فبالرغـم من أنه يوجد بيننا وبينهم البحر المتوسط إلا أن هناك مساعى متبـادلة لكى تجعل من البحر أداة وصل وليس أداة فصـل وقطع، خاصة فى ظل الثورة التكنولوجية وفى ظل ثورة وسـائل الاتصال والمعلومات، الأمر الذى يجعلنا نفكر كيف نجعل من البحر الأحمر والخليج العربى أداتى وصل لا أداتى فصل والعياذ بالله .

إذن فالعلاقات العربية الأوروبية التى سوف نتحدث عنها ليست وليدة فراغ كان موجودا بل هى حديث عن واقع ربما يتبدل ويتغير فى أسبقية مجالات العلاقات، وربما تكون العلاقات محل السعى المتبادل اقتصادية وثقافية وسياسية وجيوبوليتكية بنفس الترتيب الذى ذكرناه إذ تراجعت العوامل الجيوبوليتكية بتراجع احتمال استخدام القوة كوسيلة من وسائل الصراع إلى الحد الذى يتصور فيه الكثيرون ـ عن حق ـ أن عملية عاصفة الصحراء ربما تكون آخر عمل جماعى تستخدم فيه القوة لمدة طويلة قادمة بالطريقة التى استخدمت بها ضد العراق .

وعلينا أن ننظر إلى مستقبل العلاقات فى ضوء عدة اعتبارات ومتغيرات تحدث أمامنا سريعة متعاقبة، أهمها تحويل مسار اقتصاد كل الدول التى كان يضمها الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية إلى الاعتماد على قوى السوق والمنافسة الحرة بدلا من التخطيط المركزى والتدخل الحكومى، وسوف يؤدى هذا التحول إلى نتائج هامة لها تأثيرها المباشر على مستقبل العلاقات العربية ـ الأوروبية .

فالانفتاح الكلى والمفاجئ لاقتصاد أوروبا الشرقية وروسيا الاتحادية وباقى جمهوريات الكومنولث الجديد ــ أو على الأقل محاولاتها الجدية فى هذا الاتجاه ــ سيتسبب فى زيادة الطلب الكلى العالمى على السلع والخدمات الاستهلاكية مما يؤدى إلى العمل على زيادة الطاقة الإنتاجية للدول الصناعية المصدرة لتلك السلع والخدمات، وكذلك فإن الأوضاع المتردية للصناعات والبنية التحتية فى الدول الشيوعية سابقا ستتطلب الموارد المالية الضخمة لإعادة البناء مما يمكن أن يتسبب فى تحول النسبة الكبرى من حجم الإنفاق الاستثمارى إلى الشرق بدلا من الجنوب .

ولابد من أخذ هذه التحولات الهامة والخطيرة فى الاعتبار لأن الدول الأوروبية هى الشريك التجارى الأول للدول العربية، فكما جاء فى التقرير الاقتصادى الغربى الموحد لعام ١٩٩٠ . «إن السوق الأوروبية استوعبت نحو ٣٤٪ من الصادرات العربية كما أنها كانت مصدرا لنحو ٤٢٪ من وارداتها ثم تأتى اليابان التى اتجه إليها نحو ٢١٪ من الصادرات العربية، وكانت مصدرا لنحو ١٠٪ من الواردات العربية . أما الولايات المتحدة فالصادرات العربية إليها والواردات الأمريكية لها كانت فى حدود ١٣٪ . أما دول أوروبا الشرقية فكانت نسبة صادراتنا لها ٢ر٣٪ ووارداتنا منها ٣٪ عام ١٩٨٨» .

والموضوع المهم الآخر فى جدول الأعمال ربما يخص دول شمال أفريقيا وعلى وجه التحديد دول المغرب العربى، وهو موضوع تعتبره أوروبا تهديدا خطيرا لأمنها وهو تهديد ديموجرافى يتعلق بالهجرة العربية من الجنوب إلى الشمال فالجدول (١) يوضح الزيادة السنوية فى عدد

السكان فى كل من الجزائر وليبيا ومراكش وتـونس ، والجدول (٢) يوضح نسبة معدل النمو السنويـة فى تلك البلاد ، ويـوضح الجدولان أن نسبـة زيادة السكان أعلى بكثير مـن نسبة معدل النمـو مما ينتـج عنه بـالضرورة زيادة نسبـة الهجرة المغـربية إلى الشمال ، ويبلـغ عدد المهاجـرين إلى أوروبا مـن المغرب ٢ر٣ مليون مهـاجر من مجمـوع ٧ ملايين مهاجـر فى كل أوروبا وينظـر الأوروبيون إلى الهجـرة المغربية المسلمـة نظرة عـدم ارتياح كما نعـرف جميعا ، وعلينا أن ننظر إلى هذه المشكلة نظرة موضوعية وليس نظرة عاطفية ، فهم فى الشمال ينظرون هكذا إلى الموضوعات التى تتعلق بالأمن :

● فلـن يفيد فى حـل الموضوع معـالجته دعـائيـا على أساس أن القـوانين الأوروبية التـى صدرت والتى سوف تصدر قوانين عنصريـة ، لأن معالجة الموضوع على هذا الأساس سوف تزيد من الفجوة ولا تصل إلى حل .

● تلعب أوروبا دورا رئيسيـا فى اقتصاديات شمال إفريقيا ، ويكفـى أن ٥٣٪ من حجم تجارة المغرب مع دول الجماعة الأوروبية .

● تتمتع الصادرات المغربيـة بمزايا جمركية إلى أوروبا ، ولكن بحلـول عام ١٩٩٣ حيث سيتـم بناء السوق الأوروبية الواحدة Single European Market - SEM .

١ ـ عدد السكان بالمليون (١٩٨٤ ـ ١٩٩٠)

	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨	١٩٨٩	١٩٩٠
الجـــزائر	٢١ر٠٤	٢١,٨٥	٢٢,٥٢	٢٣,١٠	٢٣,٨٤	٢٤,٤١	٢٥,١٠
ليبيـــــا	٣ر٦٢	٣,٧٩	٣,٩٣	٤,٠٨	٤,٢٣	٤,٣٠	٤,٣٨
مـراكـش	٢١ر٥٤	٢٢,١٢	٢٢,٧١	٢٣,٣١	٢٣,٩١	٢٤,٢٠	٢٤,٥٨
تـونـس	٧ر٠٣	٧,٢٦	٧,٤٦	٧,٦٣	٧,٨١	٨	٨,٢٠

الجدول (١)

وحيث ستنضـم البرتغال وأسبـانيا نهائيـا إلى السوق سـوف تخضع الصـادرات إلى نظام الحصص وسوف تحدد الحصة على أساس متوسط صادرات المغرب فى السنوات بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ وكانت الصادرات وقتئذ متدنية بالنسبة لحالة الجفاف التي كانت سائدة .

٢ ـ معدل النمو (١٩٨٤ ـ ١٩٩٠)

	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨	١٩٨٩	١٩٩٠
الجزائر	١,٠	١,١ -	٣,٦ -	١,٧ -	٤,٣ -	,٢	٣,٥
ليبيا	١٢,٩ -	٧,٣ -	١٢,٥ -	٦,٩ -	٣,٢ -	٤,١	—
مراكش	١,٥	٣,٥	٥,٢	٥,١ -	٧,٦	٠,٢ -	١,٤
تونس	٢,٩	٢,٤	٤,٣ -	٣,٥	١ -	,٦	٢,٧

الجدول (٢)

● عند إنشاء السوق لن يسمح بمزيد من الهجرة بالرغم من العجز المتوقع فى نوع العمالة التى كان يقوم بها المغاربة فى حدود ٣٠٪ علاوة على التوسع المنتظر للسوق نتيجة انضمام دول أخرى له سيقفل الباب أمام تحول المهاجرين إلى دول أخرى فى الشرق مثلا، بل سوف تسد العمالة الزائدة فى دول أوروبا الشرقية وروسيا النقص المنتظر فى العمالة .

نتيجة لذلك فإن الدوائر الرسمية فى السوق الأوروبية تخشى حدوث اضطرابات فى دول شمال أفريقيا نتيجة لزيادة البطالة وخفض نسبة النمو، كما تخشى تصاعد التطرف وسط العمال العرب الموجودين الآن .

مشكلة لا ينفع فيها الصراخ المعتاد الذى لا يدخل « الكمبيوتر » عندهم ، وعلينا أن نحلها ، ذاتيا الأمر الذى يدعو إلى ضرورة العمل العربى الجماعى ، وإحتياجاتنا كبيرة إلى العمالة لونظمت أمورنا وحاجاتنا أكبر إلى رأس المال المغترب لنقيم المشروعات ولنزرع الأرض البور، فلدينا الدجاجة التى تبيض بيضا ، ولكننا مشغولون عنها بالتساؤل : هل الدجاجة أولا أم إن البيضة أولا ؟! وأظننا لن نعرف الإجابة طالما بقيت الأوضاع على حالها .

موضوع آخر على جدول الأعمال فى قضية العلاقات العربية الأوربية وهو يخص هذه المرة دول المشرق ودول الخليج وهم ـ فى أوروبا ـ يعتبرون أن تهديدا آخر يمكن أن يهب عليهم من هذا الاتجاه ، والتهديد المعنى ذو صفة أمنية بحتة وليس ديموجرافية كتهديد دول المغرب وذو طابع سياسى فى الوقت نفسه . . . التهديد الأمنى يتعلق بضمان استمرار تدفق النفط فى الخليج والذى يحوى ٦٢٪ من احتياجات العالم، والذى تعتمد أوروبا على ٢٥٪

من احتيـاجاتها من المنابـع هناك ، أما التهـديد السياسـى فله مصدران يؤثـران فى إستقرار المنطقة ، وهما إيـران والعراق فى الخليج الـذى ما زال يفتقر إلى نظـام أمنى فعال ، وكـذلك الصراع العـربى الإسرائيلى الـذى يهدد بـالانفجار ، وكما نـرى فـإن استمـرار هذه النقـاط الساخنة يؤثر تأثيرا كاملا على الاستقرار المطلوب لضمان تدفق النفط لتشغيل المصانع وبث الحياة فى كافة نواحى النشاط .

ومن تجربة عاصفة الصحراء فإن أوروبا أظهـرت انقساما واضحا أمام مواجهة أى تهديد لمنابع النفـط هناك ، فألمانيا ـ حتـى بعد وحدتها ـ لم تشترك فى القتال سـواء بقوات فعلية أو قوات رمزية واكتفت بدفع ٦ مليارات دولار بينما اشتركت بريطانيا بقوة تعدادها . . . , ٣٥ جندى وكذلك فرنسا ، فإنها اشتركت بقوة أقل من ناحية الحجم ، أما باقى دول أوروبا فقد اشتركت بأحجام بحرية وجويـة وإدارية محدودة ، وعلى ذلك فالدور الأوروبى لمواجهة أى تهديد بـالقوة سوف يكـون هامشيـا بالنسبة للـدور الأمريكى ، ويعتقـد معظم السـاسة فى أوروبا أن مـواجهة أى تهديـد بعمل عسكرى جماعـى كما حدث فى عـاصفة الصحـراء أمر لايمكن تكراره ، ولذلك فـالدول الأوروبية تفضل العمل السياسى عن طـريق تعزيز هيئة الأمم ومجلـس الأمن ، وربما أيضـا عن طـريق إلغـاء حق الفيتـو بالنسبـة للدول الأعضـاء الدائمين ، وكذلك الحال مع الصراع العربـى الإسرائيلى إذ تعتقد أوربا أن المفاوضات هى السبيل الوحيد لحل هذا الصراع ، وأوروبا ليست مستعـدة للدخول فى مواجهة مع إسرائيل لو استمرت فى عزوفها عن الوصول إلى حل يحقق العدالة .

هذه هى بعـض الموضوعات المهمة على جـدول أعمال العلاقات العربيـة الأوروبية التى يمكن أن تتم فى إطار مفـاوضات ثنائية بين دولة من هنا ودولة مـن هناك أو فى نطاق حوار عربى أوروبى أو ربما فى نطاق النادى المقترح لدول البحر المتوسط . وجدول الأعمال جاهز للاطلاع لمن يهمهم الأمر ليحددوا خطاهـم المقبلة وبسرعة ، حتى يصلوا إلى المحطة قبل أن يغادرها القطار .

الفصل السادس عشر

الحوار بين الشمال والجنوب

نقطة نظام واحدة نفتتح بها حديثنا عن الحوار بين الشمال والجنوب ، فالشمال أحد طرفى الحوار ليس كتلة واحـدة . والجنوب وهو الطرف الآخر فى الحوار ـ ليس أيضا كتلة واحدة فالتعميم إذن لـن يكون دقيقا كأساس للحوار، وتـرتيبا على ذلك فإن كل مانطمـع فيه هو تحديد الاتجاه العام للحوار .

كل ما فى الأمر أن سقوط الحواجز التى كانت تفصل بين الشرق والغرب وأهمها الحواجز العقائدية بنظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتناقضة جعل الشمال فى طريقه ليكون كتلة واحدة رغما عن الخلافـات الكبيرة التى مازالت قائمة والتـى لاتمنع دول الشرق من أن تسرع الخطى لـلاندماج مع الغـرب ، وتحفز الغرب لكـى يلاقى الشرق حتى بعـد منتصف الطريـق . والجنوب كـذلك ليـس كتلة واحـدة ففيه مـن الصراعات على الحدود والتفـرقة العنصرية والخلافات الإثنية مافيه ـ وفيه الدول التى تمتلك الثروة سواء كانت نفطا أو إحدى المواد الخام لأن الجنوب بـه أكبر خزان للنفـط فى منطقة الشرق الأوسـط أكبر خزان للمـواد الخام فى كل من الجنوب الأسيـوى والإفريقى إلى جانب الدول الفقيرة التـى لاتملك نفطا أو إحدى المواد الخام ، ولكن هناك عاملا مشتركا بين دول الثروة ودول الفقر وهو أن كليهما على حالة مؤسفة من التخلف .

ولاشك أن الحوار بين الشمال والشمال أو بين الشرق ـ باعتبار ماكان ـ وبين الغرب سوف يكون فى الأسبقية الأولى على جـدول أعمال ترتيب المدينة العالمية الكبرى التـى نعيش فيها ، لأن الجنوب يعيش فى قاع المدينة ويشغل الجانب المظلـم منها ويسكن فى أحيائها الوضيعة حيث يعـم الفقر والجريمـة والعدوان وحيـث تبدد الثـروات وتنعدم القـدرة على استغلال الإمكانيات المتـاحة . ومن الطبيعى أن يهتـم سكان الأحياء الراقيـة من المدينة العالميـة وهم أغنياء وأقويـاء بأنفسهم أولا، طالما لايهتـم سكان الجنوب بحالهم ولايسعـون بجد وإصرار للارتفاع بمستوى أحيائهم ، خاصة وأن أهل الشمال يتعاملون بالعقل بين أنفسهم وأنفسهم وبينهم وبين الغير وأصبحوا لايؤمنون بتقديـم العون للغير « فأن تعطى الجائع سمكة تكون

To: www.al-mostafa.com

قد وفرت له وجبة ، ولكن أن تعلمه صيد السمك تكون قد وفرت له موردا ثابتا للغذاء» كما أنهم فى عجلة من أمرهم وهم يصعدون سلم التنمية الشاملة بمفهومهم الخاص ، ولايؤمنون بالمثل الصينى الذى ينادى « بانتظار السمكة حتى لو جلست على شاطئ البحر لمدة ألف عام . » كما أن لأهل الشمال صفة أساسية تميزهم فى التعامل مع الأزمات ، يجعلونها أساسا للحوار إذ إنهم يميلون إلى التحرك بإرادات ناقصة ، ويؤمنون أحيانا كثيرة بالحلول الوسط ولايميلون كثيرا إلى استخدام القوة وهم يمارسون الدبلوماسية ، بل يحاولون دائما وهم يديرون الأزمات بين بعضهم البعض إلى استخدام كافة وسائل الصراع عدا القوات المسلحة ويتعايشون مع تناقضاتهم ويحاولون حلها بالتدريج على أساس الإرادات الناقصة وعلى أساس توازن المصالح وليس توازن القوى ، فكل الدول العظمى مثلا لديها الأسلحة النووية أى الرؤوس النووية ووسائل إطلاقها ، ولكنها لم تستخدم مرة واحدة بعد هيروشيما وناجازاكى ولم نسمع أن إحداها قام بغارة جوية لتدمير مفاعلات دولة أخرى مثل الذى فعله مناحم بيجن بضربه مفاعل « أوزيراك» العراقى ، وتصوروا معى إسحاق شامير وقد أتيحت له فرصة استخدام ما لديه من أسلحة نووية فماذا كان يفعل بنا وبنفسه؟ ! ألم يكن الزعيم السابق لعصابة « شتيرن» ليتردد فى هدم المعبد على رأسه ورؤوسنا فهو يؤمن بالحصول على كل شيء أو لاشيء ، ويؤمن بالأمن المطلق لإسرائيل وليس الأمن المتبادل مع الآخرين ، ويؤمن بتوازن القوى وليس بتوازن المصالح . . ولايحسن أصحاب القرار فى دول الجنوب فى غالبيتهم الحوار مع بعضهم البعض أو مع الآخرين تماما كإسحاق شامير ، وليس لديهم القدرة على الاتفاق على تناقضاتهم عن طريق الحلول الوسط .

فى مثل هذا المناخ لايتم الحوار الآن ، ولاينتظر له أن يتم فى المستقبل القريب بين طرفين مختلفين ليس فقط فى الثروة والقوة ، ولكن فى طريقة معالجة الأمور أيضا والنظرة إلى المشاكل وطريقة علاجها أيضا ، وفى رأينا فإن الاختلاف الأخير هو الأهم وليس هناك إلا بديلان لسد هذه الفجوة الخطرة فى أسلوب الحوار : إما أن ينظر الشمال إلى المشاكل بنظرة الجنوب أو أن ينظر الجنوب إلى التناقضات نظرة الشمال ، والبديلان كما يبدوان من الصعب حدوثهما على الأقل فى الوقت القريب ، وهذا سوف يجعل الحوار بين الجانبين « حوار طرشان» إلى الوقت الذى يتم فيه تجسير الفجوة الموجودة ولو تدريجيا .

ولكن ماهى الموضوعات الهامة التى يمكن أن تتضمنها قائمة جدول أعمال هذا الحوار؟

الموضوع الأول فى رأينا ـ وهو لب العلاقة الغريبة بين الطرفين ـ هو سيطرة رأس المال فى دول الشمال على الأسواق العالمية وعلى أسعار السلع المتداولة . ففى الوقت الذى تنخفض فيه مستوى أسعار المواد الخام انخفاضا كبيرا ترتفع أسعار المواد المصنعة والآلات والمعدات

ارتفاعا مستمرا، وهذا يوقع بالدول الآسيوية والأفريقية خسائر فادحة، إذ تجد أنه بينما يرتفع حجم صادرات هذه البلاد من النفط والمواد الخام الأخرى ينخفض حجم النقد الأجنبى نظير هذه الصادرات سنة بعد أخرى، وهذه الدائرة الشيطانية تجعل من المستحيل على دول الجنوب سد العجز فى ميزان مدفوعاتها أو ميزانياتها وتتفاقم هذه المشكلة بازدياد القدرة على مضاعفة الإنتاج عن طريق التقدم التكنولوجى مما يؤدى بالدول الصناعية فى الشمال إلى زيادة طلباتها على مواد الصناعة الأولية مما يؤدى إلى ارتفاع أسعار المواد الخام، وللحيلولة دون ذلك نشأت تشكيلة كبيرة من المواد الخام التركيبية التى يساعد بعضها المنتجات الطبيعية، كما يحل بعضها الآخر محل هذه المنتجات مما يؤثر على أسعار المواد الأولية الطبيعية فى السوق كصناعة خيوط الغزل الصناعية أو المطاط الصناعى أو الكاكاو أو الألماس والبلاتين، وبلاد الجنوب لايمكنها التحكم فى اتجاه الأسعار إزاء هذا التطور الخطير لأن المتحكمين فى المواد الطبيعية هم أنفسهم المنتجون للمواد الصناعية البديلة، فمثلا يستغل عمالقة المطاط فى الولايات المتحدة - فايرستون مثلا - مطاط الولايات المتحدة فى إنتاج المطاط الصناعى وفى الوقت نفسه تدير مزارع المطاط فى الملايو وأندونيسيا والبرازيل وفنزويلا وكولومبيا. أما مصانع المطاط الصناعى فتوجد فى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة حيث اليد العاملة أرخص من الشمال كما أن شركة « جوديير» تمتلك مزارعها من المطاط فى أندونيسيا وكوستاريكا والبرازيل وجواتيمالا. أما مصانعها لصناعة المطاط الصناعى فهى فى هيوستون بتكساس وأكرون بأوهايو. أما شركة « جودريتش» فهى التى تنتج الراتنج، وتتحكم فى شركة جيبون البريطانية للتقطير لتسيطر على تجارة الويسكى والجن فى بريطانيا ومعهما أكثر من مائة شركة فرعية تشتغل فى المركبات الكيماوية والكحول الصناعى وفى البلاستيك. ونظرا لما يتطلبه اكتشاف المنتجات الجديدة، والوصول بها إلى حد الكمال وإنشاء مصانع الإنتاج من رؤوس أموال ضخمة، أصبح إنتاج هذه المواد الصناعية حكرا على قلة من المؤسسات العالمية وتقوم هذه الشركات العملاقة بحشد قواها من أجل السيطرة وتجرى بينها منافسات وحشية طوال الوقت بغرض احتكار الأسواق ومنابع المواد الأولية اللازمة لا لإنتاج المواد الصناعية والتركيبية فحسب، ولكن من أجل إنتاج الصناعات المعدنية والإلكترونية والنووية أيضا ويعلق « كوامى نكروما» فى كتابه «الاستعمار الجديد» على ذلك بقوله « فبدلا من أن تقوم البلاد الإفريقية - وهذا ينطبق على دول الجنوب عموما - بعمل موحد لبناء اقتصاد إفريقى صلب نجد أنها تمنح امتيازات لاستغلال مواردها للآخرين فيزداد هؤلاء قوة ورخاء، وإزاء هذه السياسة لا يمكن أن نتوقع أن يوفر العائد الناتج من تصدير المواد الأولية ما يمكن البلاد الإفريقية من بناء صناعاتها الذاتية، فالعائد الذى تحصل عليه البلاد المصدرة للمواد الأولية لايكاد يذكر إذا قورن

بالأرباح الطائلة التى تحققها شركات الاحتكار صاحبة الامتياز والتى تلعب دورين : دور المستخرج ودور البائع . ».

وإزاء تدهور الحال تلجأ دول الجنوب ـ وهى تحاول الخروج من المصيدة ـ إلى الصياد الذى أدخلها فيها ليساعدها فى مأزقها الخطير، ومن الطبيعى فإن الصياد لا يمكنه أن يفتح الباب للفريسة لكى تنطلق بعد أن أصبحت فى يده. فتلهث الفريسة وراء طلب المساعدات، إما عن طريق الإعانات المباشرة من الدول الغنية أو عن طريق المنظمات الدولية التى تتحكم فيها هذه الدول برئاسة الولايات المتحدة، مثل البنك الدولى أو صندوق النقد الدولى بشروط مجحفة تؤدى إلى الرقابة الخارجية وحق التفتيش المستمر على طريقة الإنفاق. ومع استمرار تدهور الموقف تلجأ دول الجنوب إلى الاقتراض بفوائد كبيرة وتحت وطأة نظامها الاقتصادى الهش تعجز عن سداد أقساط القروض، بل عن سداد أقساط خدمة هذه القروض التى تتراكم بمضى الوقت ، والأخطر من ذلك فإن هذه القروض والإعانات تعطى بأهداف سياسية فتعزز من موقف بعض الدول وتقوض قدرة دول أخرى. فمن المعروف مثلا أن إسرائيل تعطى ٢ر١ مليار دولار كمعونة اقتصادية من الولايات المتحدة، ولكن حقيقة حجم المعونة التى لاترد هو ملياران و ٤٩٢ مليون دولار أى بفارق ٢٩٢ر١ مليار دولار عن الرقم المعلن بالإضافة إلى التبرعات الأمريكية التى تصل إلى مليارين آخرين فى السنة معفاة من الضرائب بل إن الخزانة الأمريكية تتحمل خسارة هذه الضرائب زائد السندات الإسرائيلية التى يشتريها مؤيدو إسرائيل وتبلغ ١٦ مليار دولار معفاة من الضرائب، وتتحملها الخزينة الأمريكية زائد الضمانات الأمريكية للقروض .

وكأن كل هذه المشاكل ليست بكافية أمام سكان الجنوب فأضيفت إليها مشاكل أخرى كثيرة مثل التسليح ونفقاته، فبالرغم من التصريحات العديدة للدول المنتجة للسلاح وهى الدول المركزية بضرورة تقييد نقل السلاح والتكنولوجيا إلا أن هذه القيود تنفذ بطريقة انتقائية للتلاعب فى موازين القوى خدمة لسياستها الكونية لخلق قوى إقليمية عظمى تحافظ على مصالحها بالوكالة ، وهذا التفاوت فى موازين القوى والإصرار على عدم حل المشاكل الإقليمية يخلقان سباق تسلح خطيرا تزداد خطورته فى ظل السيولة الرقابية نتيجة لسقوط الاتحاد السوفيتى وتفككه إذ تتسرب الأسلحة شديدة التدمير ويزداد تعقيد الأمور حينما نعلم أن البنوك وليس مصانع الأسلحة هى التاجر الرئيسى للسلاح، ولنضرب بذلك مثلا مجموعة كاليفورنيا التى تعتبر بنك أمريكا نواتها ويسيطر هذا البنك على شركات السلاح الآتية : روكويل العالمية ، لوكهيد، دوجلاس ماكدونالد صناعات ليتون، طائرات هوجز، بوشيل ، وعلاوة على ذلك فإن شركات السلاح أصبحت متعددة الجنسيات، فشركة لوكهيد الأمريكية على علاقة وثيقة بشركة مسرشميدت الألمانية وهذه لها علاقة مع شركة

إليتاليـا الإيطالية وشركة الفضـاء البريطانية وهى الشركـات التى أنتجت مشتركة مـع شركة داسو الفرنسية الطائرة التورناد ومتعددة الأغراض .

وبذلـك أصبحت الدبلـوماسية هـى فن الإمداد بـالأسلحة ، كما أصبحت البنـوك هى التاجر الرئيسى للسلاح .

هـذا هو الإطـار الخارجي للحـوار، ولكن دول الشمال قـد تـوجه الأسئلـة الآتية لـدول الجنوب : مـاهى خطتكم لتقـوية قواكم الـذاتية؟ هل تقـدرون على استغلال إمكانيـاتكم المتاحة؟ لم تتقـاتلون دائما بوحشية ولا تحاولـون حل مشاكلكم عـن طريق الحلول الـوسط؟ ولماذا تضعون أمـوالكم عندنا وأنتـم فى أشد حاجـة لاستثمارها فى بلادكم؟ هـل تعلمون أن مجموع الاستثمارات العـربية فى الـولايات المتحـدة وبلدان العـالم الأخرى فى مجال العقـارات وحدها ٣٥٠مليـار دولار، ومن الأوراق المالية فى الولايات المتحدة وحـدها ٦٥ مليار دولار بالرغم من أن العائد السنوى الصافى للعقارات هو صفر، وأن قيمة العقارات انخفضت ما بين ١٠ ــ ٢٠ فى المائة فى السنتين الأخيرتين؟ لم تشترون الأسلحة بهذا الحجـم المخيـف ولا تقدرون على استخـدامها الاستخـدام الأمثل ؟ هـل تحاورتم مـع بعضكم البعـض قبل أن تتحاوروا معنا كما نفعل فى الشمال ؟

وإلى هنا كـان الدوار قد أصابنـى ولم أعد بقادر على طرح مـزيد من الأسئلة التـى تقفز أمـامى فى تحد واضـح . وبصراحة كـاملـة عجزت عـن الإجـابة عنهـا رغما عن محاولاتـى المتكررة . ومن يجد الإجابة فعليه أن يفيدنا بها رجاء ، وله الأجر والثواب عند الله .

الباب الخامس ـ الفكر الإستراتيجى المعاصر وإدارة الأزمات

الفصل السابع عشر

الفكر الإستراتيجى المعاصر

كانت الإستراتيجية فى مفهوم القرن التاسع عشر والذى شاهد تطورا هائلا فى وسائل إطلاق النيران نتيجة لاختراع المدفعية والمدافع الرشاشة وكذلك فى خفة الحركة نتيجة لاستخدام السكك الحديدية لحشد القوات الكبيرة على مسافات بعيدة هى فن استخدام المعارك فى تحقيق الأهداف السياسية ، وقد ذهب كارل فون كلاويزوتيز فى كتابه فى الحرب Qn War إلى أن طريق الانتصار فى المعارك هو طريق الدم، وكان مفهومه أن النصر لا يمكن الحصول عليه إلا بالمعركة . يعنى كان المفهوم السائد هو استخدام القوة فى حالة الحركة للقضاء على العدو وتدمير قواته الأساسية .

وقد التزم جميع الإستراتيجيين بهذا المفهوم حتى قدم بازل ليدل هارت كتابه «الإستراتيجية ـ Strategy » والذى اعترض فيه على تعاليم كلاويزوتيز اعتراضا كاملا إذ ذكر أن قمة الإستراتيجى هى الحصول على النصر بتجنب المعركة ، وإن اضطررنا إلى ذلك فيكون الهدف الدائم هو الحد من الدماء والخسائر وذلك باستخدام « إستراتيجية الاقتراب غير المباشر ـ Strategy of Indirect Approach » بالعمل على الوصول إلى ما أسماه الموقف الحاسم خلف العدو والذى يجعل لنا اليد الطولى على مائدة المفاوضات ويضمن لنا فى نفس الوقت خوض معركة ناجحة إذا حتم الموقف استئناف القتال ، وإذا كان الموقف الحاسم الذى وصلنا إليه خلف العدو قريبا من الجبهة تكون النتيجة اسرع وإذا كان هذا الموقف بعيدا عن الجبهة فى منطقة خطوط المواصلات أو بالقرب من القواعد الهامة للعدو تكون النتيجة أحسم . . يعنى كان المفهوم الجديد هو التقليل من خسائر الحرب وتهذيب سلوكها باستخدام القوة عن طريق المناورات البارعة ، الأمر الذى أجاد استخدامه نابليون بونابرت فى معاركه الخالدة ، ولكن كان ليدل هارت هو الذى وضع النظريات المحددة بلا شك بعد أن استعان بأفكار « سن ـ تزو Sun - Tzo » القائد الصينى العظيم الذى عاش قبل الميلاد بمائة عام ، وقد اعتنقت إسرائيل هذه الإستراتيجية فى حروبها معنا ابتداء من حرب ١٩٤٨ وللاسف الشديد

فإن استراتيجيتها تلك لم تنل حظها من دراسة الفكر الإستراتيجى العربى حتى يمكن مواجهتها بإستراتيجية مضادة ، وقد رأيت الاهتمام بهذا الموضوع فى كتابى الأخير «الفرص الضائعة » والذى يوزع على نطاق واسع فى كل أنحاء العالم عدا مصر .

إلا أن نهاية الحرب العالمية الثانية شهدت تطورا خطيرا فى المفاهيم الإستراتيجية بعد ضرب هيروشيما وناجازاكى بالقنابل الذرية فى أغسطس / آب عام ١٩٤٥ وبعد تمكن الاتحاد السوفيتى من الوصول إلى حالة التعادل النووى Nuclear Parity عام ١٩٤٩ بامتلاكه الأسرار النووية وأصبح يملأ مخازنه هو الأخر بقنابله الفتاكة وقد نظر الجانبان إلى ما فى أيديهما من سلاح فتاك نظرة غريبة فى أول الأمر إذ تعامل الجانبان مع السلاح الجديد على أنه سلاح عادى أكثر فتكا وفى ظل هذا المفهوم استمرت الأسس الإستراتيجية عن استخدام المعارك كوسيلة لكسب الحرب سائدة ولكن سرعان ما إكتشف الجانبان أن السلاح الجديد لا يمكن استخدامه إلا إذا دمر العالم نتيجة لقوة انفجاره الهائلة وما يسببه من تدمير كاسح ونتيجة للإشعاعات المميتة التى تستمر لفترات طويلة تصل ربما إلى عشرات الأعوام . وكانت المفاجأة الكبرى للجانبين أنهما امتلكا سلاحا رهيبا لايمكن استخدامه ، فهو سلاح سياسى يعيش العالم فى ظله تحت مظلة الرعب النووى المتبادل ، وأصبح الشعب الأمريكى رهينة فى يد الكرملين وأصبح الشعب السوفيتى رهينة فى يد البيت الأبيض ، وكان من اللازم أن تعيش القوتان العظميان - فى ذلك الوقت - مع بعضهما البعض كعقربين فى أنبوب واحد إذا لدغ أحدهما الآخر فإن هذا الآخر سيلدغه قبل أن يموت على رأى « هوفمان » الأمريكى الذى كان من أوائل من كتبوا فى ذلك إلى جانب آخرين من أشهرهم هنرى كسينجر الذى كان فى ذلك الوقت أستاذا مغمورا فى هارفارد سرعان ما دفعته أفكاره الخلاقة إلى دوائر الشهرة .

ووجه الفكر الإستراتيجيى بمعضلة حقيقية وهو يواجه ولأول مرة سلاحا تحت اليد يستحيل استخدامه واتجه الإستراتيجيون إلى حقلين مختلفين فى الدراسة والتطبيق أحدهما على المستوى العالمى والآخر على المستوى الإقليمى : فعلى المستوى العالمى عالج المفكرون الإستراتيجيون الموقف بإستراتيجية نووية عمودها الفقرى الردع المتبادل وهو فن استخدام وسائل القتال لمنع القتال أو هوفن عدم القتال ، واخترع العلماء والمهندسون أسلحة فتاكة فى سباق مروع ، وكلما امتلأت المخازن بأسلحة الموت هذه كلما زاد ضمان السلام وتعذر القتال وساد الاستقرار وعن طريق نظريات كثيرة معقدة كنظريات الردع الشامل أو الردع المتدرج أو الحربين ونصف أو الحرب ونصف ساد العالم الصناعى نوع من أنواع السلام الواقعى Real Peace والذى يعنى التعايش مع

التناقضات الحتمية ومحاولة القضاء عليها باستخدام كافة وسائل الصراع عدا استخدام القوات النووية أو التقليدية خوفا من أن تتطور الحرب التقليدية إلى حرب نووية لأن أحدا لا يمكنه التحكم فى التصعيد إذا أطلقت الطلقة الأولى .

أما على المستويات الإقليمية فكانت الحروب مباحة ومسموحا بها على نفس النظريات المعروفة وعلى أساس مبادىء الحرب الثانية ، وأصبحت الحروب الإقليمية وسيلة لحفظ الاستقرار على المستوى العالمى باستخدام الأسلحة التقليدية بالوكالة ، فمصالح القوتين العظميين يمكن تحقيقها بطريقة غير مباشرة بالوكالة فى عهد الاستقطاب الذى عشناه ، وأصبحت الحروب التقليدية المحلية حروبا محلية عالمية يتحقق عن طريقها مصالح الدول المحلية المتقاتلة بطريق مباشر ومصالح الدول العظمى بطريق غير مباشر ، وهى خارج الملعب وأصبح التحكم فى موازين القوى الإقليمية هو وسيلة الدول العظمى المصدرة للسلاح فى التحكم على المستوى الإقليمى كان الإطار الذى تتم فيه السيطرة على مجريات الأمور لمنع التصادم المباشر بين القوتين العظميين تحكمه قاعدتان رئيسيتان :

● كل دولة إقليمية يمكنها إطلاق الطلقة الأولى فى المكان الذى تريده وفى الوقت الذى تريده وبالطريقة التى تفضلها ولكن بعد ذلك لا يمكن لهذه الدولة أن تنهى القتال فى المكان الذى تريده أو فى الوقت الذى تريده أو بالطريقة التى تريدها عن طريق التحكم فى تصدير السلاح حجما ونوعا .

● إذا اضطرت الظروف إحدى القوتين العظميين التدخل فى إحدى المناطق الإقليمية فإن الدولة العظمى الأخرى تحترم هذا التدخل ولا تدفع بقواتها إلى المنطقة الحرجة خوفا من الصدام المباشر، بل تتدخل بوسائل أخرى عن طريق كسب الرأى العام أو الإمداد بالسلاح أو فى المحافل الدولية .

وبالرغم من سير الأمور وتطورها إلى سباق تسلح رهيب بين الاختراق Penetra-tion والاعتراض Interception إلا أن الفكر الاستراتيجى اتجه إلى محاولة الحد من هذا السباق الرهيب عن طريق اتفاقيات الحد من الأسلحة خلال مفاوضات طويلة ومعقدة ومرهقة وعن طريق عدم الجدية فى حل الأزمات الإقليمية والاكتفاء بإدارتها وتغيير أشكالها لتلائم مصالح الدولتين العظميين، ولكن عن طريق هذا السباق وزيادة نفقات الدفاع زيادة رهيبة حدثت من الإنفاق فى المجالات الأخرى انتهى الاتحاد السوفيتى كدولة وعقيدة وتراجع الاقتصاد الأمريكى تراجعا كبيرا إلى الوراء وأصبح العالم فجأة وقد تخفف من الصراع بين الدول والعقائد على المستوى العالمى واختفى

الأعداء التقليديون بحيث أصبح تحديد « العدو » فى الصراع العالمى مشكلة حقيقية . فمن هو العدو العالمى لحلف الأطلنطى الآن ؟ هل هو حلف وارسو كما كان الحال من قبل ؟ إطلاقا فقد انتهى حلف وارسو وزال من الوجود وتحلل الاتحاد السوفيتى نفسه إلى ١٥ دولة تسعى كل منها إلى الاندماج فى الغرب واتباع اقتصاد السوق ولم تعد الشيوعية تحديا للرأسمالية بعد تحطيمها بيد أبنائها . . لقد اختفى العدو وأصبح صديقا مع ملاحظة أن للأصدقاء أحيانا متاعبهم الثقيلة .

بانتهاء الحرب الباردة بهذه الصورة واجه الفكر الإستراتيجى مشكلة حقيقية لدرجة أن أغلب المعاهد المتخصصة الإستراتيجية فى العالم تعكف الآن على تطوير نفسها لمواجهة العالم الجديد أحادى القطبية لدرجة أن إدارة معهد الدراسات الإستراتيجية بلندن .

The International Institute For Strategic Studies عقدت اجتماعا غير عادى لبحث التغيرات فى برامج المعهد واهتماماته . ذلك لأن هذا المعهد الهام أنشىء عام ١٩٥٨ فى وقت الحرب الباردة حينما كان يتهدد العالم الرعب النووى المتبادل وركز المعهد اهتماماته فى ذلك الوقت على الصراع بين الشرق والغرب . ولكن وبعد أكثر من ثلاثين عاما تضاءل هذا الخطر بعد تحلل الاتحاد السوفيتى وسقوط الشيوعية ووجد المعهد نفسه فى مأزق رأى مواجهته بتغيير الغرض من إنشاء المعهد ليصبح « دراسة المشاكل الأمنية العالمية ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والإستراتيجية والاجتماعية والخاصة بالبيئة » ولعلنا لاحظنا أنهم يريدون توسيع أفق المجالات التى يقتحمها المعهد تبعا لاحتياجات العالم المتغير .

وعلى المستوى الإقليمى خاصة فى منطقة الشرق الأوسط يواجه الفكر الإستراتيجى عدة تحديات نتيجة للتغييرات الكثيرة والسريعة فى المنطقة أهمها :

١ ـ على المستوى العالمى

أ ـ انتهاء سياسة الاستقطاب وتأثير ذلك على الاتجاهات السياسية للدول الإقليمية والحد من قدرتها على المناورة .

ب ـ الاتجاه إلى انتشار عمليات نقل السلاح والتكنولوجيا مما يقلل السيطرة على التحكم فى موازين القوى بطريقة اختيارية .

جـ ـ استخدام الشرعية الدولية استخداما انتقائيا لتكسير وتدمير ترسانات الأسلحة المحلية ، بل ولعلنا لاحظنا أن المحكمة الدستورية العليا فى الولايات المتحدة أعطت

الرئيسى الأمريكى الحق فى تكليف الأجهزة المختصة بخطف المتهمين المراد محاكمتهم أمام القانون الأمريكى فى أى دولة يراها .

٢ ـ على المستوى الإقليمى

أ ـ عدم إمكانية تنفيذ ميثاق الجامعة العربية أو اتفاقية الوحدة الاقتصادية والدفاع المشترك لعام ١٩٥٠ أو إعلان دمشق عام ١٩٩١ .

ب ـ وجود القوات الأمريكية وبعض قوات الدول الغربية الأخرى فى أماكن متعددة بموجب اتفاقيات موقعة وجار تنفيذها وبموافقة دول إعلان دمشق التى أعطت الحق لدوله فى اتباع ما تراه لتحقيق أمنهًا القومى .

جـ ـ عزلة النظام العراقى والتهديدات الموجهة إلى وحدة كيانه .

د ـ النقط الساخنة فى أكثر البلاد العربية واستمرارها وتهديدها لكيان بعض الدول .

هـ ـ زيادة المشاكل الداخلية الذاتية والانغلاق الفكرى فى مواجهتها .

و ـ مشاكل المياه والحدود والبيئة .

ز ـ احتمال الوصول إلى تسويات للصراع الفلسطينى الإسرائيلى والصراع العربى الإسرائيلى .

ح ـ القيود المفروضة على استخدام القوة فى حل الصراعات الإقليمية .

ط ـ المشاكل المترتبة على فجوات الغذاء .

..... إلخ

والفكر الإستراتيجى العربى مطالب بمواجهة المشاكل مواجهة عملية وعليه اقتراح الحلول العملية التى تتناسب مع الواقع والاهتمام ليس فقط بماذا نفعل ؟ولكن بكيف نفعل ما نريده أيضا ؟عن طريق الاحتمالات المتعددة والخطط العملية؟ . . الفكر الإستراتيجى العربى عليه أن يتصور كيف نبنى السلام فى منطقتنا وما دور القوة فى ظل القيود المفروضة على استخدامها ؟وكيف نواجه المشاكل العرقية التى تهدد كياناتنا مع تذكر أن ما كنا نقوله بالأمس غير صالح ليعلن اليوم، فالظروف اختلفت والمشاكل تنوعت والتحديات الداخلية أصبحت فى مستوى التهديدات الخارجية، وربما تفوقها ورياح التغيير تشمل كل شىء وعلى الفكر الإستراتيجى العربى مسايرتها وإلا انفصل عن الواقع وأصبح مجرد طلقات طائشة فى الهواء .

الفصل الثامن عشر

فن إدارة الأزمات العربية
فى ظل النظام العالمى المراوغ

المقدمـــة

على كل مساحة العالم العربى من المحيط إلى الخليج تتناثر الأزمات الساخنة التى تهدد بانفجارات مدوية وتعوق فى نفس الوقت جهود التنمية والسعى إلى الديموقراطية وتأمين حقوق الإنسان العربى وتقف حجر عثرة فى سبيل الوحدة أو العمل العربى الجماعى .

ووجود الأزمات أمر طبيعى فى العلاقات الدولية أو داخل الدولة نفسها ويعتبر ذلك التحدى الحقيقى الذى يواجهه أصحاب القرار ، فالتهديدات الخارجية Threats والتحديات الداخلية Challenges هى الشغل الشاغل ـ أو يجب أن يكون الأمر كذلك ـ للأنظمة الحاكمة التى ترغب دون شك فى إدارة الأزمات التى تتولد إدارة ناجحة تنتهى إلى حلها أو على أقل تقدير التخفيف من نتائجها وآثارها ، ولكن الملاحظ أن قدرتها على ذلك محدودة فهناك فارق كبير بين الرغبة والقدرة بدليل تزايد الأزمات وتعمقها بمرور الوقت ، الأمر الذى ينعكس على الشعب العربى فى كل مكان .

والسؤال الذى يطرح نفسه أمام هذا الموقف الخطير هو : هل هناك معرفة حقيقية بإدارة الأزمات والأسس التى تحكمها وتضبطها ؟ فالأزمات لها قواعد لإدارتها يجب الإلمام بها ، وهى من هذه الناحية علم ، ولكن تطبيق هذه المبادىء بما يتفق والظروف الضاغطة والمؤثرات المتغيرة والمواقف المفاجئة التى يفرضها الأطراف الآخرون يتوقف على القدرة الخلاقة لصاحب القرار أو مدير الأزمة ولذلك فهى من هذه الناحية فن ، ولذلك فإدارة الأزمات علم وفن ، ولكنها من الناحية التطبيقية فن أكثر منها علما لأنها تتعلق بموهبة القيادة التى لا يمكن أن تكتسب بالمعرفة أبدا وإن كانت المعرفة تصقلها وتهذبها وتعمقها .

ويزداد فن إدارة الأزمات صعوبة فى النظام العالمى الذى يتكون الآن بعد التحولات الكبرى التى فرضتها « البيروسترويكا » و « الجلاسنوست » وإن لم تحسم ـ هذه التغيرات ـ بصفة نهائية شكل النظام الذى ينمو نتيجة لتحلل الاتحاد السوفيتى كدولة وتآكل الشيوعية كعقيدة ومن المجازفة أن نوافق على رأى البعض الذين يصفون التحول بأنه انتقال من نظام عالمى ثنائى القطبية bilateral إلى نظام عالمى أحادى القطبية unilateral لأن هذا الوصف بعيد عن الدقة كما أننا نتحفظ على رأى الذين يوافقون على أن الحرب الباردة انتهت ، وأن العالم انتقل من مرحلة توازن القوى إلى مرحلة وحدة القوى ، كما كان ينادى به وودرو ويلسون بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أو إلى مرحلة الهيمنة الأمريكية Domination كما كان جورج بوش يأمل ويطمع . فالأمور كلها لم تستقر بعد ولذلك فإن النظام العالمى الذى نعيشه الآن نظام مراوغ Eva-sive الأمر الذى يحتاج إلى قدرة خلاقة عند إدارة الأزمات .

كانت إدارة الأزمات فى ظل النظام العالمى ثنائى القطبية أكثر سهولة من إدارتها فى ظل نظام « منفلت » Loose Order لم يستقر بعد على أسس محددة إذ كان القطب الأعظم قادرا على التحكم فى حركة اللاعبين players فى فريقه أو زبائنه Clients سواء فى اتجاه التحرك أو سرعته ، وكانت إدارة الأزمات ترتيبا على ذلك ناجحة تماما على المستوى العالمى فى ذلك الوقت ، فلم تقم مواجهة نووية أو تقليدية واحدة بين القوتين العظميين وليس معنى النجاح على المستوى العالمى أن يكون كذلك على المستوى الإقليمى حيث كان من المتفق عليه السماح بالقتال بين الدول الإقليمية كمتنفس للقوى العالمية خوفا من انفجارات مباشرة على المستوى العالمى ، ولذلك كانت الصراعات الإقليمية فى حقيقتها صراعات إقليمية بالوكالة أو صراعات إقليمية عالمية ، وقد تحكم ميزان الرعب النووى أو القدرة المؤكدة على التدمير فى تصاعد المواجهات على المستوى العالمى ، كما تحكمت قوانين نقل السلاح والتكنولوجيا Arms & Tech-nology Trans fer من الدول المركزية إلى الدول الهامشية فى الصراعات المباشرة ولذلك كانت المبادىء الثلاثة الآتية تتحكم فى إدارة الأزمات .

● المبدأ الأول هو إدارة الأزمات وليس حلها .

● المبدأ الثانى هو تطبيق إستراتيجة الربط Linkage أى التحرك على جبهات واسعة مع الربط بين الأزمات المختلفة لتحقيق المكاسب على طريقة الكسب « بالنقط » وليس «بالضربة القاضية » . . نقطة هنا ونقطة هناك .

● ضرورة فتح القنوات Channel بين أطراف النزاع حتى يستمر الحوار لأن إدارة الصراع لا تعرف القطيعة حتى مع وجود الخلاف .

ولكن ما هى الأزمة ؟

الأزمـــة Crisis

كانت أزمة انتشار الصواريخ السوفييتية فى كوبا هى أول أزمة يواجهها الرئيس الأمريكى جون كنيدى بعد أسابيع من دخوله البيت الأبيض عام ١٩٦٢ وكانت الأزمة حادة بحق هددت بمواجهة نووية بين القوتين العظميين لأن الصواريخ السوفييتية أصبحت وهى فى كوبا فى بطن الولايات المتحدة ، وهذا أمر خطير لأن القوة العظمى لا تقبل من يلعب فى بطنها بأى حال من الأحوال وأديرت الأزمة وفتحت القنوات ثم انتهت على أساس الحلول الوسط بقبول الاتحاد السوفيتى سحب الصواريخ من كوبا وتعهد الولايات المتحدة بألا تعمل على تغيير النظام هناك وصرح « روبرت ماكنمارا » وزير الدفاع الأمريكى فى ذلك الوقت عقب انتهاء الأزمة « لقد انتهى عهد الإستراتيجية وبدأ عصر إدارة الأزمات » .

والأزمة كما يعرفها « ألستار بوخان ـ Alustar Buchan » فى كتاب « إدارة الأزمات» عبارة عن تحد مرتب ورد فعل مرتب بين طرفين أو عدة أطراف يحاول كل منهم تحويل مجرى الأحداث لصالحه أما كورال بل فتعرفها بأنها ارتفاع الصراعات إلى مستوى يهدد بتغيير طبيعة العلاقات بين الدول (*) ونعرفها فى كتاباتنا بأنها « سواء كانت عالمية أو إقليمية مجموعة من التفاعلات المتعاقبة بين دولتين أو أكثر تعيش فى حالة صراع شديد يصل أحيانا إلى احتمال عال لنشوب الحرب ووقوعها ، وفيها يواجه صاحب القرار موقفا يهدد المصالح العليا للوطن ويتطلب وقتا قصيرا للتعامل مع هذا الموقف باتخاذ قرارات جوهرية » ويعجبنى قول ريتشارد نكسون وهو يلخص رأيه فى تعريف الأزمة . إن مفهومى الأفضل للأزمة توضحه الطريقة التى يكتب بها الصينيون الكلمة باللغة الصينية إذ يرمزون لها بشكلين : أحدهما يعبر عن الخطر والآخر يعبر عن الفرصة (*) ، وهو يعنى بالخطر احتمال تصاعد الأزمة إلى مستوى المواجهة باستخدام القوة ويعنى بالفرصة سرعة اتخاذ القرار لتطويع اتجاهات الأحداث بما يخدم أغراض الدولة ، فالتصرف الموضوعى المحنك والبارع أثناء تطور الأزمة يوفر القدرة على دفع النظام العالمى أو الإقليمى لإيجاد حل لصالحنا أو يقلب أسبقيات الأحداث بحيث

(*) Coral Bell - The Conventions of Crisis, A Study in Diplomatic Management , oxford University Press 1971.

(*) Richard Nixon, 1999 Victory Without War, Sindwick Jackson, London , 1988.

تصبح الأغراض الهامة أغراضا فرعية بدفع أحداث ثانوية لتغيير مجرى الأمور ، وإسرائيل تفعل ذلك دائما فهى تخلق أزمات متتالية ، إما لتغيير الأمر الواقع أو لتمييع المواقف كما فعلت أخيرا بخلق أزمة المبعدين لتحويل الأنظار عن المباحثات الرئيسية .

والخصائص الرئيسية للأزمة هى :

- نقطة تحول فى أحداث متعاقبة أصبحت تهدد أهدافا عليا للدولة .

- تتزايد فيها الحاجة إلى فعل مؤثر لمواجهة الظروف المتجددة التى تعتبر تحديا ثقيلا يهدد مصالح أحد الأطراف .

- تحتاج إلى قرارات مصيرية لمواجهة أحداثها إذ تشكل نتائجها تحولا فى مستقبل الأطراف .

- تتميز بدرجة عالية من الشك فى الخيارات المطروحة ويجرى التحدى والرد فى مناخ من الترقب فى ظل نقص المعلومات وعدم وضوحها تحت ضغط نفسى تحسبا للتصرفات الجامحة أو المتاحة .

- تسبب أحيانا حالة عالمية من التوتر خلال فترة قصيرة وتكون عامل جذب لقوى أخرى بدرجات متفاوتة .

إدارة الأزمة Crisis Management

الغرض من إدارة الأزمة هو تغيير الأمر الواقع مع تجنب القتال باستخدام القوات المسلحة فإذا تطورت الأزمة إلى قتال بين أطرافها تعتبر الإدارة فاشلة وقوانين إدارة الأزمة تختلف كلية عن قوانين ومبادىء القتال ، والوسيلة الوحيدة لإدارة الأزمة هى الردع وقد سبق أن عرفناه مرارا .

وعلينا ونحن ندمر الأزمة عدم التورط فى تصريحات غوغائية حماسية لأن مثل هذه التصريحات ليست عديمة القيمة فحسب ، بل تكون ضارة أيضا لأن الردع عن طريق الكلام والذى لا يستند إلى إمكانيات حقيقية عديم التأثير على طرف آخر يجيد حساباته بما يدفعه إلى اتخاذ قرار ليس فى مقدورنا أن نحتمله لأن الردع يتحقق بمعادلة ثلاثية الأطراف هى :

١ ـ توفر وسائل الردع التى يمكن استخدامها فى القتال إذا دعت الظروف إلى ذلك .

+ ٢ ـ تبليغ الطرف الآخر بذلك بصورة واضحة لا تدعو إلى الشك .

+ ٣ ـ تصديق الطرف الآخر للرسائل المرسلة .

والمعادلة واضحة لا تحتاج إلى تفسير ، فالجعجعة دون وجود القوة التى تتناسب معها إسقاط لطرف من أطراف المعادلة وعن طريقه يمكن أن يبدأ القتال وإخفاء النيات وعدم التبليغ عن القوة للطرف الآخر إسقاط لطرف من أطراف المعادلة ، وعن طريقه يمكن أن يبدأ القتال وكذلك الحال مع الطرف الثالث للمعادلة .

وقد حدث فى عملية « عاصفة الصحراء » أن قام الحلفاء لحشد قواتهم تحت اسم عملية درع الصحراء وكانت الإمكانيات كبيرة تمت فى وضح النهار ، وكان يعلن عنها بكل وسائل الإعلام ولكن القيادة السياسية العراقية لم تصدق إمكانية استخدام القوات المسلحة ضدها وهنا لم يتحقق الردع . وإذا أخذنا الأمر بطريقة معكوسة فإن العراق حشد قوات كبيرة وأبلغ ذلك للطرف الآخر ولكن الحلفاء لم يصدقوا أن القوة العراقية لها حجم المصداقية الذى يتناسب مع ما يذاع فلم يتحقق الردع . وقد حدث هذا عام ١٩٦٧ حينما حشدت القوات العربية فى الجبهات الشمالية والشرقية والجنوبية وكانت الحشود تتم فى وضح النهار وأذيعت تهديدات القادة بمختلف وسائل الإعلام إلا أن إسرائيل لم تصدق أن القوة العربية قادرة على تنفيذ تهديداتها فلم ينجح الردع وحصل القتال .

ولذلك فإدارة الأزمة تحتاج إلى :

● معلومات دقيقة ومن الغريب حقيقة أن توفر المعلومات ربما لا يكون كافيا لتوضيح الأمور إذ يسبق ذلك القدرة على تحليل هذه المعلومات للوصول إلى النيات الحقيقة .

● التأكد من أن ردود الأفعال تتناسب مع الأفعال .

● الاستعداد بعد الرد مباشرة لمواجهة موقف جديد قد يتخذه الطرف الآخر .

● إبقاء الهدف الإستراتيجى واضحا ومحددا بحيث لا يطغى عليه تعاقب وتزاحم الأفعال وردود الأفعال .

● الإدراك الواعى لحقيقة أن أى أزمة تجرى فى أوضاع موازين محلية وإقلمية وعالمية لابد من أن يضعها صاحب القرار فى الحسبان .

وكما نرى فإنه عند إدارة الأزمة يجد مديرها وهو صاحب القرار نفسه وهو يتعامل بمهارة مع قدرتين رهيبتين : القدرة على توجيه الضربة الأولى والقدرة على توجيه الضربة الثانية . وكما سبق القول فإن إدارة الأزمة تهدف إلى تجنب القتال أى يقوم كل

طرف بمنع الطرف الآخر من توجيه الضربة الأولى علما بأنه يمكن لأى طرف من الأطراف أن يوجهها فى المكان الذى يريده والوقت الذى يريده والطريقة التى يخطط لها، ولكن يحول دون ذلك القدرة على توجيه الضربة الثانية وبمعنى آخر فإن الذى يمنع الفعل هو القدرة على رد الفعل . هذه المعادلة البسيطة هى التى حققت ومازالت تحقق الاستقرار العالمى قبل نهاية الحرب الباردة وبعد انتهائها، فقوة الرد التدميرية النووية هى التى كانت ومازالت تمنع قوة توجيه الضربة الأولى .

ومن وقت بداية الأزمة حتى انتهائها على صاحب القرار إجراء حساباته الدقيقة على ما يحدث من تغيير فى موازين القوى حتى تصدر القرارات مطابقة للواقع المتغير والتعامل فى هذه الأثناء يتم مع القوى المتضادة وهى فى حالة الثبات Static وتأثيرها وهى فى هذه الحالة يعادل تأثيرها وهى فى حالة الحركة Dynamic والكل يهدف وهو يدير الأزمة إلى منع القوة من التحرك من مخازنها .

وسط هذه الظروف المعقدة يختار صاحب القرار قراره من بدائل صعبة وربما سيئة وقد يلجأ إلى التهديد باستخدام القوة ، وعليه قبل أن يفعل ذلك التأكد من أن توازن القوى فى صالحه ، وأنه إن أقدم على ذلك لا يزيد الأمور تعقيدا من جانبه ، ولكن هناك خطرا كبيرا عليه وهو يقوم بتهديده إذ قد يدفع ذلك الطرف الآخر إلى القيام بضربة وقائية مسبقة ، وهنا يبدأ القتال ولذلك فعلى صاحب القرار وهو يفعل ذلك ألا يتجاوز النقطة التى يمكن أن يتحمل فيها الطرف الآخر الهزيمة التى تضعه فى موقف حرج يدفعه دفعا إلى تقبل القتال . والقاعدة الذهبية أن تعمل الأطراف المتنازعة على توفير مخارج متبادلة بدلا من العمل على سد الطرق وقفل القنوات . كذلك عليهم القيام بمبادرات معقولة تساعد على عدم حدوث الصدام المباشر .

وأهم عامل عند التهديد باستخدام القوة هو توفر العزيمة الكاملة لاستخدامها إن تطورت الأمور إلى حتمية ذلك مع توفر القدرة على امتصاص الضربة الأولى التى قد يقدم عليها العدو نتيجة ذلك ، مع توفر القدرة بعد ذلك على توجيه الضربة الثانية . ودائمًا ما تقوم إسرائيل بتوجيه الضربة الأولى وتمنع العرب من توجيه الضربة الثانية وفى نفس الوقت . وكما حدث فى حرب ١٩٧٣ تعمل على توفير القدرة على امتصاص الضربة الأولى الموجهة إليها ثم القيام بتوجيه الضربة الثانية ، ففى حرب ١٩٦٧ وجهت لنا الضربة الأولى وحالت بيننا وبين توجيه الضربة الثانية وفى حرب ١٩٧٣ وجهنا لها الضربة الأولى فى جبهتى الجولان والسويس ولكن بعزيمة متراخية مكنتها من امتصاصها وتوجيه الضربة الثانية لنا على كلا الجبهتين .

والحل الوحيد للتصدى للأزمات المتلاحقة التى تصنعها إسرائيل هو توفر القدرة على توجيه الضربة الثانية أى توفر القدرة على العقاب، وإن توفرت هذه القدرة فإن إسرائيل سوف تحد من خلق الأزمات المتلاحقة لأن ممارسة الدبلوماسية دون قوة قادرة على العقاب هو مجرد وهم .

المعلومات والرسائل والوسطاء

عند إدارة الأزمة لابد من توفر المعلومات الحقيقية عن قدرتنا الفعلية وقدرات الطرف الآخر وكذلك عن الأصدقاء ولابد أن نفرق بين الأخبار Newsوالمعلومات In-formation فالقرارات لاتصدر إلا بناء عن معلومات والمعلومات هى أخبار مؤكدة وإذا حالت الظروف دون توفر المعلومات المطلوبة نتيجة لتقصير أجهزة الحصول على المعلومات على صاحب القرار أن يلح فى طلبها حتى تكون خريطة الموقف واضحة . وسيل المعلومات الذى يتدفق عبر القنوات الخاصة بها لابد من تحليله لتجسيد الصورة الكاملة ، فهذا حتمى لصدور قرار سليم مع تذكر أن قرار ا سليما بنسبة ٦٠ ٪ يصدر فى الوقت المناسب أفضل من صدور قرار سليم ١٠٠ ٪ بعد فوات الأوان ، وهذا هو العامود ا لفقرى لإدارة الأزمة كفن إذ يتوقف ذلك على القدرة الخلافة لمدير الأزمة والتى لا يمكن توفر ها بالمعرفة فقط ولكن بالموهبة أيضا ، والتى لاتتوفر لكل مدير أزمة

وقد تصل المعلومات عن نيات الطرف الآخر على شكل رسائل وأخطر الرسائل وأهمها هى نلك التى تطلق عبر القنوات المختلفة بطرق غير محددة أى رسائل دون عنوان المرسل إليه ، وهى تدل على حقيقة النيات، وعموما فلا بد من العناية الكاملة بتسلم الرسائل وفضها وقراءتها وعدم تجاهلها وذلك بالرد عليها وكما قلنا سابقا فليس ضروريا أن تكون هذه الرسائل من تلك التى تكتب وتوضع فى الأغلفة وترسل على صناديق البريد ، بل ربما تكون نتيجة لتصرفات معينة أوكلمات مرسلة أو اتصالات لها معنى ، وقد توفر الأطراف المعنية قنوات خلفية Back Channels يتم عن طريقها الاتصالات غير الرسمية كتلك القناة التى قمت بإنشائها وقت أن كنت رئيسا للمخابرات العامة فى الستينات مع وكالة المخابرات المركزية CIA لتبادل الرسائل والتى استخدمت بعد ذلك للاتصال بين القيادة المصرية السياسية والبيت الأبيض قبل وأثناء حرب ١٩٧٣ وأخطر الرسائل التى أرسلت عبر هذه القناة هى تلك الرسالة الخطرة التى أرسلها الرئيس السادات يوم ٧/ ١٠ / ١٩٧٣ أى اليوم الثانى لعبور قناة السويس وفيها « إن مصر لا تعتزم تعميق الاشتبا كات أو توسيع المواجهة » وفسر المرسل إليه وهو الدكتور هنرى كسينجر هذه الرسالة بأن «مصر لاتنوى استئناف عملياتها الهجومية ضد

إسرائيل متجاوزة الأرض التى كسبتها »ودخل إلى قاعة المؤتمر الذى أمر بعقده لمجموعة الأمن القومى « ليؤكد أن تقديره أن السادات سوف يتوقف بعد عبور القناة فلا أظن أنه وراء اختراق أعمق »، وبنى على هذه الرسالة الغريبة الثمينة كل إستراتيجية الأيام التالية » (*) وكذلك الحال مع ما قالته السفيرة « إيريل جلاسبى » سفيرة الولايات المتحدة فى العراق فى مقابلتها مع الرئيس صدام حسين يوم ٢٥/ ٧/ ١٩٩٠ بناء على طلب الرئيس العراقى فقد أعطى لكلام السفيرة أكثر مما كان يستحق لأن السفيرة لم يكن لديها ما تقوله !!! فالاستدعاء تم بواسطة الرئاسة العراقية وترتب على التفسير الخاطىء لما قالته السفيرة إلى جانب أسباب أخرى تداعى الأحداث كما هو معروف .

وهناك « الوسطاء » Intetmediaries الذين تدعو الظروف لاستخدامهم إذ يندر أن تدار أزمة دون وسيط ، ولابد أن نفرق بين الوسيط والمتدخل Intervener فالأول يستمد قوته من رضاء الطرفين على وساطته . أما الثانى فلديه القدرة الذاتيةعلى التدخل حتى لو لم يوافق الأطراف أوبعضهم على ذلك ، ويميل البعض إلى اتخاذ الأمم المتحدة كوسيط مثل وساطات همر شولد أو يارنج ، ولكن عادة لايصل هؤلاء إلى نتائج يعتد بها ويجب أن يكون الوسيط على معرفة تامة بالمشكلة التى سببت الأزمة كما يجب أن يكون على صلة بالطرفين أو الأطراف المعنية .

وللتنسيق بين كل هذه الجهود ينشأ مايعرف « بمركز إدارة الأزمات » CrisesMan-agement Centre والغرض الأساسى منه استقبال كل المعلومات والرسائل والنتائج التى يصل إليهاالوسطاء ثم تقييم الجهود المبذولة وتحليلها لإيجاد البدائل لمواجهة المواقف المتجددة ثم مساعدة مدير الأزمة على إصدار قراره ، ويجب أن يتوفر لهذا المركز شبكة مواصلات ممتازة للاستقبال والتصدير ، وكذا مكان مخصص للخرائط يعمل عليها متخصصون لتوضيح الموقف أولا بأول ثم غرفة يجتمع فيها مع صاحب القرار ورؤساء الأجهزة الذين يساعدونه على اتخاذ قراره .

وتنظيم القوات المسلحة سواء فى السلم أو الحرب يناسب تنفيذها للقرارات بطريقة عملية لأن القوات المسلحة لاتدير أزمة ، بل هى عنصر من العناصر التى يستخدمها صاحب القرار سواء بالتهديد باستخدامها أو استخدامها فعلا - وعلى ذلك فما يقال أحيانا من أن القوات المسلحةتعد لنفسها مركزا لإدارة الأزمات قول غير دقيق ، بل غير صحيح فهى تتلقى الأوامر من قيادتها السياسية ولديها التنظيم الكفء الذى ينفذ هذه القرارات .

(*) أمين هويدى الفرص الضائعة - القرارات الحاسمة فى حربى الاستنزاف وأكتوبر - شركة التوزيع والنشر - بيروت - ١٩٩٢ .

ذروة الأزمة The Peak Of The Crisis

لكل أزمة نقطةذروتها وهى النقطة التى تنحدر فيها الأحداث للوصول إلى المواجهة المباشرة باستخدام القوات المسلحة أو تتراجع فيها لفتح الطريق إلى التجميد أوالحل وهذا يقتضى التقييم الصحيح لنيات العدو أى عدم إغفال السبب الحقيقى للأزمة حتى لا يضيع وسط الضباب الذى يفرضه تلاحق الأحداث . وأحيانا يميل طرف من أطراف الأزمة إلى دفع الأمور إلى حافة الهاوية أو إلى الذروة حتى يقلل من عناد الآخرين وعلى مديرى الأزمات التمييز بين الوصول إلى الذروة بهذه الطريقة الضاغطة وبين الوصول الحقيقى إلى الذروة مما ينذر بالخطر .

وفى أزمة السويس علم ١٩٥٦ إثر تأميم الرئيس عبد الناصر لقناة السويس مثلا كان يؤمل أنه بمرور الوقت سوف تتفادى مصر العدوان، فاحتمالات لجوء الغرب إلى استخدام القوة يصل إلى ٨٠ ٪ فى الأسبوع الأول بعد التاميم ويتناقص إلى ٤٠ ٪ فى شهر أغسطس / آب ثم ينخفض إلى ٢٠ ٪ خلال أكتوبر / تشرين أول ثم ينعدم بعد هذا التاريخ وتتطور الأمور إلى الحل السلمى بعد ذلك ولذلك فإنه وحتى صباح ٢٩/ ١٠/ ١٩٥٦ وهم يوم العدوان الثلاثى لم يصدق المعلومات التى أرسلها كل من ملحقينا العسكريين فى باريس وأنقرة والتى كانت تحوى نص اتفاقية « سيفر » بين الدول المعتدية الثلاثة . . كان يظن أن الأزمة قد وصلت إلى ذروتها منذ أسابيع وأنها فى طريقها إلى الحل السلمى . . . . والسبب فى ذلك هوتجاهل عامل الوقت والمسافة لإتمام حشد القوات اللازمة للعدوان فى قبرص والقواعد الأخرى مما يحتاج إلى ، وقت ، خاصة وأن أماكنها كانت بعيدة عن القواعد الأمامية للعمليات ، وكذلك الحال فى عملية عاصفة الصحراء التى كانت تحتاج إلى عدة شهور لحشد القوات فى القواعد الأمامية فى السعودية والخليج وتركيا وقدتم ذلك فى عملية « درع الصحراء » .

وعلى صانع القرار أيضا أن يضع عينيه دائما على السبب الحقيقى للأزمة حتى يفهم المعنى الحقيقى للمبادرات والمبادرات المضادة وبعكس ما يعتقده الكثيرون فإن صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ كانت السبب الحقيقى للعدوان الثلاثى ولم يكن تأميم القناة إلا حافزا له لأن صفقة السلاح كانت تتعلق بتوازن القوى على المستويين العالمى والإقليمى . أما التأميم فكان يمكن تطويق نتائجه بتعويض حملة الأسهم كما صرح كريستيان بينو وزيرخارجيه فرسا وقت العدوان الثلاثى «لقد انتقدنا البعض لاننا خضنا حربا من أجل حماية شركة قناة السويس المؤممة ، ولم تكن هذه هى القضية إذ كنت أعرف منذ البداية أنه من الممكن الوصول إلى حل بالاتفاق على تعويضات للشركة

والمساهمين ولكن كانت القضية تتعلق بإستراتيجية العالم الغربى (*) التى كانت تعتمد على حرية الملاحة فى القناة والتى أصبحت مهدده بالوجود السوفيتى فى المنطقة بعد اتفاقية السلاح بين مصر وتشيكوسلوفاكيا إذ غير الوضع الجديد الخريطة الإستراتيجية للمنطقة كما كتب المارشال تمبلر رئيس أركان حرب الإمبراطورية فى دراسة كلفه بها المستر أنطونى إيدن بتاريخ ١٥ / ٥ / ١٩٥٥ «أحدثت صفقة الأسلحة تغييرا جوهريا فى طريقة الدفاع عن الشرق الأوسط فقد قفز السوفييت فوق حلف بغداد ليصبح لهم وجود سياسى فى قلب المنطقة ، وحكومتنا مطالبة بالتنسيق مع الولايات المتحدة لاستعادة المبادرة » كما أكد موشية ديان أن اشتراك إسرائيل فى مؤامرة السويس كان بغرض تحطيم أسلحة الجيش المصرى التى تسلح بها عقب الصفقة التشيكية قبل استيعابها بواسطة القوات المصرية (*) .

وكذلك الحال فى أزمة الصراع العربى الإسرائيلى فإسرائيل تعانى من « الهاجس الاقتصادى الذى يتمثل فى سوق الشرق الأوسط بحيث يدار الاقتصاد إقليميا من خلال صفقات عمل تقوم على طاقات عدة : النفط العربى ، المياه التركية ، الكثافة السكانية ، السوق المصرية الكبيرة وأخيرا الخبرة أو المهارة الإسرائيلية ، وإسرائيل بذلك تواجه خيارا حادا أن تكون إسرائيل الكبرى اعتمادا على عدد الفلسطينيين الذين تحكمهم أو أن تكون إسرائيل الكبرى اعتمادا على حجم واتساع السوق الواقعة تحت تصرفها (*) وهذا الغرض أو كل إلى المباحثات متعددة الأطراف لتنفيذه .

وعلى حافة الفجوة الكبيرة التى تحدها منطقة الذروة التى يتحاشى الجميع الوصول إليها من جانب والغرض الأساسى من الأزمة الذى يريد كل جانب أن يصل إليه ويحققه من جانب آخر يتم تبادل المبادرات ، إما مباشرة بالاتصال المباشر أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الوسطاء .

(*) تماما كما حدث فى عملية عاصفة الصحراء فإن كان الغرض من العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ تأمين خطوط المواصلات الغربية ، خاصة خطوط نقل البترول كان الغرض من عملية عاصفة الصحراء عام ١٩٩١ تأمين المنابع وعدم وقوعها تحت سيطرة العراق .

(*) Amin Hewedy with others, chapter 8 , Nasser and the Crisis of 1956, Suez 1956, Edited by WM. Roger Louis , Rog wen, Clarendon Press OxFord 1989.

(*) شمعون بيريز ـ كلمة ألقاها بمركز دراسات الشرق الأوسط فى القاهرة ويتلاقى معه فى نفس الإتجاه الدكتور يوسف والى نائب رئيس الوزراء لشئون الزراعة فى أحاديثه فى الأهرام القاهرية التى ينادى فيها بسوق اقتصادية موحدة بالمنطقة تضم مصر وإسرائيل وآخرها تصريحه يوم ٦/ ٣/ ١٩٩٣ الذى أعلن فيه بدء الإجراءات التنفيذية لسوق الشرق الأوسط .

أسس إدارة الأزمة

لفن إدارة الأزمات أسس يجب أن نعرفها ونطوعها لصالحنا :

١ ـ ففى إدارة الأزمة لا يتم التعامل أبدا مع الأبيض أو الأسود . . أو كل شىء أو لا شىء ولكن يتم التعامل مع اللون الرمادى الذى يمزج فيه الأبيض مع الأسود وكذلك مع الممكن فلا توجد وجهة نظر صحيحة تماما أو خاطئة تماما . . يعنى لابد من التعامل مع « البين بين » .

٢ ـ لا يجب أن تتمسك الأطراف بالحقوق الكاملة أو الانتصار الكامل أو الأمن المطلق ، ولكن عليها أن تسعى للحصول على الحقوق الناقصة والانتصار المحدود الذى هو خليط من الهزيمة والانتصار وعلى الأمن المتبادل Mutual Security لأن الأمن المطلق لطرف فيه تهديد لأمن الآخرين .

٣ ـ وترتيبا على ذلك يتم التحرك أثناء إدارة الأزمة بإرادات ناقصة مع مراعاة مبدأ هام هو « ضعف القوة وقوة الضعف The Impotence of Power and , The Power of Impotence » لأنه إن تمسك كل طرف بإرادته الكاملة تنتهى إدارة الأزمة إلى التصادم المباشر واستخدام القوة لا يحل المشكلة فى ظل الظروف العالمية بل يزيدها تعقيدا .

٤ ـ أثناء إدارة الأزمة لابد أن ننظر إلى الموقف التالى بعد تجميدها أوحلها فلا يوجد عدو دائم أوصديق دائم ، ولكن توجد مصلحة دائمة فعدو اليوم صديق الغد وصديق اليوم عدو الغد .

٥ ـ توضع العوامل العالمية فى أسبقيتها الصحيحة إذا كانت الأزمة إقليمية لأن سير الأحداث تتوقف عليه المصالح العالمية جنبا إلى حنب مع المصالح الإقليمية .

وقبل إنتهاء الحرب الباردة كان دور القوتين العظميين مضبوطا بقوانين محددة .

* فكل قوة عظمى تساند « زبائنها » مع مراعاة المصالح المتبادلة حتى لا يتم التصادم المباشر بينهما ، وعلى ذلك فكانت الأزمة تديرها إرادات إقليمية ظاهرة وإرادات عالمية مستترة .

* إذا اضطرت الظروف إلى تدخل إحدى القوتين بقواتها المسلحة فى إحدى النقاط الساخنة تحترم القوة العظمى الأخرى هذا التدخل مع تجنب إشراك قواتها المسلحة كما حدث عند تدخل السوفييت فى أفغانستان وتدخل الولايات المتحدة فى خليج سرت فى ليبيا أو التدخل فى الفوكلاند أو جرينادا .

* يتبلور الموقف حينئذ فى قوة عظمى « متدخلة » وقوة عظمى أخرى « مراقبة » أى قوة داخل الملعب وأخرى خارجه .

* واجب القوتين حصر النزاع حتى لاينتشر وتتظاهر القوة المتدخلة بالتأييد الكامل للدولة التى تدخلت من أجلها ، ولكنها فى الحقيقة لا تتقيد كلية بمواقفها بل تحاول توجيهها إلى أغراضها المستهدفة .

* تتدخل الدولة المراقبة عن طريق الإمداد بالسلاح وإحراج موقف القوة العظمى المتدخلة إعلاميا وفى الهيئات الدولية .

* يتم الاتفاق بعد ذلك عن طريق الربط Linkage. بربط الأزمة الإقليمية بأخرى ربما على مسافة مئات الأميال على طريقة « سيب وأنا أسيب » أى لا يكون الحل عن طريق «الضربة القاضية » ولكنه يكون بالنقط .

ولكن بعد سقوط الاتحاد السوفيتى كدولة والشيوعية كعقيدة نجد أنفسنا أمام نظام عالمى مراوغ لم تتحدد معالمه بعد، فقد خيل للناس أنه عالم موحد تحت رئاسة الولايات المتحدة ، كما ظهر فى عملية « عاصفة الصحراء » أى أن « الكل اتحد ضد المخطىء » وبذلك ينتقل العالم من نظام توازن القوى إلى نظام وحدة القوى كما قال الرئيس وودرو ويلسون بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ولذلك لم تعد هناك قوة عظمى متدخلة وقوة عظمى أخرى مراقبة فالكل تدخل وأخذ اللاعبون أدوارهم داخل الملاعب بدرجات متفاوتة، وأصبح واضحا أن استخدام القوة العالمية فى إدارة الأزمات الإقليمية أكثر سهولة ويسرا بعد أن اختفى تحدى القوات العالمية الأخرى وفى الوقت نفسه أصبح استخدام القوة على المستوى الإقليمى أكثر صعوبة محفوفا بالمخاطر وأصبح من الصعب اللعب على الجانبين كما كان يحدث من قبل .

وإذا كان الغرض من إدارة الأزمات فى النظام العالمى ذى القطبين هو منع استخدام القوة فى القتال فإن هذا يظل قائما فى ظل التحولات الحالية مع استثناء واحد هو أن وصول الأزمة إلى ذروتها قد يمهد الطريق إلى قوى عالمية للتدخل لحسم الموقف ، وبذلك زاد دور « المتدخلين » إلى جانب دور « الشركاء » كما زاد دور الشرعية الدولية وإن كانت تعمل تحت سيطرة ظاهرة من الولايات المتحدة التى تطبق هذه الشرعية بطريقة ،انتقائية وأصبح ما يطبق على العراق لا يطبق على إسرائيل كما أن نقل السلاح أصبح تجارة أكثر منه سياسة، فأصبح متاحا بطريقة واضحة من دول الكتلة الشرقية سابقا ومن دول الكتلة الغربية وتعدى المعروض من الأنواع التقليدية إلى الأسلحة فوق التقليدية وشديدة التدمير ، وكذلك النووية فى الخفاء .

نحن إذن أمام عوامل وقيود جديدة يجب أن تراعى عند إدارة الأزمات ، خاصة بعد أن أصبح واضحا أن الانفجارات من داخل الدولة أصبحت تحدث بطريقة أكثر انتشارا من الانفجارات التى تحدث بين الدول بعضها البعض مما تحتاج إلى العمل بتركيز كامل على إطفاء الأزمات الخارجية حتى يمكن مواجهة الانفجارات الداخلية .

الأزمات العربية

الأزمات العربية على أنواع أربعة : أزمات عربية عالمية ، أزمات عربية إقليمية ، أزمات عربية عربية وأخيرا أزمات عربية داخلية .

١ ـ الأزمات العربية العالمية مثل أزمة العراق والعالم الغربى وأزمة ليبيا مع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا .

٢ ـ الأزمات العربية الإقليمية مثل الأزمات بين إيران ودول مجلس التعاون الخلجيى نتيجة لاحتلال إيران للجزر العربية الثلاثة فى الخليج وأزمة إيران مع العراق .

٣ ـ أزمات عربية عربية مثل الأزمات القائمة بين العراق من جانب وأغلب الدول العربية ثم أزمة السودان ومصر على منطقة حلايب وما يقال عن تدخل السودان بطريقة أو أخرى لقلقلة الاستقرار المصرى والأزمة القائمة بين الجزائر والمغرب على استفتاء الصحراء .

٤ ـ الأزمات العربية الداخلية الناشئة عن الحركات الانفصالية كما يحدث فى العراق والسودان وأزمات ناشئة من نظم الحكم والديمقراطية وحقوق الإنسان وسوء الأوضاع الاقتصادية وهى أزمات عامة تعانى منها كل البلاد العربية .

وفى تقديرى أن إدارة الأنظمة العربية لأزماتها المتنوعة تفتقر إلى المهارة ومواكبة قوانين العصر ، ولذلك فإنها أزمات مستمرة بمرور الزمن ولا تجد حلا علما بأن صالحنا جميعا يكمن فى الوحدة المنشودة أو على أقل تقدير العمل العربى الجماعى ، وللعمل الجماعى متطلباته : فهو يحتاج إلى وحدة الأهداف والمصالح ، وإلى وحدة فى تحديد الأعداء والأصدقاء

الفصل التاسع عشر

أزمة السويس واستخدام القوة

في الساعات الأولى من صباح الثلاثاء ١٥ إبريل ١٩٨٦ قامت ٢٠ طائرة حربية أمريكية من قواعدهافى المملكة المتحدة ومن حاملات الطائرات المرابطة فى البحر المتوسط ومن أمام السواحل الليبية بشن عدة غارات على أهداف مدنية ليبية محدثة خسائر جسيمة فى الأرواح والمبانى. وكان الغرض من هذه العملية الحربية سياسيا هو استخدام القوة لإسقاط نظام معمر القذافى الذى يمثل دولة مستقلة ذات سيادة.

وقد حدث نفس الشيء منذ ٣٠ عاما حينما بدأ العدوان الثلاثى على مصر بعملية قادش الإسرائيلية بعد ظهر يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، والتى تلتها عملية موسكتير والتى بدأت بضربة جوية بريطانية فرنسية على المطارات المصرية والطرق وبعض الأماكن المدنية ثم تمت عملية إنزال بحرية للقوات الإنجليزية الفرنسية لاحتلال بورسعيد ثم التقدم غربا لاحتلال القاهرة، وكان الغرض من العدوان استخدام القوات المشتركة لإسقاط نظام عبد الناصر بعد تأميم قناة السويس فى ٢٦/ ٧/ ١٩٥٦ والذى يمثل دولة مستقلة ذات سيادة.

وإذا أسقطنا الفوارق العديدة بين العمليتين فإن جوهر الوسائل المستخدمة فيهما يبقى واحدا، وهو استخدام القوة فى ممارسة السياسة الدولية.

وبين الحدثين تمت عمليات كثيرة استخدمت فيها الدول العظمى قواتها المسلحة لفرض سياسات معينة « فالحرب هى استمرار للسياسة، ولكن بطريقة مختلفة».

بريطانيا والفوكلاند، الولايات المتحدة و جرينادا، والنزول فى بيروت أكثر من مرة. وفى منطقة الشرق الأوسط حيث توارى القانون الدولى، وتآكلت المنظمات الدولية والإقليمية واختلطت الحدود السياسية بالحدود الآمنة وقيام الدول باختراق الحدود رأسيا وأفقيا باستخدام القوات المسلحة، فإن استخدام القوة كوسيلة رئيسية لممارسة السياسة ما زال سائدا ولا أظنه سيختفى فى المستقبل المنظور.

وما حدث فى السويس عام ١٩٥٦ كان أزمة بالتعريف العلمى لها فى أدبيات السياسة، إذ إن الأزمة سواء كانت عالمية أو إقليمية إنما تعنى مجموعة من التفاعلات المتعاقبة بين حكومتين أو أكثر لدول ذات سيادة تعيش فى حالة صراع شديد بدرجة لاترقى إلى مستوى المواجهة المسلحة، مع احتمال عال لنشوبها ووقوعها إذا اقتنع صاحب القرار بوجود موقف يهدد المصالح العليا للوطن.

والأحداث التى أدت إلى العدوان الثلاثى كانت أزمة فى الحدود التى أوضحناها :

● فكان تأميم القناة إحدى حلقات أحداث متعاقبة كانت تمس المصالح العليا للأطراف بعد قيام الثورة: رفض الدخول فى مناطق النفوذ، مقاومة الأحلاف خاصة حلف بغداد، معركة التحرير التى أدت إلى توقيع اتفاقية الجلاء المنقوصة، معارك القضاء على الرجعية الرأسمالية المستغلة والإقطاع ثم معركة كسر احتكار السلاح.

● وترتب على كل تصادم فى هذه الموضوعات الحساسة مواجهات خطيرة كانت تتتابع.

● واتخذت قرارات مصيرية توقف عليها مستقبل العلاقات بين الأطراف أدت إلى اهتزاز الاستقرار الإقليمى، وخلل توازن القوى على المستويين العالمى والإقليمى.

١ ـ هل كان التأميم سببا أم ذريعة لاستخدام القوة ؟

كان التأميم كما ذكرنا طريقا شاقا من سياسات الفعل ورد الفعل تخلف عنها تناقضات أقلقت الاستعمار وجعلت فكرة العدوان تختمر فى ذهنه خوفا على مراكزه الوطيدة فى المنطقة. ولكن كانت معركة كسر احتكار السلاح فى رأيى هى السبب الأساسى للعدوان الثلاثى لأنه أمر يتعلق بميزان القوى على الصعيدين العالمى والإقليمى. وتوازن القوى هو العمود الفقرى لإدارة الصراع.

كان إنشاء إسرائيل كجسم غريب زرع فى المنطقة يهدف أولا وأخيرا إلى الحفاظ على المصالح الغربية فى المنطقة، وكعامل يحول دون تصاعد الحركات الوطنية والمد القومى الذى كان يتفجر بين وقت وآخر على شكل فورات لم تخطئها العين الاستعمارية، وكانت الوسيلة للمحافظة على هذا الغرض «التحكم فى ميزان القوى» لصالح إسرائيل فى مواجهة الأمة العربية. فعن طريق القوة قامت إسرائيل وعن طريق القوة لابد وأن تبقى. كانت إسرائيل هى وسيلة الدول الغربية للحفاظ على الاستقرار الإقليمى. فكان ماعرف بالاتفاق الثلاثى الذى تم بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٠ والذى تعهدت فيه الدول الثلاث بالعمل المشترك ضد أى محاولة لاحتلال الأرض باستخدام القوة فى المنطقة، وعلى التشاور المستمر للتأكد من أن شحنات الأسلحة التى تنقل إلى الدول المعنية لاتخل بالتوازن

القائم علما بأن إسرائيل حتى عام ١٩٥٥ وتعدادها لايتجاوز مليونى نسمة كان لها جيش عامل ٥٠٫٠٠٠ يمكن زيادته بمقدار ٢٠٠٫٠٠٠ فى مدة ٤٨ ساعة عند التعبئة، وكانت لديه من الأسلحة والمهمات مايؤكد تفوقه على جيوش كل الدول المجاورة لحسن تدريبه وكفاءته. أى أن الدول الثلاث وفى ظل الاتفاق الثلاثى كانت تعمل جاهدة على أن يظل لإسرائيل التفوق فى توازن القوى، فإذا اختل هذا التوازن فإن المصالح الغربية سوف تصبح غير آمنة، وكان الأمل أن تظل السيطرة على معادلة التوازن هذه بمنع الدول العربية من الاتجاه إلى منابع جديدة للحصول على السلاح.

ودون الدخول فى أى تفاصيل خاصة باتفاقية السلاح بين مصر وتشيكوسلوفاكيا فى أكتوبر ١٩٥٥ نذكر أن الولايات المتحدة حاولت إيقاف الصفقة بكل السبل، فأرسلت جورج آلان إلى القاهرة فى محاولة يائسة انتهت بالفشل، وفى الأسبوع الثانى من أكتوبر ١٩٥٥ تحدث فوستر دالاس إلى مولوتوف فى هذه المشكلة مقدرا بأن الصفقة التشيكية قربت من حدوث حرب فى المنطقة، بل قام أيزنهاور بكتابة رسالة إلى الرئيس نيكولاى بولجانين ردا على رسالة كان قد أرسلها الأخير له فى ٢٢/ ١٠/ ١٩٥٥. قائلا بأن «الصفقة قد زادت من احتمال انفجار أعمال العنف فى المنطقة». كانت كل هذه الإجراءات من أجل انفلات السيطرة على ميزان القوى.

ولنضف إلى ذلك ما قالته المصادر البريطانية فى هذا الشأن فنذكر ماقاله «إيفلن سكابير» نائب وزير الخارجية البريطانية فى الشرق الأوسط فى مذكرته السرية بهذا الشأن «لقد استطاع الروس أن يحددوا نقطة الضعف المركزية لسياستنا فى الشرق الأوسط ألا وهى وجود إسرائيل كمحمية للغرب. ويوجهوا ضربة معلم إذ وبغريزة معصومة من الخطأ اختاروا ذلك الشكل من الإغراء الذى لايمكن لمثل هذا الرجل ـ أى عبد الناصر ـ أن يقاومه والذى سيكون مغريا لكل الدول العربية، وسوف يعتمد مستقبل هذا البلد ومستقبل أوروبا الغربية على رد فعلنا المضاد لهذه الصفقة قبل أن يحصل الروس على موطئ قدم».
ومرة أخرى نجد أن توازن القوى فى المنطقة كان هو الحافز لتشكيل السياسة البريطانية فى المنطقة.

ويؤيد ذلك ما قاله كرستيان بينو فى حديثه للأهرام «قرأت كثيرا عن اتهامات بأن همنا الأول فى هذه الأزمة كان الدفاع عن مصالح شركة قناة السويس الفرنسية البريطانية وأؤكد لك أن هذا ليس له أساس من الصحة إذ كنت أعلم من البداية أنه من الممكن الوصول إلى اتفاق على تعويضات مناسبة للشركة من خلال المفاوضات . . . ولكن السبب الأهم كان يتعلق بالاستراتيجية الغربية فى ذلك الوقت وهى حرية الملاحة فى القناة التى تهددت بظهور

الاتحاد السوفيتي بعد صفقة الأسلحة المصرية التشكوسلوفاكية كقوة بديلة . كان ذلك هو الذي يحدد مواقفي خلال هذه الأزمة لأن الوضع الجديد كان من شأنه إعادة تشكيل الخريطة العسكرية للعالم كله » .

وإن كانت بريطانيا وفرنسا لهما دوافع أخرى للعدوان ، إلى جانب انفلات السيطرة على موازين القوى في المنطقة فإن الدافع الوحيد لإسرائيل للاشتراك في العدوان كان اهتزاز موازين القوى مع العرب ، كما يظهر مما قاله موشيه ديان في كتابه « يوميات معركة سيناء » إذ قال « إن توفر الأسلحة في أيدى العرب بدرجة كبيرة تتفوق من ناحيتى الكم والكيف على ما لدينا يحفز العرب على الهجوم علينا . فقد اشتملت الصفقة على ٢٣٠ دبابة ، ٢٠٠ عربة مدرعة ، ١٠٠ مدفع ذاتي الحركة ، ٥٠٠ مدفع من أنواع مختلفة ، ٢٠٠ طائرة قتال وقاذفة ونقل ، كذلك مدمرات وطوربيدات وغواصات . إن إضافة هذه الصفقة إلى ما هو موجود فعلا لدى مصر قد سبب اختلال توازن القوى الذى كان مهتز ا في الأصل بين إسرائيل والعرب . إن تقوية القوة العسكرية لدى حاكم مصر زادت من مكانته وسط شعوب المنطقة وأصبح الزعيم البارز علاوة على أن في ١٩/ ١٠/ ٥٥ شكلت القيادة المشتركة للجيوش السورية والمصرية وأصبحت إسرائيل محاطة من جهاتها الثلاث بجيوش خاضعة لقيادة واحدة .

كان توازن القوى قد اهتز على المستوى العالمي إذ بدلاً من استقرار عملية نقل السلاح Arms Transfer ضمن سياسة أحادية القطبية تغيرت وأصبحت ضمن سياسة ثنائية القطبية وتغيرت القوانين التى كانت تتحكم في نقل السلاح كما وكيفًا من دول المركز إلى دول الهامش ودخلت المنطقه كلها في حمى سباق التسلح لكسب معركة توازن القوى .

وكان توازن السياسات قد اختل ضمن التحالف الغربي نفسه للمنافسة بين بريطانيا وفرنسا والدخيل الجديد وهو الولايات المتحدة التى كانت تهيئ نفسها لوراثة نفوذهما في المنطقة .

وكان توازن القوى المستقر بين البلاد العربية وإسرائيل على الصعيد الإقليمي قد اهتز بدوره .

وكما قلنا فإن ميزان القوى هو القلب النابض لعملية الصراع .

٢ ـ الاستخدام التآمرى للقوة :

في أى عمليات مشتركة ، تنشأ قيادة مشتركة للتخطيط والتجهيز وإدارة العمليات ، ولكن في العدوان الثلاثي لم يكن هذا الذى حدث بالضبط لأسباب لا داعي للخوض فيها فقد تم تشكيل قيادة مشتركة بين القوات البريطانية والفرنسية ولم تشترك فيها قوات العنصر

الثالث فى العملية ، بل كان لها قيادتها المنفصلة مع الاحتفاظ بضباط اتصال بين القيادتين . ومن الطبيعى أن تتسم هـذه العمليات بالسرية ، فهذا من أهم مبـادئ الحرب ولكن كانت الروح التآمريـة هى التى سادت تحضيرات هذه الحملة التعيسة ، كـان الجهد مبذولا لإبعاد أى شبهة عـن القيام بالعمل المشترك ، حتـى بعد نهاية العملية أصر الجميـع على إنكار أى إتفاق مع إسرائيـل لدرجة أن موشيه دايان حينما أصـدر كتابه « يوميات معركـة سينا » كان خلوا من الحديث عن المؤامرة ، ولم يتم تحريـر محاضر عن الاجتماعات التى تمت فى سيفر بل تم إحراق كـل النسخ للاتفاق المكتوب بعـد العدوان الثلاثى بقليل « ولم تعـد هناك سوى صور نادرة للغاية من نص الاتفاق عند بعض الذين أتيح لهم حضوره » كما يقول كريستيان ينيو .

عقب التـأميم أصـدر إيدن أوامـره لهيئة أركان الحرب المشتركـة بدراسـة إمكانيـة القيام بحملة عسكرية ضـد مصر، وفعلا تم وضع الهيكل العام للخطة . ٧٠ التـى كانت تقضى باحتلال الإسكندرية ثم التقدم إلى القاهرة لإسقاط حكم عبد الناصر . إلا أن فرنسا تحت ضغط اليمين واليسار طالبت بعملية مشتركة ضد مصر مـع بريطانيا وشكلت قيادة مشتركة وضعت الخطة « هاميلكار » التى تعدلت بعد ذلك إلى « موسكتير » وكان رأس الجسر فيها فى الإسكندرية لقربها من قبرص ومالطة .

أما إسرائيل فقد دخلت من الباب الخلفى ، إذ كانت اتفاقية كسر احتكار السلاح حافزا لإسرائيل للتحـرك المحموم لإستعـادة التوازن غير المستقر، ولم يكـن أمامهـا الا فرنسـا التى إستجابت لطلباتها أى أن عمليـة نقل السلاح كانت السبب فى تلاقـى السياستين الفرنسية والإسرائيلية وعـن طريق فـرنسا استكمـل مثلث العدوان أضـلاعه الثلاثـة . كانـت رئاسة الأركان الإسرائيلية تقـدمت يوم ٢٧ / ٧/ ١٩٥٦ باقتراح إلى بـن جوريون للقيام بـإحدى عمليات ثلاثـة : احتلال سيناء والسيطرة على القناة ، أو احتـلال شرم الشيخ ، الاستيلاء على قطاع غزة . إلا أن بن جوريون كان قد رأى الانتظار .

ونتيجة للقاءات متعددة تم توقيع بـروتوكولات « سيفر » يوم ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٦ والتى تتضمن :

١ ـ تشـن إسرائيل هجـوما واسع النطـاق على مصر يوم ٢٩ / ١٠ / ١٩٥٦ تحتـل فيه سيناء حتى المضايق .

٢ ـ تصدر حكومتا بريطانيا وفرنسا نداء إلى الطرفين لوقف العمليات الحربية وانسحاب

قواتها ١٠ أميال من القناة وقبول احتلال القوات الفرنسية والبريطانية منطقة القناة بصفة مؤقتة لتأمين حرية الملاحة .

٣ ـ إذا رفضت مصر المقترحات يشن هجوم يوم ٣١ / ١٠ ضد القوات المصرية .

٤ ـ بوسع إسرائيل احتلال الجزء الغربى من خليج العقبة وجزر تيران وصنافر لتأمين الخليج بالنسبة للملاحة .

٥ ـ تتعهد إسرائيل بعدم الهجوم على الأردن .

وفى اليوم نفسه وقع بورجيه مانورى وزير الدفاع الفرنسى اتفاقا مع إسرائيل تتعهد فيه فرنسا بتأمين حماية المجال الجوى الإسرائيلى بإرسال سرب مستير مدعم إلى إسرائيل وبإرسال سفينتين حربيتين إلى موانئ إسرائيل لحماية سواحلها .

وتم إدخال تعديلات جوهرية على الخطة موسكتير واستبدلت فيها الإسكندرية بمنطقة بورسعيد ـ بور فؤاد كقاعدة للعمليات وكان الهيكل العام للخطة .

١ ـ المجهو د الثانوى

أ ـ تقوم به إسرائيل لخلق حالة صراع مسلح على مشارف القناة كذريعة لشن الهجوم الرئيسى

ب ـ استدراج أغلب القوات المصرية نحو شرك مدبر فى سيناء

ج ـ تحاول تدمير القوات المصرية فى المنطقة رفح ـ العريش ـ جبل لبنى وتصل إلى مسافة ١٠ أميال من القناة لتأمين الجناح الأيسر للقوات الرئيسية أثنا تقدمها لاحتلال القناة .

٢ ـ المجهود الرئيسى

أ ـ هجوم جوى مركز بعد ٤٨ ساعة من بداية الهجوم الثانوى وللتمهيد للاقتحام البحرى وقطع خطوط انسحاب القوات المصرية من سيناء .

ب ـ الاستيلاء على رأس شاطىء فى بور سعيد ثم تطوير الهجوم إلى الإسماعيلية ثم وعلى حسب تطور الموقف الداخلى فى مصر، إما الاكتفاء بالتقدم إلى السويس لاحتلالها لإكمال السيطرة على منطقة القناة إذا سقط النظام، أو علاوة على ذلك التقدم غربا لاحتلال القاهرة لحسم الحرب .

٣ ـ ماذا كان يحدث فى الجانب القريب من التل ؟

منذ قيام الثورة كانت العواصف كلها تتجمع فى ناحية الشرق وكانت القاعدة البريطانية الرابضة فى منطقة القناة من أهم التحديات التى كان من الواجب مواجهتها ، وقبل الدخول فى المفاوضات مع الجانب البريطانى طلبت القيادة السياسية من قسم الخطط فى العمليات الحربية ـ وكنت أعمل نائبا لرئيسه ـ تقدير الموقف من الناحية العسكرية إذا بدأت المفاوضات مع الجانب البريطانى وانتهينا إلى الآتى : ـ

١ ـ يواجه الجش عدوين فى وقت واحد : فبريطانيا فى منطقة قناة السويس وإسرائيل على حدودنا الشرقية .

٢ ـ لا يمكن أن يكتب للمفا وضات السياسية المقبلة أى نجاح إلا بمساندة القوة العسكرية على أن يعطى الثقل الأكبر لاستخدام القوات الفدائية .

٣ ـ لا يمكن لمصر خوض معركة دفاعية أو هجومية ضد إسرائيل ، والقوات البريطانية موجودة فى منطقة القناة تهدد خطوط مواصلاتنا نحو الشرق .

٤ ـ العدو الرئيسى فى الوقت الحالى هو القوات البريطانية فى منطقة القناة والعدو الثانوى هو إسرائيل .

٥ ـ لابد من إخلاء سيناء من قواتنا العسكرية الرئيسية حتى لاتكون عامل ضغط علينا عندبدء الأعمال الفدائية ضد القوات البريطانية ، إذ يمكن لبريطانيا أن تمنع مرور الإمدادات والذخائر من كوبرى الفردان أو من أى معابر أخرى عبر قناة السويس كورقة ضغط علينا .

وعقد مؤتمر فى رئاسة أركان الجيش حضره كل من : جمال عبد الناصر قائد الثورة بدرجة مدير مكتب اللواء محمد نجيب ، عبدالحكيم عامر قائد الجيش ، اللواء محمد إبراهيم رئيس أركان الجيش ، اللواء على عامر مدير العمليات الحربية ، المقدم أمين هويدى نائب مدير قسم الخطط بالعمليات الحربية . وتم الاتفاق فى هذا المؤتمر على سحب قواتنا من سيناء إلى غرب القناة مع ترك وحدات رمزية فى بعض المناطق الحساسة بغرض إثبات السيادة على أن تعمل الخطة فى سرية كاملة ولا يبدأ فى تنفيذها إلا بعد إعطاء التعليمات اللازمة .

وقبل بدء المفاوضات أعطيت إشارة البدء لإخلاء سيناء بعد التصديق على الخطط الموضوعة . وكان علينا أن نتمم عملية الإخلاء بمفاجأة كاملة وفى أقصر وقت ممكن حتى لاتترك فرصة للقوات البريطانية لكى تتدخل ، وكانت العقبة الكبرى هى توفير وسائل

النقل الـلازمة للمعدات الثقيلـة بالقطارات ، ولكن الترتيبـات الجيدة ساعـدت على تنفيذ الخطة بنجاح كامل وكان من ضمن هذه الترتيبات :

١ ـ كان يسمح بعودةنصف الجنود فقط الذين يقومون فى الإجازات إلى وحداتهم بسيناء ويبقى النصف الآخر فى أماكنه الجديدة غرب القناة .

٢ ـ بدئ فى تخفيف المعـدات فى ليال متتابعة بالقطارات التى تخترق القـاعدة البريطانية واتخذت ترتيبات هائلة للتمويه والخداع .

٣ ـ كان يحجـز من كل قطار يصل إلى العـريش أو رفح عدد محدود من عـربات السكة الحديد ، وأحيانا القاطرات واحتاج ذلك إلى حسابات دقيقة معقدة للتوفيق بين حجم ونوع الأحمال المراد نقلها ، وبين سعة ونوع وسائل النقل المتاحة .

٤ ـ واتخذت بعـض الترتيبات لإرسال بعض الـوحدات إلى سيناء نهارا لإظهـار نيتنا فى تعزيز قواتنا فى الشرق على أن تعود هذه الوحدات ليلا على فترات .

٥ ـ استمرار إرسـال معدلات المواد التمـوينية دون نقصـان حتى لايشعـر البريطانيـون بتخفيف القوات .

٦ ـ منع تداول المكاتبات بخصوص الإخلاء .

وفى الوقـت المحدد فوجئـت القيادة البريطانية بسيـل القطارات تعبر كوبـرى الفردان ، ولكن بعد انتهـاء حرب التحرير فى منطقـة القناة وتوقيع المعـاهدة البريطانية المصريـة أعيد التوزيـع الإستراتيجى للقـوات المسلحة تبعا لتقـديرات الموقف المتـابعة وقسمـت إلى عدة قيادات لكل منها قـواته : القيادة الشرقية (سيناء ومنطقة القناة) بقيـادة اللواء على عامر ، قيادة القاعدة ، القيادة الشمالية ، قيادة الدلتا .

وحينما وقع العدوان كـانت الفرقة ٣ المشاة تحتـل مواقعها الدفـاعية فى القطاعين الشمالى والأوسط بسيناء (رفح ـ العريش ـ أبو عوجيله) الفرقة ٨حرس حدود فلسطين فى قطاع غزة والمجموعة الأولى المدرعـة فى الاحتياط وأبقت القيادة الشرقيـة باقى القوات الموضـوعة تحت قيادتها ، وأهمها الفـرقة المدرعة فى الاحتياط غـرب القناة وتـم تشكيل قـوات الحرس الوطنى التى انتشرت فى أنحاء الجمهورية .

كما قام قسـم الخطط بوضع خطـة الدفاع عـن القاهرة بعـد التأميم ، ومن الطـريف أن مسودة هذه الخطة كانت محفوظة لدى وبخطى وكان بها خريطة توضح عقد المواصلات فى المدينة . وسئلت عن سبب وجودها لدى فى أحداث مايو ١٩٧١ باعتبارها دليلا على التآمر والاشتراك فى انقلاب إحدى خطواته احتلال مراكز المواصلات فى العاصمة !!

كانت المعركة السياسية بعد التأميم على أشدها وكان العدوان متوقعا بعد الأسابيع الأولى للتأميم، ولكنه أخذ يتضاءل بمرور الوقت، فقد كان هناك تصور أنه بعد موافقة مجلس الأمن على النقاط الستة، فإن المشكلة أصبحت فى طريقها إلى الحل السياسى، ويدعم ذلك أنه تحدد موعد لقاء وزير خارجية مصر ووزيرى خارجية بريطانيا وفرنسا بحضور داج همرشولد سكرتير الأمم المتحدة وحدد يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ - وهو يوم العدوان - موعدًا للقائه، أما عن اشتراك إسرائيل فى العدوان فكان مستبعدا ولو أنه كان فى الحسبان.

إلا أن استبعاد العدوان لدى القيادة العامة للقوات المسلحة فإنه لم يكن كاملا. فقد ورد فى تقدير القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية للموقف فى شرق البحر المتوسط الصادر فى سبتمبر ١٩٥٦ ترجيح قيام بريطانيا وفرنسا بالهجوم على مصر، وذكر التقدير أنه من المحتمل أن يوجه الهجوم ضد منطقة الإسكندرية لقربها من مالطة وقبرص لاستدراج قواتنا المدرعة إلى غرب النيل، وبذلك تتهيأ الفرص للعمل فى منطقة القناة بنجاح، وعموما فلن يكون الفاصل بين العمليتين كبيرا، ثم انتقل التقرير ليعطى صورة للعمليات المنتظرة كالآتى:

١ - سيقوم العدو بهجمات جوية بغرض شل قواتنا الجوية، والتمهيد للعمليات البرية والبحرية.

٢ - توجيه القوات البرية من قاعدتى ليبيا ومالطة للاستيلاء على الإسكندرية واستدراج قواتنا المدرعة إلى الغرب.

٣ - توجيه القوات المنقولة جوا من قبرص لاحتلال مجموعة مطارات القناة ثم تعزيز هذه القوات بعناصر مشاة ومدرعة من قبرص للاستيلاء على منطقةالقناة.

٤ - قد يصاحب ذلك قيام إسرائيل بعمليات تعرضية على الجبهة الشرقية لاحتلال القواعد المتقدمة بها وقد توجه هذه العمليات ضد العريش لعزل قواتنا فى قطاع غزة.

٥ - استخدام قاعدتى الإسكندرية والقناة لحشد قوات إضافية للانطلاق نحو القاهرة فى هجوم مزدوج.

ثم عادت القيادة العامة للقوات المسلحة تؤكد على بعض النقاط التى تحتاج إلى عناية خاصة فى تعليمات العمليات الحربية وأهمها.

١ - حرمان العدو من الاستيلاء على منطقة القناة بأى ثمن.

٢ - مراقبة منطقة بير عديب على البحر الأحمر وتعطيل أى عمليات إنزال بها أو التقدم غربا نحو القاهرة.

٣ ـ منع أى قوات معادية فى بورسعيد من التحرك جنوبا لاحتلال الإسماعيلية .

٤ ـ القضاء على أى قوات معادية تهبط جوا بالمنطقة .

٥ ـ وضع خطط النسف الضرورية لتنفيذ الأغراض المتفق عليها على أن يعتبر بدء انزال أى قوات معادية على منطقة القناة أمرا بتنفيذ هذه العمليات .

وعند بدء العدوان يمكن أن نقول إن التوزيع الإستراتيجى للقوات المصرية قد اتسم بالحكمة فى تلك الفترة إذ وزعت فرقة مشاة مدعمة على الحدود للدفاع عن منطقة العريش وابو عويجلة ، واحتفظ بباقى القوات موزعا بين احتياطى القيادة الشرقية ، واحتياطى القيادة العامة للقوات المسلحة بعيدا فى غرب القناة .

٤ ـ فكرة عامة عن استخدام القوة لدى القوات المضادة .

فمنذ ظهر يوم ٢٩ / ١٠ / ١٩٥٦ كنت الضابط النوبتجى فى العمليات الحربية ، وكان المقدم توفيق عبد الفتاح الضابط المناوب فى القيادة العامة للقوات المسلحة ، واتصل بى ذاكرًا أن معلومات مؤكدة وصلت الآن تفيد أن جماعات إسرائيلية تقوم بتقطيع خطوط المواصلات السلكية فى سيناء بالقرب من ممر متلا ، وأن الحرب فعلا قامت بيننا وبين إسرائيل . وتم استدعاء باقى الضباط فى أفرع القيادة العامة للقوات المسلحة . كان القرار قد اتخذ لإدارة العمليات من مركز القيادة فى كوبرى القبة ، واتخذ مكان بديل يمكن الانتقال إليه فى مدرسة الخديوى إسماعيل بجاردن سيتى ، وقد تم فتح مركزى القيادة إذ كانت الترتيبات قد اتخذت من قبل لتهيئتها للقيام بهذا الواجب .

وكان السؤال المحير بعد قيام إسرائيل بإنزال قوات المظلات على الفتحة الشرقية لممر متلا هو: لماذا فى الشرق وليس فى الغرب؟ وكان هناك اتجاه تبلور فى صباح ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٦ ـ وكنت أتزعمه ـ أن الإنزال لو تم فى الفتحة الغربية لممر متلا لكان القصد منه منع أى قوات مصرية من عبوره نحو الشرق ومادام الإنزال تم شرق ممر متلا أى فى الفتحة الشرقية وفى أعلى الجبل فإن الغرض هو تشجيع قواتنا للتمركز شرق القناة أى كمصيدة تدبر لها .

وتلخصت الإجراءات الأولية فى الآتى بعد :

١ ـ على قوات الفرقة الثالثة على الحدود الشرقية الدفاع عن مناطقها لآخر طلقة وآخر رجل ، وفعلا قامت قواتنا فى الشرق خاصة فى منطقة أبو عويجلة بخوض معركة دفاعية كبرى وناجحة أشاد بها موشيه دايان نفسه فى « يوميات معركة سيناء » وعطلت التقدم السريع للقوات الإسرائيلية أياما غالية مكنت القوات المصرية من الإفلات من المصيدة التى كانت تعد لها .

٢ ـ دفعت الفرقة الرابعة المدرعة صباح ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٦ إلى مواقعها فى منطقة بير روض سالم لمواجهة العدو الإسرائيلى حسب تطور الموقف.

٣ ـ صدرت التعليمات بإسقاط قوات المظلات المصرية غرب منطقة الكونتلا لقطع أى اتصال بين القوات الإسرائيلية التى هبطت فى شرق ممر متلا، وبين أى قوات لاحقة تعززها بعد التغلب على مقاومة قواتنا بالقرب من الحدود، وقد حملت بنفسى تعليمات هذه العملية إلى قائد القيادة الشرقية إلا أنها لم تنفذ إذ قمت واللواء صلاح الموجى أركان حرب القيادة بإقناع القيادة العامة بعدم جدوى العملية بعد تطور الأوضاع.

٤ ـ صدرت التعليمات إلى اللواء الثانى المشاة بالتقدم نحو الشرق لتطهير ممر متلا من أى قوات معادية تكون قد احتلته ثم إزاحة القوات الإسرائيلية فى الفتحة الشرقية للمضيق وصدرت تعليمات للواء الفدائيين الذى يتبع القيادة العامة للقوات المسلحة بقيادة عبد المجيد فريد للدفاع عن طريق بير عديب ـ المعادى.

٥ ـ كانت قواتنا الجوية توالى هجماتها على حشود العدو فى طلعات متتالية ناجحة.

٦ ـ وجهت المدمرة إبراهيم باشا إلى حيفالضربها من البحر وقد تم أسر هذه المدمرة.

وفى يوم ٣١/ ١٠/ ١٩٥٦ قامت الطائرات الكانبرا البريطانية بعملياتها ضد المطارات والقوات المصرية بعد رفضنا الإنذار الموجه لكل من إسرائيل ومصر تبعا لما اتفق عليه فى معاهدة سيفر. أيقنت القيادتان السياسية والعسكرية المصريتان بوجود التواطؤ. أما قبل ذلك فكان احتمال هذا التواطؤ غير موجود بل يمكن الجزم أنه كان منعدما.

وهنا صدرت أوامر الانسحاب من سيناء تحت ستار المعركة الدفاعية المستميتة التى كانت قواتنا فى الشرق تخوضها وبإصرار حتى تعطى الفرصة لقواتنا التى اندفعت فى الشرق خاصة الفرقة المدرعة بالانسحاب غربا إلى مواقعها الجديدة.

ولكن كيف صدرت أوامر الانسحاب؟ وقد عاصرتها بنفسى لوجودى داخل مركز إصدار القرار.

حينما أصبح الشك فى التواطؤ يقينا عقد جمال عبد الناصر اجتماعا فى القيادة العامة للقوات المسلحة فى حجرة جانبية لقاعة الخرائط التى كنا نتوزع حولها ـ وكنت قد عدت من فورى من الإسماعيلية بعد إبلاغى القيادة الشرقية لعملية إسقاط القوات غربى نخل والاتفاق على إلغائها. وقد حضر اجتماع الغرفة المغلقة بعض أعضاء مجلس الثورة وقد رأى عبد الناصر سحب قواتنا فورا من سيناء لإنقاذها من الفخ الذى نصب لها قبل فوات الأوان، وإن كان عبد الحكيم عامر عارض الانسحاب من الناحية العاطفية البحتة ويقول

عبد اللطيف بغدادى فى مذكراته ـ وكان حاضرا داخل غرفة الاجتماع بعد عودته من الإسماعيلية حيث قابلته فى غرفة نائب القيادة الشرقية ـ الآتى : « كان عامر يرى أن استمرار القتال سيدمر البلاد وأن الشعب سيكره النظام وهو يفضل ترتيبا على ذلك إيقاف القتال وأن صلاح سالم أيد ذلك مضيفا أنه على عبد الناصر إعلان وقف القتال والاستسلام على أن يسلم جميع أعضاء مجلس الثورة أنفسهم لتريفليان السفير البريطانى ، وسرعان ماعاد صلاح سالم إلى صوابه وتطوع لقيادة منطقة السويس ، وقد رأيته بنفسى وهو يغادر حجرة الاجتماع مسرعا لايلوى على شىء ليستقل عربة جيب إلى السويس حيث قيادته الجديدة .

ووضعت خطة الدفاع عن بورسعيد فى انتظار عملية الإنزال وبدأت معركة بورسعيد والتى صمدت إلى أن توقف القتال .

وفى تلك الظروف الصعبة كانت الإستراتيجية العامة لمصر كالآتى :

١ ـ عدم قبول الانذار البريطانى الفرنسى وكان هذا أول صدمة لقوى العدوان .

٢ ـ إفلات القوات المسلحة من مصيدة سيناء بأقل خسائر ممكنة تحت ستار المعركة التعطيلية التى كانت قواتنا تخوضهافى الشرق .

٣ ـ تجنب الدخول فى معارك جوية مع القوات المعادية .

٤ ـ الدفاع عن مدن القناة إلى آخر طلقة وآخر رجل وتمركزت القوات المسلحة فيها كنواة لتتمركز حولها قوات جيش التحرير والفدائيين على طول القناة وفى العمق ووزعت الأسلحة على الشعب دون أى قيد من القيود .

٥ ـ تعطيل الملاحة فى قناة السويس .

٦ ـ صمود الجبهة الداخلية التى التفت حول قيادتها ، وخرج الشعب العربى من المحيط إلى الخليج فى تظاهرات عارمة تؤيد مصر وقائدها .

وفشل العدوان

٥ـ الخلاصة

١ ـ لقد انتهى الصراع بتحولات خطيرة فى موازين القوى على الصعيدين العالمى والإقليمى .

(أ) فعلى الصعيد العالمى انضم كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى جهد مشترك لتطويق الأزمة بعد الإنذار الروسى ، ومعنى ذلك أن القوتين العظميين كانتا فى ذلك

الوقت تقومان بجهد مشترك للحفاظ على النظام العالمى السائد .

(ب) وعلى الصعيد الإقليمى فإن تطورا خطيرا قد حدث فبعد أن كان الصراع يدور على أساس القطب الواحد وهو القطب الغربى أصبح ثنائى القطبية بعد أزمة السويس .

٢ ـ وأدت الحرب إلى تغيير طبيعة العلاقات داخل التكتل الغربى ، إذ حلت الولايات المتحدة بصفة نهائية محل حليفتيها لسد الفراغ فى المنطقة عن طريق «فكرة الحلف الإسلامى بزعامة سعود » وسبق ذلك محاولاتها لفرض مشروع إيزنهاور .

٣ ـ انتقل مركز الثقل الإقليمى ـ ولو إلى حين ـ من منطقة قناة السويس إلى الخليج العربى وهى الإستراتيجية التى عرفت بإستراتيجية شرق السويس .

٤ ـ حينما يفشل الردع يبدأ القتال ، وهذه نظرية سليمة فى الصراع العالمى تجعل الحفاظ على السلام أغلى من نفقات الحرب ، ويكفل خلل توازن القوى فى منطقة ما عاملاً على قيام الأقوى بالعدوان ، وإذا كانت القوة هى إحدى وسائل ممارسة السياسة فإنها بالقطع ليست وسيلتها الوحيدة ، ولاشك أن بريطانيا وفرنسا لولا لجوءهما إلى استخدام القوة لكان الحل أفضل مما وصلا إليه عن طريق استخدامها . إذ إنه ليست العبرة فى استخدام القوة ، ولكن العبرة فى تحويل أثر ذلك إلى حقائق سياسية ، الأمر الذى لم يحدث فى أزمة السويس .

٥ ـ إن الاستقرار العالمى أو الإقليمى لايمكن أن يتم تحت تهديد نووى ، أو رادع تقليدى أو ضم الأراضى أو طرد السكان . . . إن مثل هذا الاستقرار استقرار ردىء حتى لو أدى إلى اتفاق سياسى إذ إن مثل هذا الاتفاق يعبر عن توازن القوى للموقعين عليه فقط ولا يعبر علاوة على ذلك عن توازن مصالحهم .

ولكن بالرغم من ذلك فإن استخدام القوة فى النظام العالمى أمر حدث فى الماضى ويحدث فى الحاضر، وسيحدث فى المستقبل سواء استخدمت وهى فى حالة السكون أى الردع ، أو فى حالة الحركة أى القتال .

وعلينا أن نتذكر ذلك فاليوتوبيا هى مقتل الساسة .

الفصل العشرون

إدارة أزمة سقوط الطائرة

بان أميريكان فوق لوكربى !!!

لم تكن الضربة الجوية التى وجهها الرئيس السابق للولايات المتحدة رونالد ريجان إلى الجماهيرية الليبية فى ٢٦/ ٤/ ١٩٨٦ آخرحلقة فى سلسلة الأزمات التى تواجهها ليبيا . فهى فى مواجهات متتالية ربما من صنع أيديها وربما من صنع غيرهـا ممن يتربصون بها فى الآكام الكثيفة لغابة السياسة الدولية المليئة بالنمور المفترسة والثعالب الماكرة .

وفى كثير من الأحيان تكون القرارات الليبية سببا مباشر فى إتاحة الفرصة أمام الغير لتجسيد أزمات ربما تحدث فى الوقت غير المناسب للمسيرة العربية فتحول الأنظار بعيدا إلى اتجاهات فرعية تحول دون التركيز على الأخطار الداهمة والأزمات الحقيقية التى تهدد المصير العربى .

فحينما تولت لجنة الطوارئ السلطة فى الكرملين لمدة ٧٢ ساعة فى سبتمبر / أيلول ١٩٩١ وأزاحت السلطة الشرعية فى الاتحاد السوفيتى متمثلة فى الرئيس جوربا تشوف سارع النظامان الليبى والعراقى وبعض الفصائل الفلسطينية بتأييد الانقلاب عقب البيان الأول مباشرة ، وعلقت وقتئذ على هـذا الموقف فى «تأملات فى جريدة الأهالى » بقولى « مرةأخرى لا اعتراض لنا على أى موقف فالحديث كله عن تأييد أو اعتراض يتم دون توفر المعلومات الكافية التى يصدر على أساسها قرار رجل الدولة . . الحديث كله عن مرحلة صناعة القرار قبل إصداره . كان الموقف غامضا تحوطه السحب الكثيفة التى تمنع الرؤية فكان الأحرى أن نتريث حتى تتوفر المعلومات عن الاتجاه الحقيقى للعاصفة وحتى ينقشع الضباب خاصة فى نظام سوفييتى جديد أصبح له مؤسساته التى قللت من دور الحزب وأجهزة الأمن والقوات المسلحة ، كان القرار متسرعا فيه إعلان عن العواطف ، أكثر منه ترجمة أمينة لإعمال العقل وإجراء الحسابات ، فالقرار لا يصدر دون روية أو تعقل ، ولكنه يطبخ دائما على نار هادئة أو حامية حسب الظروف وبعقل بارد ليس به ذرة من انفعال ، لأن صاحب القرار لن

يتحمل نتائجه خاصة فى أنظمتنا الغربية حيث لا حساب أو مساءلة ، ولكن النتائج تقع دائما على رأس الشعب الذى لاحول له ولا قوة(*) .

حدث ذلك منذ أسابيع تتابعت فيها الأحداث وفرقعت فيها الزلازل لتغير فى كثير من الثوابت التى تمسكنا بها ربما بحق وربما بغير حق ، ومن ضمن ما تغير كان القرار الليبى سواء فى مرحلة صناعتة أو مرحلة صدورة ، فقد لمست ذلك بنفسى أثناء وجودى فى ليبيا لحضور ندوة أشرف عليها مركز دراسات العالم الإسلامى عن الدروس المستفادة من حرب الخليج وتأثير ذلك على الأمن القومى العربى

(* * *)

هبطنا فى مطار طرابلس وأزمة سقوط الطائرة بان أميريكان فوق لوكربى بإسكتلندا تتصاعد فى سرعة رهيبة لتهدد بعدوان جديد على ليبيا وبأزمة ساخنة فى منطقة تتوالد فيها الأزمات المتنوعة بحيث لا تخبو أزمة الا وتشتعل أخرى ، وبذلك لا تترك فرصة للبحث المتعمق عن الأسباب الحقيقية التى تحفز على عدم استقرار المنطقة لتتفرغ إلى التنمية ورفع مستوى معيشة شعوبها .

وقبل أن نسترسل فى الحديث ، ما هى قصة هذه الطائرة ؟

فى ٣١ ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٨٨ شُحنت حقيبة على الخطوط المالطية فى السفرية ك م ١٨٠ المتجهة إلى فرنكفورت على أساس أن محطتها الأخيرة مطار جون كنيدى عبر فرنكفورت ولندن وتحتوى الحقيبة على ملابس ومظلة شمسية وقنبلة موجودة فى جهاز مضبوط للانفجار فى الطائرة أثناء طيرانها ، وحولت الحقيبة إلى خطوط بان أميريكان الرحلة رقم « بى - إيه ٣ . ١ إيه - BA 103 A فى فرانكفورت المتجهة الى نيويورك عبر لندن وبعد ٣٧ دقيقة من طيرانها من لندن انفجرت القنبلة فوق لوكربى بإسكتلندا وتسببت فى مقتل كل ركابها البالغ عددهم ٢٥٩ بالإضافة إلى طاقم الطائرة وعدده ١١ فردا .

وعقب هذه المأساة التى لايمكن أن يوافق على حدوثها إنسان عاقل تضاربت التصريحات الأمريكية ، وتناقضت اتهاما تها ، فأعلن أحد مسئولى المخابرات الأمريكية أن تفجير الطائرة تم بناء على خطة مشتركة بين إيران وسوريا وليبيا ، وهى الدول التى كانت تتهمها واشنطون فى ذلك الوقت برعاية الإرهاب ، ونفت الدول الثلاث أى صلة لها بالحادث إلا أن رواية أخرى كانت قد بدأت تجد تأييدا متزايدًا فى أوساط المخابرات الأمريكية وتتلخص فى أن إيران هى التى وراء الحادث وذلك انتقاما لإسقاط البحرية

(*) أمين هويدى - الأهالى فى ١٨/ ٩/ ١٩٩١ .

الأمريكية طائرة إيرانية فوق مضيق هرمز فى ٣ يوليو / تموز ١٩٨٨ وكان جميع ركاب الطائرة الإيرانية قد لقوا مصرعهم فى الحادث إلا أن الولايات المتحدة إعتذرت عن إرتكاب الحادث مبررة إياه بأنه نجم عن خطأ بشرى حدث إبان الحرب العراقية الإيرانية ، وجل من لا يخطىء ولكن سرعان ما تحول أصبع الاتهام الأمريكى إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومقرها دمشق وأكدت المخابرات الأمريكية أنها هى التى قامت بتفجير الطائرة . وكما نلمس كانت قرارات الاتهام متضاربة متناقضة .

وفى أوائل عام ١٩٨٩ نام الموضوع وكتب على الملف « تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل) وعلينا أن نقف هنا لحظة لمعرفة معنى حفظ القضايا السياسية . فى مسرح السياسة الدولية ، فليس معنى قفل التحقيق إنهاءه ولكن معناه دائما وضعه على الرف ليكون جاهزًا لإبرازه وقت الحاجة . . ليس مهما معرفة الفاعل أو تحديد من ارتكب الجريمة ، ولكن الأهم من ذلك أن « يلبس» من يقع عليه الخيار الجريمة التى قد يكون قد ارتكبها فعلا أو التى قد يكون بريئا منها لخلق نقطة ساخنة ، تكون ساترًا لإجراء معين عقد العزم على القيام به وتنفيذه . لأن ممارسة الدبلوماسية تتم بطريقة منفصلة عن العامل الأخلاقى ، وتأييدًا لذلك فإنه يحكى أن ونستون تشرشل زار أحد المدافن ووجد مكتوبا على شاهد أحد الموتى «كان دبلوماسيا مبدعا وعلى جانب كبير من الأخلاق» . فعلق وهو يضع باقة من الورد على المدفن «لم أكن أعلم أن قبرا واحدا يمكن أن يدفن فيه شخصان» . وأعاد قبعته العالية إلى رأسه وانصرف وهو يتظاهر بالحزن العميق .

وفى ١٥ نوفمبر / تشرين ثانى ١٩٩١ سحب ملف القضية الذى كان قد سبق حفظه لعدم معرفة الفاعل من فوق الرف وأعلن المتحدث باسم البيت الأبيض أن الرئيس جورج بوش أصبح متيقنا أن ليبيا وراء الحادث المؤسف وأن الرئيس يجرى مشاورات مع عدد من قادة دول العالم من بينهم رئيس الوزراء البريطانى جون ميجور للاتفاق على إجراءات عقابية دولية ضد ليبيا ، وأضاف بأن واشنطن تحتفظ لنفسها بحق العمل المنفرد ونفى المتحدث ـ وياسبحان الله ـ أن يكون لسوريا أو إيران علاقة بالحادث . وسرعان ما أصدرت السلطات القضائية البريطانية والأمريكية قرارا باتهام كل من عبد الباسط محمود والأمين خليفة ـ قيل إنهما فى المخابرات الليبية ـ بارتكاب الحادث وطالبت بريطانيا التى ترضى بأن تكون وبصفة دائمة ذيلاً للسياسة الأمريكية لتحتفظ لها بدور على مسرح الأحداث بتسليم المتهمين الليبيين لمحاكمتهما أمام المحاكم البريطانية لأن الحادث وقع فوق اسكتلندا وهى جزء من أراضيها ! ! !

والسؤال الأول بعد أن سردنا القصة المثيرة هو: لماذا وقع الخيار على ليبيا « لتلبس»

الجريمة التى كـان ملف تحقيقاتها قد حفـظ لعدم معرفة الفـاعل؟ والسؤال الثانـى هو لماذا سحب الملف من فوق الرف الآن وفى هذا الوقت بالذات؟

* * *

والسؤالان يفرضان نفسيهما وسط أعاصير الأحداث .

لماذا ليبيا بالذات؟ ليبيا لهاملف « سوابـق» مكتظ بالتهم فى مجال الإرهاب « فالجماهيرية العظمى» ــ ولأسباب غير واضحـة متهمة بتدعيـم كل حركـات التطرف فى العـالم، سواء كانت عـربية أو غير عربية بـداية من « أبو نضـال» ومرورا «بكارلوس» و«الألـوية الحمراء» و«ثـوار إيرلنـدا» ونهايه بـدعم الهنـود الحمـر. . . . والدولـة « ذات السوابـق» من السهـل «تلبيسها» سابقة أخرى حتى لو أنها انتوت التوبـة والهداية ، فالماضى يلاحق صاحبه علاوة على أن الخصوم يعتقدون أن الجماهيرية لم تسلـك هذا الطريق عن طواعيـة ولكن كان ذلك رغم أنفها خوفا من تكرار « علقـة » عام ١٩٨٦ وأنها مستعدة للعودة إلى أعمالها السابقة إذا تيسرت الظـروف كما حدث عنـد تدعيمهـا للجنة الطـوارئ فى موسكـو التى انقلبـت على الشرعية حتى قبل توفر المعلومات عن حقيقة اتجاه الرياح ويضيف هؤلاء أن الجماهيرية دولة مشاكسـة » لاتريد أن تـدخل المصيدة كالآخـرين، وكان مـوقفها فى حرب الخليـج يحوطه علامات الاستفهام فلا يعرف أحد على وجه الدقة هـل كانت مؤيدة للعراق أم مناهضة له ثم إنها مـن الدول القليلـة التى لم تـركب القطار السريـع إلى مدريـد وتعارض المفـاوضات العربية الإسرائيلية بـاعتبار أن الصراع صراع وجود وليس صراع حدود ثم ــ هكذا يقولون ـ فإن النظـام الليبى خارج عن العـرف الدولى فى منظماته وهياكلـه وتسمياته وفوق كـل ذلك فهو نظام يمتلك ترسانة حربية مقلقة بغض النظر عن الشكوك فى قدرتها القتالية، كما ثبت فى الحرب الطـويلة فى تشـادكما تمتلـك المعامـل الكيماوية التـى يظنـون أنها تنتج الأسلحـة الكيماوية فى سلسلة تطلعاتها لتمتلك الأسلحة شديدة التدمير، ولاينسون أنها حاولت شراء قنبلة ذرية من الصين الشعبية فى أيام « العذرية الثورية» بعد الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ .

إذن فالملف المكتظ بـالأحداث والشكوك والمواقف يرشح ليبيا لكـى « تلبس» تهمة نفت ارتكابها بشدة وقت حدوثها ومازالت تنفيها حتى الآن .

طيب ولماذا سحب الملف الآن من مكانـه على الرف فى الخزائن المقفلة ؟ مر على الجريمة سنوات ثلاث ونسيها البعض وتناساها البعض الآخـر ثم قاربت المدة القانونية على سقوط الاتهام من الانتهاء، وكـان من الممكن التغاضـى عنها فى ظل النظام العـالمى الجديد الذى يـرفع شعـارات التعـاون المتبادل وحـل التنـاقضات دون استخـدام القـوة مع العمـل على التعـايش معهـا. . . وطبعا ليـس أمامنـا الإجابـة على السؤال الصعـب إلا الاستنتاجـات

فصعوبة الموضوع تكمن فى أنه يتعلق بالنيات، والنيات علمها عند الله سبحانه وتعالى وعلى أى حال فقد تكون الإجابة فى أحد الاحتمالات التالية وربما فيها جميعا :

● قد يكون للتغطية على الجمود الحالى غير المبرر للمحاولات الخاصة بالصراع العربى الإسرائيلى، خاصة بعد « مهرجان مدريد» ودقة الموقف الأمريكى أمام ألاعيب «إسحاق شامير» . . وفى مواجهة ذلك لابأس من خلق أزمة جديدة مضى على حدوثها ثلاث سنوات حتى ينشغل العالم بأزمة فرعية عن الأزمة الرئيسية، وهى الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين، ونحن نعتقد أنه كلما ازداد الموقف الإسرائيلى تعنتا فى الشرق كلما زاد احتمال استخدام القوة ضد ليبيا فى الغرب فسياسات الدول العظمى تفضل التحرك على مواجهات واسعة تتحاشى أن تحاصر نفسها فى مواجهات ضيق، ة وكذلك فهى تميل إلى سياسة الترابط Linkage أى ربط الأزمات بعضهاببعض .

● وقد يكون الهدف تحجيم الدور الليبى بصفة جذرية والجرى وراء ترسانتها الحربية ومعاملها الكيماوية فبعد محاولاتها لتمشيط العراق فلا بأس من تعزيز ذلك بتمشيط ليبيا .

● وربما يكون الهدف الأمريكى الضغط على ليبيا فى الغرب لتليين بعض المواقف العربية فى الشرق التى مازالت تتشدد، فإثارة الأزمة قد تكون رسالة غير مباشرة موجهة إلى سوريا لأن التنازلات الثقيلة التى قدمتها ليست بكافية .

● وربما يكون الهدف هو تثبيت الموقف الأمريكى القائد فى النظام العالمى الجديد باعتباره «الشرطى العالمى الوحيد» الذى أخذ مسئولية تنظيم المرور فى العالم والسيطرة على كل الأنوار الحمراء والخضراء والصفراء على ظهر الكوكب الذى نعيش فيه .

* * *

وعلى هامش الأزمة يمكن للعين المدققة أن تلتقط بعض الغرائب .

فقد اطلعت وأنا فى ليبيا على مذكرة المدعى العام الأمريكى، والمذكرة لم تتهم الجماهيرية كدولة بالجريمة، ولكن كان الاتهام مركزا على فردين من ليبيا نصت المذكرة على ارتكابهما حادث تفجير الطائرة منذ ثلاث سنوات فوق اسكتلندا، كما أن مذكرة المدعى الأمريكى لم تطالب بتسليم الليبيين لمحاكمتهما فى دول أجنبية لأن الرجل يعرف تماما أن القوانين الدولية تمنع ذلك، وبالرغم من هذه الحقائق إلا أن السلطات الأمريكية تطالب بتسليم المتهمين الليبيين استنادا إلى قانونين أمريكيين صدرا عام ٨٤، ١٩٨٦ يعطيانها الحق فى ملاحقة الأعمال الإرهابية المرتكبة ضد الأمريكيين فى الخارج، ومعنى ذلك أن هناك تناقضا حادا بين رجال القانون ورجال السياسة فى الولايات المتحدة، ويزداد الأمر غرابة حينما نجد أن

بريطـانيا العظمـى تطلب من الجماهيريـة العظمى أيضا تسلـم المتهمين فى نفس الـوقت، ومعنى ذلك أنه إذا تحقق المستحيل وقبلت ليبيا تسليم المتهمين فإن أزمة حقيقية سوف تتولد عن الطلب المزدوج من بريطانيا والولايات المتحدة بتسليم المتهمين، وهنا قد تتفق الدولتان على أحد الحلـول الآتية للخروج من المأزق : فـإما أن يحاكم المتهمان أولا فى واشنطـن وبعد صدور الحكم ينتقلان إلى بريطانيا العظمى لمحاكمتهما من جديد، أو يحاكم فرد من الاثنين أمام المحاكم الأمريكيـة ويحاكم الآخر أمام المحاكم البريطانية، وإذا تعـذر ذلك قد يحاكم المتهمان فى دولة محايدة!!! ألا تعتقدون معى أن الموقف غريب وعجيب!!

ثم وفى نفـس الوقت أثبتت سلطـات التحقيق اللبنانيـة أخيرا تورط شبكة تابعـة لجهاز الموساد الإسرائيلى فى تفجير أحـد مبانى الجامعـة الأمريكيـة فى بيروت، وهو مايتطلـب من أمريكـا التعامـل مع كـافة الأحداث بمكيـال واحد . . فهـل ستفعل ذلـك أم إنها ستطبق سياستهـا بطريقـة انتقائيـة كما حدث فى إصرارهاعلى تـدمير الترسانـة العراقيـة بما فى ذلك الأسلحة شديدة التدمير مع ترك إسرائيل بترسـانتها النووية لتصبح القوة العظمى الإقليمية فى المنطقة، هـل ستطبق الـولايات المتحدة الأمـريكية الشرعيـة الدولية بطـريقة انتقـائية فى حادث الإرهـاب كما طبقتها بضرب العراق الـذى رفض تنفيـذ قرارات مجلس الأمـن وعدم التصـدى لإسرائيل، وهـى تـرفض تطبيـق قـرارات مجلس الأمـن والأمـم المتحدة بتعنـت واستخفاف وعنجهيـة لايمكن أن تقوى عليهـا لو أن المعاملة كـانت بالمثـل؟ ألا تعتقدون معى أن الموقف غريب وعجيب ؟!!

ثم إذا انتقلنا إلى ليبيا نفسها لـوجدنا موقفا غريبا كما لمسته بنفسى، فليبيـا الرسمية تدير الأزمة بطـريقة حكيمـة وذكية تدل على أنها تعلمـت من الماضى فهـى تلجأ إلى الأسـاليب القانونية والدبلوماسيـة الهادئة وتخلت عن التصريحات العصبية، وتحاول أن تجعل من الأزمة أزمة عربية أمريكية وليست ليبية أمريكية وعينت قاضيا بدرجة رفيعة للتحقيق مع المتهمين على ضوء مذكرة المدعـى العام الأمريكى ودعت كل الدول المعنية لترسـل مندوبيها لحضور المحاكمة . . . إجراءات طيبة وحكيمة .

ولكن اللجان الشعبيـة تتصرف وكأنها حصان جامح انفلـت عن قيادته، فهـى مازالت ترفع الشعارات الساخنة التى يتعذر تنفيذهـا ومازالت تتبع الصخب والصوت العالى الذى لاينفع ولا يجدى وتنادى بالويل والثبور تحت مظلة الثـورية بمفهومها الخاطئ، لأن الثورية الحقيقية هى التـى تتعامل مع الممكـن وتدير الأزمة بطـريقة ناجحة تتفـادى بها المواجهة، وعلى الجماهيريـة أن تنسق تحركـاتها وأن تعمـل على كبـح جماح الأحصنة الجامحة لتسير مـع الركب حتى تكمل المشوار .

قال الحكيم والقائد الصينى العظيم « صن تزو Suh - Tzo » منذ مائة سنة قبل الميلاد « إذا كان العدو هو الأقوى وثائر الأعصاب لا تحاول إثارته وتجنب المواجهة وإذا كان العدو هو الأضعف وهادئ الأعصاب اعمل على إثارته حتى يقع فى الفخ». والأزمة تدور بين صياد ماكر يعمل على توريط فريسته حتى ينقض عليها ، فإذا كان الصياد ينصب الفخاخ فعلى الفريسة مفاداتها ، والأزمة كلها أولا وآخرا ليست قانونية لمعاقبة مجرم ولكنها سياسية حتى يتم إعادة رسم خريطة المنطقة حتى تبقى ليبيا خارج الملعب تعانى من مشاكلها وتلعق جراحها ، فهذا أفضل من تركها حرة تسبب المشاكل للآخرين فوضعها فى القفص مؤقتا يساعد على عدم تعطيلها مايتم بين العرب الآخرين وإسرائيل تطبيقا لاستراتيجية الترابط .

الفصل الحادى والعشرون

النظام الإقليمى العربى بعد توقف الحرب العراقية الإيرانية(*)

لم يكن أحد يذهب به الخيال أن يتجه النظام العراقى دون سابق إنذار بعد إيقاف الحرب العراقية الإير انية إلى مهاجمة الكويت ويعلن ضمها إليه كإحدى محافظاته تمادعا إلى عملية « عاصفة الصحـراء » لإجباره على العودة من حيث أتـى وماتلا ذلك من بنـاء نظام إقليمى صعب وثقيـل بعد نظام إقليمـى مواتٍ للعرب بعـد انتهاء الحرب العـراقية الإيرانيـة ولكى نعرف مـدى الفرق بين ماكنـا عليه وقتئذ وبين مـا أصبحنا عليه بعـد حرب الخليج الثـانية أضفنا هذا الفصل عسى أن يفيدنا فى نظرتنا المستقبلية وحتى لانستمر أسرى لما حدث .

١ ـ النظام الإقليمى بعد توقف الحرب

ليس معنـى توقف الحرب العراقيـة الإيرانية تـوقف الصراع فى المنطقة بوجـه عام أو بين العراق وبعض الـدول العربية وإيران ، فقد تـوقف القتال بناء على قـرار مجلس الأمن ٥٩٨ واتخذت قـوات حفظ السـلام الدوليـة مواقعهـا للفصل بين المتحـاربين إلا أن المفاوضـات مازالـت مستمرة متعثـرة حتى الآن لاتجد حـلا للأسبـاب التى دعـت إلى قيام الحرب ، وفى تقديرنا فإن النقطة الحرجة التى ستحول دون اتفاق قريب هى الوضع فى شط العرب ومصير اتفاقية الجزائر عـام ١٩٧٥ . أما عن تبادل الأسرى والتعويضات واحتـلال العراق لجزء من الأرض الإيرانية فكلها تفريعات جانبية للتناقض التاريخى بين البلدين .

ولذلـك فالمرحلة الحالية هـى مرحلة الاستقرار القلـق والسلام المراوغ ومرحلة الـلاسلام

(*) ألقيت الأفكار الـرئيسية فى هذا الفصل فى مؤتمر صيـق دعت إليه وزارة الخارجية فى أبو ظبـى بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية بفترة قصيرة .

واللاحرب والتى يحاول فيها كل طرف كسب معركة « توازن القوى » من سباق تسلح مستمر تحسبا للاحتمالات ، ولا يمكن لأحد أن يحدد تماما إلى أى مدى يستمر هذا الوضع فى المستقبل ولا إمكانية استئناف القتال من جديد إذا رأى أحد الطرفين أن ذلك سوف يعدل من أوضاعه إلى الأفضل ، والحكم فى ذلك هو الحالة التى سوف تسير عليها محاولات تعديل موازين القوى . وفى رأينا فإن الحرب توقفت وموازين القوى فى صالح العراق سواء من ناحية الكم أو الكيف ، سواء فى القدرة القتالية للقوة الضاربة العراقية ، أو فى قدرة العراق على شل المجهود الحربى الإيرانى بطريقة أفضل ، أو فى حصوله على أوراق ضاغطة تتمثل فى احتلاله لمساحات من الأراضى الإيرانية .

وعلى أى حال فليس من المصلحة العربية أو العراقية استئناف القتال مرة أخرى لأن مايبدو من المناورات الدولية الجارية يشير إلى احتمال تدخل دولى لإجبار العراق على التوقف إن استؤنف القتال مرة أخرى فى أوضاع قد لاتكون أفضل مما هى عليه الآن . ولذلك فمهما استمرت المحاولات لإطالة فترة اللاسلام واللاحرب ومهما قدمت الإغراءات لدفع العراق لاستئناف القتال فمن واجب النظام العراقى وبإقناع من الدول العربية ألا يلتقط الطعم .

ولتنفيذ هذه الإستراتيجية يمكن اتباع الاقتراحات التالية :

* أن يتبع العراق إستراتيجية الردع لتجنب القتال ولابد أن يصل الرادع العراقى إلى الحد الذى يقنع الطرف الآخر وهو يعيد حساباته أن نتيجة استئنافه للقتال ستوقع به خسائر لا قبل له بها تؤدى إلى سقوط نظامه وتجعله أكثر التصاقا بمائدة المفاوضات .

* أن تستمر الجهود العربية فى مساندة العراق ومساعدته على الصمود فى مرحلة تنفيذ قرار مجلس الأمن والارتفاع بمستوى قدرته الرادعة ومنعه من التورط فى قتال ليس فى صالح أهدافنا القومية وبالتأكيد يهدد أمن دول الخليج .

* أن يتزامن التطبيع العربى مع إيران مع الخطوات التى تقدم عليها لتحقيق المصالح العربية واستقرار الأوضاع فى المنطقة ، مع محاولة تشجيعها على الاعتدال وتوفيق أوضاعها لتتفق وتتسم مصالحها مع مصالح العائلة الإقليمية وعلى الدول العربية التى لها علاقات خاصة مع إيران إقناعها بالدخول فى حوار جاد للتسوية بدلا من استمرارها فى سياسة « كل شىء أو لاشىء » فهى سياسة غير واقعية وغير حكيمة ولم تجلب على مدى التاريخ إلا الويل والدمار للأطراف التى راهنت عليها . . . إن السلام الطويل لن يكون إلا نتيجة لاتفاقيات تعتمد على توازن المصالح وليس فقط توازن القوى .

* قيام الدول العربية بالتنسيق مع العراق لشن « هجوم سلام » فاقتراح البدائل التى

تحرك الجمود الحالى وسواء استجابت إيران أو أعرضت فإن النتيجة إيجابية فى الحالتين لأنه فى حالة الاستجابة فإن هذا يحقق مانريد وفى حالة الإعراض فإن ذلك سيزيد فى عزلة إيران داخليا وخارجيا .

وعلى العرب ـــ خاصة دول الخليج ـــ أن يبنوا خططهم على أن الصراع سوف يستمر فى المنطقة لفترة غير منظورة حتى بعد الاتفاق على تنفيذ قرار مجلس الأمن للأسباب التاريخية المعروفة ، وكذلك لطبيعة النظام الثورى فى إيران إذ من طبيعة هذه النظم التطرف وعدم التخلى بسهولة عن أغراضها الثورية لاعتقادها أنها صاحبة رسالة لابد من تنفيذها حتى بتخطى الحدود السياسية بتصدير الثورة لأنها تضع حدا فاصلا بين علاقاتها مع الآخرين كدولة وعلاقاتها كثورة ، وإن لم تعلن عن ذلك وغلفته بالسرية والكتمان . فبالرغم من محاولات التطبيع بين إيران وبعض دول الخليج فإن ذلك لن يتم على حساب مصداقية الثورة الإسلامية فى المنطقة أو على حساب علاقاتها المصيرية مع القوى الثورية فى هذه الدول ، كما ورد فى تقرير مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية التابع لوزارة الخارجية الإيرانية ، فهناك إذن فرق بين إيران الدولة وإيران الثورة وعلى الدول العربية أن تتعامل مع كل من السياستين العلنية والتحتية للإدارة الإيرانية فى وقت واحد ، وقد يظن البعض أن هناك تراجعا من طهران عن سياستها الثورية فهذا أمر نتمناه مع تذكر أن السياسة ليست مجرد أمانى وأقوال ولكنها أفعال ، فهم مازالوا يؤمنون بفارسية الخليج وبأنه منطقة نفوذ لهم وأنهم الدولة الإقليمية العظمى فى المنطقة تتحكم فى الخليج والمضيق ولذلك فهم يؤمنون بأن الشاه كان على حق باستيلائه على الجزر وهم يتحدثون عن علاقاتهم التاريخية مع هؤلاء الذين يعيشون فى الشاطئ الغربى للخليج وأن الفقيه مسئول عن الدعوة الإسلامية فى المنطقة ويقول فى تعليماته فى أكتوبر عام ١٩٨٨ إلى السلطات الثلاثة « إننى لن أسمح مادمت حيا أن تتغير سيرة سياستنا الراهنة » وإجراءات إيران الأخيرة بخصوص رواية «آيات شيطانية» لسليمان رشدى تدل على تغليبها للاتجاه الثورى على النتائج السياسية التى تحتاج الى إتباعها فى موقفها الصعب .

إذن فنحن أمام مرحلة توقف فيها القتال مع استمرار الصراع بوسائل أخرى غير القوات المسلحة وعلى الدول العربية أن تجيب بوضوح عن الأسئلة التالية :

ماهى الإستراتيجية العربية فى مرحلة المفاوضات لمحاولة تنفيذ القرار ٥٩٨؟

ماهى الإستراتيجية العربية لو امتدت هذه الفترة واختل توازن القوى لصالحها؟

كيف يمكن توزيع الأدوار منعا للاستقطابات المتعددة لتحقيق المصالح العربية؟

على الدول العربية أن تحدد استراتيجتها فى التعامل مع كل من إيران الدولة التى تريد

الإسراع فى تطبيع ظاهرى وإيران الثورة التى تستخدم ذلك فى تحقيق أغراضها التى تتناقض مع الأغراض العربية حتى تقضى على العزلة الإقليمية التى أوجدت نفسها فيها وتشق الصف العربى علاوة على ذلك، علما بأن الموقف العربى فى اتجاهاته مع إيران متناقض أصلا . . إيران تقسم دول المنطقة إلى درجات ثلاثة :

الأولى وتشمل عمان ودولة الإمارات وقطر وهى تريد توثيق علاقاتها معها ولو إلى حين .

الثانية وتشمل الكويت والبحرين وهى تريد توثيق علاقاتها معهما لفتح الطريق أمام سياستها الثورية .

الثالثة وهى السعودية والتى تعتبر التطبيع معها بمثابة انتحار للثورة .

فهل فى ظل العلاقات العربية ـ العربية الحالية أو العلاقات العربية الإيرانية القائمة يمكن الاتفاق على استراتيجية عربية واحدة مع كل من إيران الدولة وإيران الثورة؟ ما الموقف إذا استمرت إيران فى توثيق علاقاتها مع الجماعات الثورية التى تعمل تحت الأرض فى بعض الدول العربية علما بأننا لانميل إلى الأخذ برأى البعض من أن إيران سوف تركز مركز ثقل سياستها نحو باكستان وأفغانستان، خاصة بعد الانسحاب السوفيتى من الأخيرة ولكننا نعتقد أنها ستركز سياستها فى الخليج جنوبا ثم غربا حيث إن النتائج أكثر بريقا وحسما من وجهة نظرها .

أسئلة ملحة تحتاج إلى إجابة واضحة من دول مجلس التعاون وكذلك من دول إعلان دمشق .

٢ ـ النظام الإقليمى العربى ـ حقائق جيوبوليتيكية :

تبلورت عدة حقائق جيوبوليتيكية أثناء الحرب العراقية الإيرانية وبعدها يمكن إجمالها فى الآتى :

١ ـ تآكل قوة الدولة المفردة على مواجهة التهديدات الخارجية والتحديات الداخلية، وفى غياب الإرادة القومية المتمثلة فى الجامعة العربية اتجهت الدول العربية إلى تكوين أنظمة «تحت إقليمية» على أساس تنفيذ الممكن بدلا من التمسك بما تراه مستحيلا بغرض خلق أنواع عن التعاون أو العمل الجماعى بحثا عن تكوين إرادة جماعية جزئية لتعويض مالمسته عن عجز الإرادة القطرية ومن تآكل الإرادة القومية الشاملة ومهما قيل من سلبيات هذه المحاولات فإن مجرد اتجاه الأنظمة الحاكمة إلى العمل الجماعى سواء بالإعلان الذى ينقصه جدية التنفيذ أو بالتنفيذ الذى ينقصه الإقدام والمحاط بالشكوك السياسية بين أعضائه يؤكد

هذه الحقيقة . ولكـن بالرغم من هـذه الاتجاهات فإن الإرادة . العربية الشـاملة أو الجزئية غير قادرة على فرض نفسهـا على مسرح الأحداث . فالمسالة ليست تنظيـم وتجميع كتل . . وضمها إلى بعضها البعض ولكن المسألة فى حقيقتهـا هى ضم إرادات وإمكانيات فردية أو جزئية مـع بعضها لينتج عن ذلـك إرادة جديدة فاعلـة تنقل دولها المشتركة إلى حالـة أفضل وهى تواجه التحـديات . . . إن أى إجراء فى هذا المجال يحتم علينـا أن نتساءل أولا : ماذا يضيف إلى إرادتنا سواء على المستوى القطرى أو تحت الإقليمى أو الإقليمى ؟

٢ ـ هناك نقط ساخنة بعرض المساحة العـربية تستنزف قدراتنا . . فإذا ركزنا على المشرق العربى لوجدنا أن دول مجلس التعاون فى مركز دائرة الأزمات وليس قوس الأزمات كما أسماه زبيجنبو بريجينسكى مستشار الأمـن السابق للرئيس جيمى كارتر . هـذا المركز وسط محيط دائرة تقـع عليهـا هذه النقـاط : الحرب العـراقيـة الإيـرانية ، الصراع العـربـى الإسرائيلى ، التناقضـات الأثيوبية العـربية بخصوص إرتـريا ، مشكلة الجنـوب فى السودان إن يجرى فى محيط الـدائرة يؤثـر على مركـزها سلبـا وإيجابا إذيـدفعها لتصبـح طرفـا فيما يجرى شاءت أم رفضت .

٣ ـ إن دول مجلـس التعاون جـزء من كتلـة استراتيجية أكبر تحد شرقـا بالعـراق والخليج العربى وغربا بالبحر الأحمر ووادى النيل وشمالا بالبحر المتوسط وجنوبا ببحر العرب . هذه الكتلة تضـم منابع النفط وخطـوط مواصلاتـه ولايمكن الفصل بينهما لأن تأمين المنبـع مع تعرض خطـوط المواصلات استراتيجية فاشلـة علاوة على أن هذه الكتلة تتحكـم فى ثلاث بوابات فهى مضيق هرمز، وباب المندب ومضيـق قناة السويس فخطوط الملاحة المتجة من الخليج إلى الشرق الأقصى كـذا المتجهة إلى شرق وغرب أفريقيـا يتحكم فيها مضيق هـرمز بينما يتحكـم فى خطوط الملاحـة المتجهـة إلى أوروبا عبر البحـر الأحمر المضـايـق الثلاثـة . لقصرها وانخفاض تكاليفها ومعنى ذلك أن قطع خطوط المواصلات فى أى جزء من أجزائه لايقطع فقط تدفـق النفط عبر خطوط المواصلات أى النقل بل يعنى فى نفـس الوقت قطعه من المنبع أى الإنتـاج . كما أن قطع النفط من المنبـع أى الإنتاج يؤثر فى حجـم الملاحة عبر المضايق أى النقل .

٤ ـ زادت أهمية البحـر الأحمر كخط مواصلات لبترول الخليـج نتيجة للتهديد الإيـرانى لحرية الملاحـة فى الخليج عبر مضيـق هرمز سـواء باستخدام القـوات الجوية أو البحـريةأو الصواريخ ، ونتيجة لذلك مدت السعودية خـط أنابيب لنقل البترول عبر شبه الجزيرة غربا إلى ينبع على البحر الأحمر ثم مدت العراق نتيجة للإجراءات السورية خط أنابيبها عبر تركيا إلى البحر المتوسط ثـم أوصلت حقولها الجنوبية بخط الأنبوب السعـودى فأصبح جزء كبير

من البترول العراقى ينقل بواسطة خط الأنـابيب السعودى عبر شبه الجزيرة إلى ينبع وقامت إيران أيضـا بمد أنابيـب ودفع موانى الشحـن شرقا فى اتجاه مضيق هـرمز لتبتعد عـن مدى الطيران العراقى كما مدت اليمن الشمالى خط الأنابيب من منابع بترولها المكتشف حديثا إلى ميناء الشحن فى رأس عيسى على البحر الأحمر كما يزمع اليمن الجنـوبى القيام بإجراء مماثل بعد حل مشكلة الحدود مع اليمن الشمالى على أساس المشـاركة فى إنتاج الحقول التى كانت محل خلاف(*) وإذا أضفنا إلى ذلك خط الأنابيب المصرى من عين السخنة إلى سيدى كرير على البحر المتوسط كذا خط البترول الإسرائيلى من إيلات إلى أسدود لتجسدت أمامنا اهمية البحر الأحمر المتزايدة الأمر الذى يحتم علينـا وضعه فى الاعتبار عند رسم استراتيجية الأمن القومى للمنطقة .

ويزيد من أهمية هذا البحر الآن وجود الخط الملاحـى الجديد من نويبع إلى العقبة ليصل بين مصر والبلاد العـربية شرق خليج العقبة بعـد أن حال وجود إسرائيل دون ذلـك كما أنه يوجدعلى البحـر الأحمر ثلاث قوميات هى القـومية العربية والإسرائيلية والحبشيـة علاقاتها متناقضة الأمر الذى يحتم وضعه أيضا فى الاعتبار عند رسم استراتيجية الأمن الخليجى لأن البحر الأحمر يشكل الخطوط الخلفيةللمنطقة .

٥ ـ عـلاوة على التهيدات الداخليـة فإن التهديدات الخارجيـة لدول مجلس التعـاون قد تكون :

(أ) من الغـرب تقوم أثيـوبيا بتهديـد الملاحة فى البحر الأحمر ممـا يسبب تهديـدا مباشرا للسعوديـة وغير مباشر لمواصلات باقـى دول المجلس . . . إن كل الأغـراض الإستراتيجية لدول المجلـس ـ عدا السعـودية ــ خارج مرمـى التهديدات الأثيـوبية سـواء قامت بـذلك بمفردها أو بالتعاون مع آخرين . ونحن نعتبر أن هذا التهديد بعيد الاحتمال .

(ب) مـن الشمال بـواسطة إسرائيـل وفى قـدرتها القيـام بعمليات مثـل عمليتـى ضرب المفاعل أوزيراك فى بغداد أو رئاسة المنظمة فى تونس تهدد بها منابع البترول سواء بالوكالة أو لخدمة أغراضهـا الخاصة وتدخل كل من السعـودية والكويت داخل مـدى القوات الجوية الإسرائيلية ويمكن لإسرائيـل أن تهدد باقى الدول باستخـدام التموين بالـوقود من الجو أو بالبحـر على إحدى حامـلات الطائرات فى الخليج أو بـالدوريات بعيـدة المدى كما يمكن لإسرائيل أن تهدد خطوط المواصلات فى البحر الأحمر بوسائل متعددة .

(جـ) التهديـد الحقيقى من الشرق يأتى مـن إيران بعد أن أثبت العراق أنـه درع الدفاع

(*)وذلك قبل وحدة اليمنيين .

عن شبه الجزيرة من ناحية الشرق(*) بينما يتصاعد الخوف من سقوط البصرة فى إحدى مراحل الحرب أصبحت الكويت فى خطر حقيقى كذا دول الخليج ولاتحتاج إيران للقيام بعمليات غزو لردع دول المنطقة فكل الأغراض الاستراتيجية داخل مدى قواتها الجوية وصواريخها ويمكن لإيران أن تتحكم فى حرية الملاحة فى الخليج ولا يحول دون ذلك القوات العراقية أو الأجنبية التى كثفت من تواجدها بناء على استدعاء الدول المعنية ولاينتظر انسحابها فى المستقبل المنظور .

(د) أما عن التهديدات العالمية فهى خارج قدرة دول المنطقة للتفاوت الكبير بين حجم التهديد والإمكانيات المتاحة .

وعلينا أن نلاحظ أن تعرض دول المجلس لهذه التهديدات ليست متساوية فبينما نجد أن السعودية معرضة من كافة الاتجاهات بكل التهديدات نجد الكويت معرضة بالتهديد من الشمال الشرقى بينما البحرين وقطر ودولة الإمارات تواجه هذا التهديد الأساسى من إيران وبينما تتفاوت التهديدات إلا أن الدول مرتبطة بالسعودية وهى الدولة الإقليمية العظيمة داخل المجلس وتشكل العمود الفقرى للسياسة الدفاعية وهذا يبرر لنا تناقضا بين الحاجة إلى الاعتماد على السعودية من جانب والخوف من توريط باقى الدول فى نزاعات لاتهددها بصفة مباشرة ولكنها تهدد السعودية فحسب من جانب آخر ولكن المصير الواحد لهذه الدول يقضى على مثل هذه التناقضات .

٣ ـ النظام الإقليمى العربى ـ حقائق إستراتيجية

أظهرت الحرب العراقية الإيرانية حقائق إستراتيجية لاتخطئها العين :

١ ـ الوفاق الإستراتيجى العربى الذى كان يركز على إسرائيل كالعدو الأساسى الذى لا خلاف عليه لم يعد قائما إذ تعددت المواجهات العربية مع تهديدات إقليمية أخرى أصبحت الأسبقية الأولى لدى الدولة التى توجهها (الصحراء والمغرب ، تشاد وليبيا ، سوريا ولبنان ، العراق وإيران ، السودان ومشكلة الجنوب . . .) هذا بالإضافة إلى المعاهدة المصرية الإسرائيلية التى انتقلت بها إسرائيل من العداوة إلى التطبيع وفى ظل الخلاف على العداوة والصداقة يتعذر تصور إستراتجية واحدة تجمع أطرافا لهم نظرات متناقضة حول هذا الموضوع الخطير.

٢ ـ إن إيران وهى تواجه العراق أساسا كدولة عربية فى المواجهة لم تفرق بينها وبين غيرها من الدول العربية الخليجية مثل الكويت والسعودية أو دولة عربية أخرى

(*) لم يكن من المنظور ماقام به النظام العراقى بعدئذ من هجوم على الكويت وإعلان ضمها إليه .

فى المنطقة وإن أطماع إيران أيام الشاه مازالـت هى بعينها فى ظل النظام الجديد ، بل زاد عليها تصدير مبادئ الثورة استمرار وضع يديها على الجزر العربية الثلاثة واستمرار اتصـالاتها بباسمته بالجماعات الثـورية فى المنطقة والحفـاظ على دورها كشرطـى الخليـج والـدولـة الإقليمية العظمـى فى المنطقـة عـلاوة على إسرائيـل واصرارها على حقها فى التصرف فى حـرية الملاحة فى الخليج والسيطـرة على بوابته فى مضيق هرمز.

٣ ـ حينما اتفقت بعض الدول العربية فى منطقـة الخليج على الاتجاه الرئيسى للتهديد من نـاحية إيـران أثبت العمـل الجماعى وجـوده فى المحافظـة على الأمن القـومى العربى لدول المنطقة فلقـد قاتل العراق بجيشه ومعداته وإلى جانبـه قوات عربية أخرى بأحجام متفـاوته ودعم سياسي عربى ناقصا قطعـة أو قطعتين وقوة مالية ضخمة من بعـض البلدان العربية القادرة ، وصمد فى الحرب الاقتصـادية نتيجة للمساندة العربية سواء فى المحافظـة على حرية الملاحة فى الخليج أو فى السياسة البترولية التى عـوضـت العراق عـن النقص فى الإنتـاج والتسـويق عـلاوة على استخـدام المساحـة العربيـة الشـاسعة لخدمـة القـوات وتوفير الموانـى التبادليـة للتصـدير والاستيراد أو تـوفير خطـوط التبادليـة لنقل البترول عـن طـريق خـط الأنـابيب السعـودى إلى ينبع أو عـن طـريق شراء أو إنتـاج الأسلحة والـذخيرة اللازمة للقتال .

٤ ـ يعتمد الأمـن القومى أولا وأخيرا على موازين القوى والحقيقـة المؤكدة أن إيران لم تقبل بـإيقاف النيران إلا نتجة الانتصـارات العراقية العسكـرية التى بـدأت بعد استعادة الفاو وكانـت مراكز الأبحاث الإستراتيجية بل الـدول العالمية والإقليمية تراهن على أن لدى إيران التفوق من ناحيـة موازين القوى وأنها هى التى ستطلق الطلـق الأخيرة فتعـدادهـا ٥٠مليـون فى مقـابـل ١٦ مليـون للعـراق وقـدرتها الاقتصاديـة تفوق كثيرا قدرة العراق عـلاوة على أن النظام القائم ورث بعـدالشاه أكبر وأحدث تـرسانـة أسلحة متطورة إذ كـانت الولايـات المتحدة تعـده ليكون (شرطى الخليج) والقوة الإقليمية المتطورة فى المنطقـة إلى جانب إسرائيل ، ولكن بالاستغلال البـارع للأمكانيات المتاحة والتخطيـط الجيد والإصرار على أن يكون عـائد الإنفـاق على الـدفـاع منعكسـا على زيـادة القـدرة القتـاليـة إلى جـانـب المساعدات العربية التـى سيذكرها التاريخ تمكن العراق مـن رفع نفقات الدفاع عـام ١٩٨٧ ، مثلا إلى٦٨ر١١ مليـار دولار مقـابـل ١١ ,٦ مليار دولار لإيـران وتمكن أيضا أن يحشد فى قطاعاته الثـلاثة علاوة على قوات الاحتياط العام ٥ فرق

مدرعة، ثلاث فرق ميكانيكة، ثلاثين فرقة مشاه، ٤٥٠٠ دبابة، ٤٠٠٠ عربة مدرعة، ٥٠٠ طائرة قتال، فى الوقت الذى أدت فيه استراتيجية طهران إلى تفكيك الجيش النظامى خوفا منه على الحكم ثم الاعتماد على فرق حرس الثورة والقوات الخاصة منخفضة التدريب والقيادة تحارب فى ظل عقيدة كثافة الكتل البشرية ومتجاهلة مبدأ كثافة قوة النيران ومهارة من هم خلف السلاح . . . أن ضمان أكبر عائد فى نفقات الدفاع لزيادة الكفاءة القتالية هو مفتاح الموقف إن مواجهة التفوق العددى أو الكمى للعدو لابد وأن يكون عن طريق التفوق النوعى والكيفى . . والتفوق الكيفى لايتم أبدا عن طريق زيادة حجم نفقات الدفاع ولكن بالفائد الحقيقى من الانفاق سواء من ناحية كفاءة المعدات أو صيانتها أو التدريب عليها وفوق كل ذلك التخطيط الماهر لاستخدامها فيما وجدت له . . إن ا الطريقة الخاطئة التى تتبعها أغلب النظم العربية وهى استيراد السلاح والمعدات ثم وضع الخطة لاستخدام ما استوردته لابد وأن تتغير لكى يسبق وضع الخطة استيراد أو تصنيع الأسلحة اللازمة لتنفيذها . فلابد أن يكون السلاح المستورد أو المصنع صالحا ومناسبا للخطة الموضوعة مسبقا وبدوره يصبح السلاح فى خدمة الغرض بدلا من أن يكون الغرض فى خدمة السلاح .

٥- ان تعديل موازيين القوي يتم حاليا من خارج المنطقة فأى دولة إقليمية قادرة على أن تبدأ القتال فى الوقت أو المكان أو بالطريقة التى تريدها وفى الوقت الذى تريده وبالطريقة التى تريدها ولكن بعد الطلقة الاولى تفقد الدولة قدرتها على إيقاف القتال فى الوقت أو المكان أو بالطريقة التى تريدها لأن استمرار القتال يحتاج إلى طاقة والطاقة غير متوفرة ذاتيا أو إقليميا والقادر على المنح قادر على المنع بما يخدم مصالح دولة المنبع وعلى ذلك فالمشكلة الحقيقية للدولة الإقليمية هى فى جعل السلاح تجارة وليس سياسة وذلك عن طريق تعدد مصادر السلاح بطريقة محكمة تتوزع فيها الأدوار والواجبات وبالتصنيع الجزئى على الأقل للمعدات والذخائر الحرجة وهذا يتم بكفاءة أكبر على مستوى العمل العربى الجماعى .

ماهى خطتنا؟ ماذا تحتاجه هذه الخطة؟ من أين نستورد هذه الاحتياجات؟ ما مقدرتنا على تصنيع بعض هذه الاحتياجات؟ الوقت اللازم لتغطية احتياجات الخطة الموضوعة؟ كيف نتدرب؟ كيف نوفر القيادة والسيطرة والمواصلات؟ ثم الجهود لتعديل الخطة الموضوعة؟ . . . وتبدأ الدائرة من جديد .

٦ ـ القدرة على الوصول إلى عمق العدو عامل لحسم الموقف على المواجهة ، فالتفوق الجوى العراقى الذى هدد العمق الإيرانى طوال فترة القتال اضطر إيران إلى تعويض النقص فى القوات الجوية باستخدام الصواريخ متوسطة المدى إلا أن نجاح العراق فى تحقيق حالة « التعادل » فى الصواريخ علاوة على التفوق الجوى أجبرا إيران على إيقاف حرب الصواريخ أو حرب المدن كخطوة سبقت قبولها بقرار مجلس الأمن ٥٩٨ الذى رفضته من قبل .

فإذا كان العدو لديه الرادع المصدق الذى يصل إلى عمقى فلابد أن أبذل جهدى لأوفر الرادع المصدق الذى يصل إلى عمقه .

٧ ـ لم تكن دول مجلس التعاون ضمن خططها الأمنية أو أمكانياتها المتاحة قادرة على حماية حرية الملاحة سواء فى مياهها الإقليمية أو فى الخليج واضطر الموقف إلى طلب المساعدة الأجنبية فوجدت الأساطيل للقيام بالمهمة داخل الخليج وخارجه وما تبع ذلك من استخدام تسهيلات ضرورية من بعض دول المنطقة تكفل لهذه القوات القيام بواجباتها وعلينا أن نتذكر أن هذه القوات أو معظمها مازالت موجودة فى المنطقة فى انتظار ماسوف تتطور إليه الأمور.

٨ ـ إن حالة الاستقرار المهزوز فى المنطقة أصبح مفروضا بواسطة الإرادة الدولية عن طريق قوات الطوارئ فى أكثر من مكان : قوات متعددة الجنسيات فى سيناء قوات طوارئ فى جنوب لبنان ، قوات فى الجولان ، قوات فى الضفة الغربية ، قوات أخرى بين العراق وإيران . . . علاوة على الأساطيل الموجودة هنا وهناك . . . إذن فالأوضاع الحالية فى المنطقة مفروضة فى واقع الحال بإرادة دولية . . . ما الموقف إذن؟ هل يستمر الوضع على ما هو عليه؟ إن السلام القلق فى المنطقة ، وخمود النيران هنا وهناك وليس إطفاؤها وعدم حل الأزمات بل زيادتها بطريقة تراكمية توجب الإقدام على العمل الجماعى بدون تأجيل وعلى التسلح تحسبا للانفجارات التى تحدث هنا وهناك دون سابق إنذار .

الخلاصة :

تأثير توقف الحرب العراقية الإيرانية على نظامنا الإقليمى يتلخص فى :

١ ـ توقف الحرب ليس معناه انتهاء الصراع وعلى العالم العربى خاصة الدول المجاورة لإيران أن ترسم سياستها على أساس .

(أ)قد تطول فترة (اللاسلم واللاحرب)والتى لايستبعد فيها استئناف القتال .

(ب) التعامل مع إيران الدولة التى تريد تطبيعا فى علاقتها مع الدول المجاورة وإيران الثورة التى تسعى الى تصدير مبادئها عبر حدودها السياسية .

٢ ـ الاستراتيجية الناقصة التى لاتسعى لمواجهة التهديد بكل أبعاده استراتيجية عرجاء فالموقف الجوبوبليتيكى يؤكد عدم الفصل فى نظرتنا بين منابع البترول وخطوط مواصلاته وبهذه المناسبة فكما فكرت العراق والسعودية فى إيجاد بديل لمضيق هرمز ببناء خط الأنابيب هل يمكن لدول الخليج أن تفكر نفس التفكير بإنشاء بدائل لها عبر أنبوب يمر إلى خور فكان على بحر العرب تحسبا للظروف؟ .

٣ ـ الإرادة العربية غير مستغلة تماماً سواء على المستوى الإقليمى أو المستويات غير الإقليمية و الموقف فى دول مجلس التعاون يحتاج إلى تعزيز كامل لنمو إرادتة فتجمع دوله لايعنى إطلاقا تجمع إراداتها .

٤ ـ يجب أن تركز الدول العربية على استراتيجية الردع آخذة فى اعتبارها الدروس المستفادة من الحرب العراقية الإيرانية ، خاصة الصواريخ التى فتحت أمامنا مجالات واسعة لنمو الإرادة ، كذا الحرب الكيماوية والبيولوجية لردع التهديد النووى الإسرائيلى بصفتها قنبلة الفقراء .

٥ ـ لابد من خوض معركة توازن القوى على أساس الكيف وليس على أساسى الكم ، تعويض العجز فى القوة البشرية عن طريق الارتقاء بالوسائل النوعية ، كما يجب الاهتمام ببناء القدرات علما أن القدرة هى محصلة مجموع القوى السياسيةوالعسكرية والاقتصادية فى الدولة أو مجموعة الدول التى تتعاون فى عمل جماعى واحد .

٦ ـ على الرغم من أن النظام الإقليمى العربى يتجه إلى تجنب الخلافات العربية ـ العربية إلا أن المراحل التى وصل إليها هذا الاتجاه لايضيف إلا القليل للإرادة العربية الشاملة والصراع فى رأيى صراع إرادات مدعمة بعوامل القدرة والقوة ، فالسياسة بدون قوة رادعة رضيعة بلا أنياب .

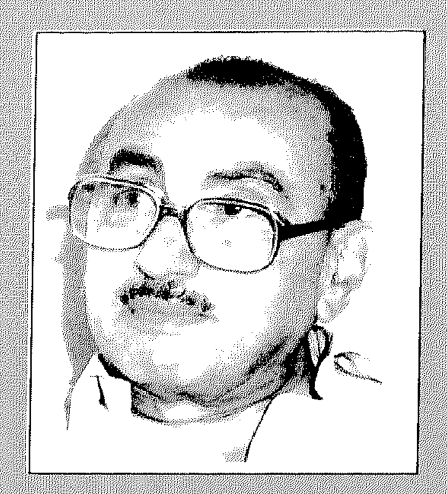
وسط هذا الموقف المضطرب قامت حرب الخليج الثانية للأسف فقام العراق بغزو الكويت الأمر الذى لم يتوقعه أحد ، وتغير النظام الإقليمى تغيراً كاملاً فسقطت الثوابت وأجيزت المحرمات وتغيرت لهجة التفاهم فقد أطاحت (عاصفة الصحراء) بكثير من المفاهيم أخضعت البعض منا لها والبعض الآخر يحاول أن يحنى رأسه للعاصفة فى انتظار انكسارها بعد وقت قصير أو طويل فعلم ذلك عند الله .

الفهرس

رقم الإيداع : ١١٤٧٢/ ٩٧
I.S.B.N.: 977 - 09 - 0400 - 7

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



التحولات الإستراتيجية الخطيرة

البيروسترويكا وحرب الخليج الأولى

أراد المؤلف أن يقدم أراءه في مواضيع هامة وتحولات إستراتيجية خطيرة بعد أن فجر ميخائيل جورباتشوف «البيروسترويكا والجلاسنوست» في موسكو، وهنا اعتبر البعض أن ماحدث نهاية للتاريخ، واعتبر البعض أن ماحدث بداية لنظام عالمي جديد، ولكن تساءل المؤلف: جديد في ماذا؟ وجديد لمن؟

وأين يتجه العالم الآن: هل يتجه إلى نظام الهيمنة، أما نظام وحدة القوى، أم نظام توازن القوى؟

وركز الكتاب على مفهوم استخدام القوة في السياسة، فهي التي تحقق توازنا تبني عليه توازن المصالح، لأن الاستقرار الحقيقي لايمكن أن يتم إلا على أساس اتفاقيات حكمية مبنية على توازن المصالح، والاتفاقيات التي تبنى على أساس توازن القوى هي اتفاقيات رديئة لأنها مؤقتة.

ثم تحدث الكتاب عن الفكر الإستراتيجي المعاصر، وكيف تحولت الإستراتيجية إلى فن إدارة الأزمات، حيث تغير مفهوم الأزمة وإدارتها في ظل النظام العالمي المراوغ. وتحدث الكتاب عن إدارة أزمة السويس، وإدارة أزمة لوكربي. ثم ختم المؤلف كتابه بالتحدث عن النظام الإقليمي بعد الحرب الخليجية الأولى بين بغداد وطهران.

والمؤلف حاصل على بكالويوس العلوم العسكرية، وماجستير العلوم العسكرية من كلية أركان الحرب المصرية، ومن كلية القيادة والأركان بليفنوورث ـ كنساس بالولايات المتحدة، وماجستير الصحافة والترجمة والنشر من جامعة القاهرة.

عمل كمستشار للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وسفيرا بالمغرب والعراق، ووزيرا للإرشاد القومي، ووزيرا للدولة لشئون مجلس الوزراء، ثم وزيرا للدفاع بعد نكسة ١٩٦٧، ورئيسا للمخابرات العامة في نفس الوقت.

له أكثر من ٢٥ كتابً باللغتين العربية والإنجليزية في الصراع الدولي والإقليمي وإدارة الأزمات.

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية
ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - ٢٦٢٣٥٤٨
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

To: www.al-mostafa.com